رواية

أنفاسٌ ثلاثة

دعاء علي

دار البشير

أنفاسٌ ثالثة

الطبعة الأولى
1440 هـ
2018 م

اسم الكتاب: أنفـاسٌ ثالثة
التأليف: دعاء علي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 240 صفحات
عدد الملازم: 15 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2018/23726
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 733 - 3

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

أنفاسٌ ثالثة

رواية

دعاء علي

دار البشير للثقافة والعلوم

«في روايتي..
نحن اللذان لم تجمعنا صورة ولا طريق»

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

للهمي المنفي عن أرضي، المحجوبة عن سماه..
كفاني منْك أنّ حرفي "مريميّ" لم يمسَسْه بشر،
وأنّ قُصيّ المكان لطهر المكانة،
وأنني سأضعك من غير مخاضٍ على حرف،
وأنّك الحرف..
وأنّني أمّ الحرف وأبوه.

دعاء علي

دار البشير للثقافة والعلوم

مقدّمة

أَحَبَّها.. ولم يجعل لمحبّتها أثرًا إلّا بقلبه، فشرعت هي تعاقبه بالمسافة، بينما تنقّب بجرأة محارب خرج للفوز أو الشهادة عن ذلك الحبّ المزعوم داخلَ قلبه، وهي أبعدُ ما تكون عنه.

وهي.. في ساحة الحبّ الأبيض، متمرّدة على الأنصاف وتريد الإنْصاف، لا تعبأ بألمِه من أثر الفراق، بقدْر ما تهتمّ أن يُرى فيه ذلك النزفُ الذي يستجلب تساؤلاتهم، فيهمس لهم ألمًا أنّه.. "أَحَبَّها".

أمّا قبل، فكانت خطيئتها أنّها كانت نورًا، وأنّها ما تركت في قلبها مكانًا مظلمًا يضيئه حلوله أو يطفئه غيابُه، وكانت كبيرَته أنّه ابتلعها كثقبٍ أسودٍ في منطقة الزمكان، وكما أنّ جاذبية ثقب أسودٍ لقادرة أن تقوّس الفضاء حوله، ممّا يجعل شعاعَ ضوء يسير فيه بشكلٍ منحنٍ بدلًا من سيره في خطّ مستقيم.

كان هو كذلك، لقد التهمَها منذ أوّل طرفة لها عليه، فسَرتْ داخله متعرّجة لسنوات وسنوات، قبل أن يشتعل كلّ النور فيها من جديد لتتحوّل إلى نجمٍ هائل في هذا الفضاء العظيم!

كلّ هذه الأوراق البيضاء التي رصّعتها بجواهر الكَلِم لأجله، والتي تستقرّ بها الآن كحوتِ يونس وظلماتٍ ثلاث تُحِطن بها؛ «الوحدة، القلم، والأوراق»، وما مِن بصيص نورٍ ينير عالمها إلّا ملمحه رغم كلّ وجع منه، تستحضر روحَه وذلك الوميضَ الذي فضّ بكارة عينيْها فنظرت ورأتْه.

كانت نظرةً فارقة..

سهرت فيها ذاتَ ليلة أمام حلمِها السندرليّ المختلف، ليس لتهرع عند انتصاف الليل تاركةً حذاءها خلفها كدليلٍ إليها؛ وإنما لتُقبل عليه وهي تحمل قلبَها كهديةِ عيد، تضعه على عتبته، ثمّ تتولّى إلى الظِلّ.

ما زالت أسيرةً لتلك البداية رغم خطوبِ الحكاية، التي توالت على قلبها وروحها، وما زال هو آسِرَها رغم محاولاتِ الماضي المُستميتة في استخلاصه لنفسه كعابرٍ مرّ على قلبها وخَلَّف فيه جرحًا قبل أن ينتزعه ذلك الزمنُ كذكرى، أو هكذا كان الماضي يريده، وكانت هي تذكّره بإباء المنزوعة من صدره، كضلعٍ منه خُلِقت من غيرِ حولٍ منه ولا قوّة، وبعزّة المؤمنة به كلّه مازالت تُظلّه بها، رغم جلل انعكاساته فوق سواها.

وما أكثرهنّ!

وأمّا بعد، فها هي تلفظ كلّ ما تبقّى منها إلى الأوراق، تصنع من كلماتها زورقًا تُشَرِّعَه بقميصه الذي أبلاه مِلْح أدمعِها، وتبحر عنه، تبتعد جدًّا، تلقم الموج بصدق ما بها و"هو بها" على طول الفرقة، توضّئه بعشقها من كلّ تيمّماته بهنّ، وهُنَّ يلقبّنه بـ «الحبيب»، غير أنّه «ملهمها»..

الذي قالت له قبل أن تبحر مبتعدةً عنه:

"فانيًا أنتَ في قلوبهنّ مهْما مكثت، فابقَ ساطعًا كالشمسِ فوق أوراقي بلا قيامة فافخر أنّك بي".

(دعاء علي)

«البرواز»

شيء من كبرياء مشاعرنا يأبى أنْ نقبل بالأنصاف، فنقبل بتمام القطيعة على وصل مقيّد بأنّ مثله لا وجود له في الدّين أو العرف، شيء من قويم فطرتنا قبل عظيم همّتنا في تحرّي ما حرّم الله وما أحلّ؛ يأبى أن تجمعنا صورةٌ مع حبيبٍ، لا تصلح للعلن أو لذلك الإطار الفارغ فوق مكاتبنا انتظارًا لمَن ننتمي إليه، ويكتمل بنا، والذي ما زال فوق مكتبها مثله حتى الآن.

ببطءٍ نقلت طرفَها الدامع إليه، وأخذت ترمقه بنظرةٍ مُشفقة حيث وضعته- بعنايةٍ- فوق مكتبها بزاويةٍ معينة تسمح لها بالنّظر إليه مهْما اختلفت جلستُها داخل الغرفة، تحسّست إحدى زواياه بحزن، مرّرت أصابعها فوق ذلك الشّرخ به حتى استقرّ أحدهم في تلك الحفرة الصغيرة التي خلّفها فقدُه لإحدى تلك الجواهر الملوّنة التي تزيّن حوافّه، تبدّل المسكن، وذهبت غرفتها أدراجَ الرياح مع كلّ أثاث البيت، وخرجت هي به كناجٍ وحيدٍ معها، إثْر ذلك الحريق الضخم الذي التهمَ المنزل بأكمله.

سَرعان ما أطلّت من ذاكرتها تلك اللّيلة القريبة بكلّ الذكريات فيها، فتراءت لها من جديدٍ تلك الشجرةَ التي كانت خارجَ غرفتها كأوّل لقطة، وقد كانت الأخيرة بعيدةً في هذا الحدث القريب، كيف اقتربتْ تلك الشجرة في تلك اللحظةِ إلى هذه المسافة حتى جاورت نافذتها من الخارج فجأة؟!

أو هكذا رأتها لأوّل مرّة وهي تقفز لتتعلّق بأحد فروعها بأنفاسٍ متقطّعة بعد أن جاهدت طويلًا للوصول إليه، بينما تتفادى النيران التي شبّت في

12 أنفاس ثالثة

إطار النّافذة بضراوة ليجدها المسعفون بعدَها داخل كومةٍ من الرّمال بجوار الشجرة مغشيًّا عليها من أثر السقوط، جسدُها قد تهاوى دفعةً واحدة من الطّابق الثالث، وما حال بينها وبين حتفِها في تلك اللحظة إلّا هذا البرواز الأنيق للغاية، والخالي من أيّة صورة داخله، والذي تتحسّسه هي الآن بأناملها وهي شاردةُ الذهن.

لا تدري حتى يومها هذا كيف أنّها التقطته بلهفةٍ من فوق مكتبها حيث النيران أخذت طريقَها إليه فحالت هي بينها وبينه، حين هُرعت إليه تخطفه كوليدٍ أفزع الخطرُ أمّه فتحرّكت صوْبه بلا إرادة تلتقطه بلهفٍ، ثمّ دسّته بين طيّات ثيابها من دون تفكيرٍ وهي لا تدري ما الذي يحدث؟! أو ما هو مصيرهما معًا بعد؟! لم تكنْ تدري- وهي تفعل- لماذا أقْدمت على إخفاء البرواز أسفل ملابسها؛ فهي في وضع يصعب على مثلها النّجاة منه أو يستحيل، لقد استيقظت من نومها فجأة لتجد النيرانَ تحيط بها من كلّ صوب، وأصوات الانفجارات المُخيفة بالخارج تُرعبها وتجعلها- للحظة- تظنّ أنّ كلّ هذا غير حقيقي، وأنّها- الآن- داخل كابوسٍ مزعج ستستيقظ منه بين لحظةٍ وأخرى على أفضل حال، خرج صوتُها متقطّعًا وهي تصرخ مُستنجدة باسم أبيها بقوّة كي يأتي وينقذها ممّا هي فيه، ثمّ توالت على فمِها النداءات دون طائلٍ لم يوقف صرخاتِها سوى ذلك الصوت الذي صدر من خلفها.

دويّ طرقعة سحّاب النافذة خلفَها جعلها تلتفتُ إلى الأخيرة بحدّة وهي تُفتَح على مصراعيها فجأة، وكأنّها آخرُ نداء يسمعه روّاد المطارات، فيصعد آخرُ مسافر إلى الطائرة من دون وعي قبل أن يتخلّف عن موعدها، هكذا

استجاب جسدُها دفعةً واحدة عند رؤيتها للنافذة وهي تفتح لها ذراعيها فاندفعت صوْبها لتجد تلك الشجرة أسفلَها مباشرة، وكانت هذه هي المرّة التي تراها فيها قريبة هكذا.

أو هكذا ظنّت!

فالمسافةُ بين قفزتها وبين الوصول إلى أقرب فرعٍ منها طالته يداها، كانت أشبه بانتظارٍ غائبٍ لا تدري متى.. أو كيف.. أوَ مِن أيّ صوبٍ سيعود، شعرت بوارفها المبلّل فجأة فأخذت تجاهد للتشبّث بشيء منه حتى بلغت ذلك الفرع الذي وجدته بين راحتيها، وبيْدَ أنها لم تتشبّث به جيدًا فأخذت تنزلق من جديدٍ باتجاه الأرض، ولكنْ هذه المرّة بحدّةٍ أقل، غير أنّها اصطدمت في طريقها بأحدِ الجذوع الصّلدة، فحالَ البرواز داخل طيّات ثيابها بينها وبينه ممّا خفّف من حدّة سقطتها أكثر، وقذف بها عدّة أمتار، حتى وصلت إلى تلك الكوْمة من الرمال بجوار الشجرة لتمتَصّ - بطبيعتها- ما تبقّى من حدّة السّقوط وهي تبتلع داخلَها جانبَها الأيسر كلّه.

هناك في المشفى، استهلّها طاقم الاستقبال فوْرَ وصول سيارة الإسعاف إلى مستقرّها به، فهرول إلى السيارة أربعة رجالٍ شداد البِنية بيْدَ أنّهم قد تمّ اختيارهم من أجل مهمتهم هذه بعناية، ليصعد اثنان منهم إلى داخل السيارة، بينما الآخران ينتظران خارجها حتى يدفع لهما بـ «الحالة» كما يطلقون عليها عادة.

تركها المُسعفون بعد انتهاء مهمّتهم داخل غرفةِ الاستقبال الكبيرة، والتي يتمّ فحص الحالات فيها على عَجَل، قبل أن يرتّب الطبيب أفكارَ الحضور مع المريض بقائمةٍ من الطلبات التي ما يكون أوّلها عمل إشاعة بقسم الأشعة،

والتي عادة ما تكون في نفس الدّور من المشفى، هبَّ طبيبُ الاستقبال من فوق مكتبه، وهُرع إليها فوْر دخولها إلى الغرفة، وبدأ بإلقاء الأوامر لطاقم المساعدة، والذي اصطفّ بدوْره كخلية نحلٍ تعرف مهمّتها جيدًا بحُكم الخبرة التي اكتسبوها من كثرة ما يردُ عليهم داخل هذا القسم من حالاتٍ مشابهة.

لم يكنْ هناك وقتٌ ليتعجّب أحدٌ منهم من احتضانها لذلك البرواز أسفلَ ثيابها بهذه القوّة؛ فقد انشغل الجميعُ بمساعدة الطبيب الذي توسّطهم ليتمكّن من فحص حروقها بعد أن نزع فريقُ المساعدة عنها ملابسها، والتي صنّفها الطبيب أخيرًا بعد فحصٍ طويل- على عِظم تأوّهاتها- أنّها حروقٌ من الدرجة الأولى، وكان هذا هو مصدرَ دهشة الجميع الحقيقي، فبعد أن سيطرت سياراتُ الإطفاء على الحريق الهائل الذي التهمَ البيت عن آخره؛ قام فريقُ الإسعاف بإخراج جميع الجثث من المنزل وهي متفحّمة تمامًا إلى الحدّ الذي جعل التعرفَ عليهم من ملامحهم مستحيلًا، فكانت السّاعة.. وكان السّوار أو الخاتم هُما دليليْ تعرّفها عليهم فيما بعد.

أصعب من الشعور باليتم فجأة؛ أنْ تكون مطالبًا برؤية كلّ أسرتك أمامك، وهُم ليسوا هُم، مجرّد هياكل سوداء تفوح منهم رائحةُ الشواء المثيرة للغثيان بجدارة، ما أقساه من شعورٍ إذا وقع في قلوب أعتى الرجال، فكيف هو الحالُ حين يخرج مثله من طيّات قلب أنثى كتلك التي تقف أمام مَن حولها في ذلك المكان البارد المسمّى بـ «المشرحة» وهي شبهُ محنيّة الظهر، بينما تتكئ بكلتا راحتيها على مجرّد عصاة، بدتْ «عهد» للناظر من بعيد كعجوزٍ خرجت من بيتها بالكاد وهي تجرّ خطاها لتقضي لنفسها حاجةً لن يقضيها

عنها أحد، ومع كلّ خطوة لها تحصدُ مزيدًا من الشّفقة من كلّ عينٍ إليها تنظر، بينما هي تنظرُ بعمقٍ إلى اللا شيء وكأنّها قد تناولت حفنةً من تلك الأدوية المخدّرة التي تصيبُ مُتعاطيها بالبَلادة والتيه معًا، مهْما وقع حولهم من فواجع.

انتهى ذلك المشهدُ الحزين بطيئًا جدًّا، لتخرج «عهد» من ثلاجة الموتى وهي شبه مُغمضة العينين، لا تصدّق أنها قد أطرفت بالأمس على أسرتها، فلمّا استعادت طرفها وجدت نفسها على قارعة الحياة وحيدةً تحمل لقبَ يتيمة، ومحاطةً بعيون دامعة، لا يصدق أصحابُها شيئًا ممّا جرى، بينما يتساءل البعض عن السببِ وراء ما حدث، كان آخرون يتساءلون عن مصير «عهد» بعدما فقدت للتوّ كلّ أسرتها في حادثةٍ يؤوها الجميع؛ كلّ من زاويته، وتبقى حقيقتُها واحدة.

وتلك الحقيقة وحدَها «عهد» تخبّئها داخلَ رأسها الذي ما زالت تفوح منه تلك الرائحة لأسرتها المحترقة خلفها.

***

عدّة طرقاتٍ خفيفة على باب حجرتها أعادتها إلى واقعِها من جديد، ودون أن تجيب الطّارق، انفتح البابُ ببطء، وصوتٌ هادئ رخيم يردّد اسمَها من خلفِه بتوجّسٍ:

– «عهد»، أأنتِ مستيقظة يا ابنتي؟!

– نعم مستيقظة يا خالة، تفضّلي.

– بل تفضّلي أنتِ معي، لقد جهّزت لكِ العشاء، هيّا.

كانت قد أطلّت السيدة بجزءٍ من رأسها داخل الحجرة لترى- بالكاد- نصفَ جسد «عهد» العلوي من خلف مكتبها، وعينا الأخيرة تترقرق فيهما الدّموع دون انهمار، فاستطردت حديثَها وهي تهمس بلهفة:

- «عهد»، هل تبكين بنيّتي! أأنتِ بخير؟!

هبّت «عهد» من فوق مكتبها، وهُرعت باتّجاه الباب لتفتحه عن آخره بلهفةٍ قبل أن تلقي بجسدها كلّه داخلَ أحضان العجوز التي تقف على عتبته، فاستقبَلتها السيدةُ بطبطبات خفيفة على ظهرها وهي تقول:

- كلّ شيء سيكون بخير، لا تقلقي؛ لن يطول هذا الحال علينا، وإنْ طال فلن أتركك أبدًا، لا أحد لي سواكِ، ووحدك تملكين مفاتيحَ كلّ الأسرار، لا أعرف ما هو سرّ وجودي بحياتك أو ما هو المصير الذي ينتظرني معك، لكنّ ما أعرفه جيدًا أنّك قد استدعيتني تلك الليلة بالمشفى، وأنّني لبّيْت دعوتك ودعوتها أيضًا.. ابنتي يا «عهد».. ربّما أنا هنا لأعرف منكِ ما الذي حدث لابنتي؟!

أعادت كلماتُ العجوز «عهد» إلى المشفى من جديد، إلى الأمس تحديدًا، والذي وافق الليلة الثالثة لها بتلك المشفى، لا تدري «عهد» كيف حدث ذلك الحريق في البيت الكبير، أو مَن الذي أحدثه، كما أنّها لا تعرف كيف نجتْ منه! أمّا جهلها بكيفية إحضارها إلى تلك المستشفى، فلا يقلّ عن جهلها التّأمّ بتلك الابنة التي تتحدّث عنها «أمّ عائشة» الآن؟! أطفلةٌ هي، أمّ فتاة، أمّ هي سيدة.. لا تدري؟!

لا تدري.. إلّا أنّها قد تفاجأت بوجود «أمّ عائشة» داخل المستشفى وكأنّها طوت زمانًا ما ومكانًا ما، وجاءتها قاصدة، في حين أنّ الأخيرة لم

تفاجأ بوجود «عهد» وكأنّها على موعدٍ معها، أو أنّها قاصدتها بالفعل، فقد سبقَ واختفت «أمّ عائشة» ذلك اليوم من قريتهم بعد أنْ قالت لـ «عهد» تلك المقولةَ الخالدة في ذهن الأخيرة وبين أوراقها.

والتي حلّت بذهن «عهد» فوْر ظهور «أمّ عائشة» أمامها داخل المشفى، فوضعت «عهد» راحتها اليسرى موضعَ قلبها، وأخذت تردّدها دون وعي:

(يوسف في البئر، وقميصه معه، لا تجعلي عينيْكِ تبيضان عليه من الحزن، وافرحي هونًا، حتى يأذن الله للأرواح أن تسكن).

كانت «عهد» ممتلئةً عن آخرها بالدهشة وهي توجّه إليها الأسئلة؛ السؤال يلي السؤال:

– «أمّ عائشة»، لماذا اختفيتِ بعد ذاك اليوم؟! ومتى عدتِ؟! ثمّ ما الذي أتى بكِ إلى الإسكندرية؟! هل تتذكّريني بالأساس يا خالة؟!

بابتسامتِها المعهودة وصوتِها الخفيض، أجابتها:

– منذ متى ينسى صاحبُ السرّ عهدَه؟ «عهد»، أظن أنّه الأوان قد آن، لقد كنت يومًا هناك من أجلي، واليوم أنا هنا من أجلك، هيّا معي.. وستعرفين كلّ شيء في الوقت المناسب، وفي المكان المقصود.

أتمّت العجوز جملتَها وهي تلتقط كفَّ «عهد» لتقيمها من فوقِ ذلك الفراش ذي الأغطية البيضاء الذي كانت تستلقي عليه، ثمّ وضعتْها فوق كتفها، وأخذت تخطو بها خارجَ المشفى، و«عهد» تتبعها في استسلام تامّ دون أن تسألها إلى أين.

لم تنتظر «أمّ عائشة» و«عهد» طويلًا داخل محطة قطار «سيدي جابر» الشهيرة بالإسكندرية، بيْدَ أنّ الأولى قد رتّبت لكلّ شيء بدقّة، كانت ملمّة

بتفاصيل المكان وكأنّها من عوّاده، وما أنْ لاح القطار الذي كانت تنتظرُه من بعيد حتى قبضت على رسْغ «عهد» بثقةٍ واتّجهت بها إليه في خطًى ثابتة، والأخيرة لا تنفكّ تردّد جُملتها القديمة طيلةَ الوقت: (يوسف في البئر وقميصُه معه، لا تجعلي عينيْكِ تبيضّان عليه من الحزن، وافرحي هونًا، حتى يأذن الله للأرواح أن تسكن).

وكأنّ «عهد» تعلم أنّها بطريقها إليه..

«بئر يوسف» أو يمّه، وربّما محيطه.. لا تدري، هو به زرقةُ ماء البحر وملحه وزبدُه وهوامُّه وظلماتُه وطهرُه، إلّا أنّها أسيرة لعتوٍّ موجه الهادرِ والآسر بنفس الوقت، حتى أنّها ما عادت تدري أهو قذيف بئره، أمَ أنّها هي سبية طيفه الذي طالما تراءى لها فوق كلّ ماء، حتى ماء ذلك الكأس الذي اعتادت أن تشرب منه كلّ ساعة!

كانت بوابةُ المنزل الذي توقّفت «أمّ عائشة» أمامها غريبة على طرف «عهد»، أو ربّما هي تعرفها لكنّ ذاكرتها خانتها في تذكّرها، أو بيْدَ أنّها لم تكن تريد أنْ ترهق نفسها في ذلك، دلفت «عهد» إلى داخل البيت خلفَ العجوز، وما أنْ أغلقت الأخيرة البابَ خلفهما حتى اتّجهت «عهد» بناظريها إلى غرفةٍ بعينها من بين عدّة غرف كانت كلّها تطلّ على ساحة الدار، توقّفت «عهد» قليلًا أمام باب الغرفة وهي تتأمّله بشيء من الألفة، فإذا بالباب يُفتح وحدَه، وإذا بذاكرتها تنتعش دفعةً واحدة.. إنّها غرفتها!

كلّ شيء داخل الغرفة في موضعه عدا مكتبها، الذي كان يعلوه حاسب آليّ من الطراز الحديث جدًّا، والغريب جدًّا على ناظريّ «عهد» كذلك، فأخذت تنظرُ بدهشة إلى شاشته المضاءة بضوءٍ بنفسجيٍّ خافتٍ، واليوم

والتاريخ يتراقصان فوقها يمينًا ويسارًا وأعلى وأسفل، مشيران إلى أنه السّابع عشر من أغسطس لعام ٢٠١٣ ميلادية. ما أنِ التقطت عينا «عهد» التاريخ واليوم حتى تساءلت بصوتٍ تائهٍ:

– كيف هذا منذ ثلاثِ ليالٍ فقط كنّا في العام ٢٠٠٣، كيف مرّت تلك الأعوام العشرة؟! ما الذي حدث لي؟! هل تجاوزت الثلاثين من عمري حقًّا؟! كنت قبلَ ثلاثة أيام في الخامسة والعشرين من عمري! كيف مرّت هذه السنوات العشر؟ وكيف لا أتذكّرهم؟!

انتفضت «عهد» بينما تفتح عينيْها على واقعها الجديد، عندما أحسّت براحة «أمّ عائشة» وهي تربتُ على ظهرها بحنان، قبل أن تدعوها من جديدٍ لتناول العشاء الذي أعدّته لها، فخرجت «عهد» معها باستسلام، وما زالت تلك التّساؤلات حول ذلك (التاريخ) الذي رأته فوق ذلك الحاسب تدور في ذهنها، إلّا أنها حين تفوّهت جاء سؤالها عن شيءٍ آخر.. لقد خرج سؤالها الذي وجّهته لأمّ عائشة دون وعي، عنه هو.. عن «الحاسب» نفسه.

– مِن أين أتى ذلك الحاسب الآليّ الغريب؟! ومَن وضعه على مكتبي يا خالة؟!

قالتها وهي تشير بأصبعها إلى الحاسب المحمول فوق مكتبها، وكأنّه كلّ ما يشغلها، همّت «أمّ عائشة» أن تتفوّه بشيء ما، لكن «عهد» استطردت وهي تنظر إلى شاشته وكأنّها استردّت شيئًا من ذاكرتها:

– مهلًا مهلًا؛ إنّ شاشته المضاءة تطلب إدخالَ رقم سرّي، أظنني أعرف ذلك الرقم..

قالتها وهي تتّجه إلى لوحةِ المفاتيح الملتصقة بشاشة الحاسب الآلي بشكلٍ غير مألوف لها، ثمّ قامت بإدخال رقم ما، وإذا بشاشة الحاسوب وهي تُفتحُ على صورته، بشهقة ألمٍ مريميّة أو ربماً بردّة طرفٍ يعقوبية، أشارت هي إليه وهي تهمس:

– «يوسف»!

***

– لِمَ يدور الزمنُ بشكلٍ معكوس؟ لا أدري! إنّ تاريخ اليوم الظاهرَ على شاشة هذا الحاسب الآليّ يشير إلى أنّه السادس عشر من أغسطس لعام ٢٠١٣! ما الذي يجري هنا؟!

– «عهد»، لا تتعجّلي الأمور يا ابنتي، وأخبريني كيف عرفتِ كلمة السّر التي أدخلتها بالأمس داخل ذلك المستطيل فوق شاشته؟! هل الأرقام التي قمتِ بإدخالها كرقمٍ سريّ تعني لكِ أي شيء؟!

قالت «أمّ عائشة» جُملتها، بينما تضع أمام «عهد» فنجانًا من القهوة، ما أنِ استنشقت الأخيرة رائحتها حتى التفتت إلى الفنجان وهي شبه باسمةَ الثغر، تلاشت نصفُ ابتسامتها تلك فجأة أمام تلك الورِيقة التي تجاور الفنجانَ فوق صحنِه، والتي دُوِّن فوقها بضعُ كلمات بخطٍ جميل، دون أن تلتقط «عهد» الورقة أخذت تقرأ ما دُوِّن فوقها بصوتٍ جعلها تبدو لناظرتها كالمسحورة:

"صباح الخير يا زوجتي العزيزة، أنا مَن أعددت قهوتك، وأنا أحبّك.
«يوسف»".

– مَن الذي كتب هذه الكلمات يا أمّ عائشة؟!

قالتها «عهد»، وأخذت تقلّب كفّيها وهي تتحسّس أصابعها بحثًا عن خاتم خطبة أو زواج أو عن أيّ أثر لأحدهما ظنًّا أنْ تكون فقدته بالمشفى أو أثناء سقوطها من النافذة تلك الليلةً، لمّا لم تجدْ بكلا بنصريْها أيَّ خاتم ولا أيَّ أثر أخذت تتساءل متوجّهة بحديثها إلى عائشة:

– كيف التقيتِ به؟ أأنا مَن وجدته، أمّ هو مَن وجدني؟! ثمّ هل تزوَّجنا؟! أين «يوسف» يا خالة؟! منذ متى وهو بحياتي؟! وكيف أنّني أتذكّر ملامحه وهذه الصورة فوق سطح هذا الحاسب، ولا أتذكّر تفاصيل حياتي معه؟! هل فقدت ذاكرتي في تلك الحادثة؟! كيف وقد تذكّرتك يا خالة، وأذكر كلّ شيء حتى العام ٢٠٠٣؟! هذا الحاسب الآلي حديث الطراز جدًّا.. مِن أين أتى؟! وكيف يشير التاريخُ بداخله إلى سقوط عشرة أعوام من عمري ومن ذاكرتي كذلك؟! وكيف أنّ التاريخ بداخله اليوم يسيرُ بشكل معكوس فينقُص بدلًا من أن يزيد؟! لا أدري ما الذي يحدث لي! ما الذي يحدث هنا يا خالة؟!

بدتْ «عهد» هادئة جدًّا وهي تتساءل رغم أنّ كلّ شيء حولها غيرُ منطقي وكفيلٌ بأن يستدعي انفعالاتها جميعًا، ويجبرها أن تثور، لكنها لا تفعل، جالسة هي في هدوء يثير عجبَها، كما تتعجب مِن كلّ شيء حدث ويحدث حولها!

– هل تذكرين هذه الكلمات يا «عهد»؟!

التقطت «عهد» رزمةَ الأوراق المحبرة من بين كفّي «أمّ عائشة»، وأخذت تقلّب بعض صفحاتها وهي تتمتم:

– هذه أوراقي.. كيف لم تحترق ككلّ شيء كان بمنزلنا؟! لماذا لم يحلّق رمادها مع كلّ شيء أذهبته النيران أدراجَ الرياح؟!

التقطت شيئًا من أنفاسها قبل أن تستطرد حديثها، ويدها تمتدّ بالأوراق إلى أمّ عائشة:

– أنا يا خالة مَن كتب هذه الكلمات، لكني لا أتذكّر متى، أو لماذا، أو أين كتبتُها؟

تنهّدت «أمّ عائشة» تنهيدةً حارة وهي تلتقط منها الأوراقَ من جديد، وأخذت تقلّب صفحاتها حتى وصلت إلى صفحةٍ بعينها، ثمّ قامت بإدارتها لتصبح تحت طائلة عيْنيّ «عهد» وهي تقول:

– أخبريني يا ابنتي، كيف تمكّنتِ من كتابة ما خططْتِه هنا وكأنّك كنتِ مع ابنتي «عائشة»؟! كيف استطعتِ أنْ تكتبي ما كتبته عنها مِن شاسع خيالك؟! ولِمَ توقّفت هنا رغم أنّ ما بدأته لم ينتهِ بعد؟!

– لا أفهم ما الذي تعنيه يا خالة؟! مَن منّا سيجيب الآخرَ على تساؤلاته التي تملؤه؟! ظننت أنّ لديك كلّ الإجابات على أسئلتي، ثمّ ما الذي تعنيه بقولك أنّ ما بدأته لم ينته بعد؟!

همّت «أمّ عائشة» بالوقوف وهي تمدّ يدها تلتقط فنجانَ القهوة الذي بردَ دون أن تلمسه «عهد»، فأسقطت بذراعها في طريق عودته ذلك «الإطار» فوق مكتبِ الأخيرة، وجعلته ينكفئ على وجههِ دون قصد، ثمّ ما لبثت أنْ أعادته إلى وضعه مرّة أخرى، وهمّت تخرج من الغرفة وهي تقول:

– "كلّ شيء حولك حقيقي، وأنتِ كلّ الإجابات، و«يوسف» قد أسرَّكِ في نفسه، وقميصه فوق مكتبك، وبقي أن يرتدّ إليكِ طرفكِ لكيّ تعيدي لي ابنتي، وحدكِ مَن تعرفين ما الذي حدث لابنتي بعد حادثة السّرقة، والعرّافة

التي ذكَرْته في أوراقك هذه، ووحدك مَن تعرفين مكانَها الآن، وربّما وحدك مَن تملكين حياتها كلّها وأنتِ لا تدرين!".

كانت «عهد» تستمتع إلى تلك الكلمات الطلسميّة جيدًا كعهدها مع «أمّ عائشة» حين تتحدث، لكنّ طرفَها لم يكنْ صوبَ قائلتها، كان على «البرواز»، فعندما أعادت «أمّ عائشة» بروازها إلى مكانه بعدما أسقطتْه لم يعدْ فارغًا كما كان، لقد انتقلتْ تلك الصورة فوق شاشة الحاسوب إليه، بينما خرجَ من داخل الأخير إشعارٌ ما، يبدو أنّ «عهد» تألف صوت الإشعار جيدًا، لكنّها لا تدري ما مصدره داخل جهاز الحاسب بالفعل.

أخذتْ «عهد» تدورُ بعينيها وهي تتفحّص الشّاشة أمام ناظريها؛ حتى لفتَ انتباهها ذلك الاسمُ والذي قد تلوّن المستطيل حولَه باللون السّماوي، بينما يومض اسمه ويرجف في شريط المهامّ السّفلي على شاشة الحاسب من جهة اليسار، إنّه الاسْم الوحيد الذي كانت تعرفه «عهد» جيدًا.. «يوسف».

المنيا – صعيد مصر

استقبلت «زهرة» ابنتَها بالأحضان والقبلات وبعض كلمات الغزل الرقيقة وهي تلتقطها براحتيها وتدورُ بها نصفَ دورة قبل أن تضعها على الأرض من جديد، وهي تسألها مشاكسة:

– ما هي أخبار «قطّتي» يا ترى، هل استمتعتِ بدرس السّباحة اليوم؟! نريد أن نقضي على هذا، أو ما هو رأيك أنتِ؟!

اعتادت الفتاةُ ابنة السّتة أعوام على هذا النّوع من مشاكسات والدتها، وأخذت تنظر إلى بطنها المنتفخ بعد أن أزاحت والدتها أصبعَها عنه، ثمّ مطّت شفتيها بامتعاض:

– عندما أكبر سأجري عملية "تكميم المعدة" مثلك، فيبدو أنّني قد ورثت منكِ شغفي للطعام، سأكون في رشاقتك يومًا ما، لا تقلقي يا أمّاه.

– لا.. لا، من المستحيل أن أتركك حتى تحتاجين مثلها عملية، لم أحظَ بأمّ تحبني أو تهتمّ بي مثلما أفعل معك، حتى تنقذني من نفسي يوم كنت بحاجتها.

ما أنْ أنهتْ «زهرة» جُملتها حتى أغلقت بابَ سيارتها الأمامي خلفَ ابنتها بعد أن أجلستها فوق المقعد المجاور لها، ثمّ دارت نصفَ دورة حول السيارة قبل أن تتّخذ جلستها خلف مقْوَد السيارة، ثمّ انطلقت بها بسرعة وقد أثارت جُملةُ ابنتها كلَّ مشاعرها الدفينة.

«زهرة صلاح»

إحدى جميلات جامعة القاهرة لعام ١٩٨٤ ميلادية، والتي كانت ترتدي تلك النوعية من الملابس التي تظهر مفاتنَ البنات، الابنة البكْر لوالديها، لديها أختٌ واحدة تصغرها بعامين، لكنّها لم تكنْ بنصْف جمالها، لقد كانت «زهرة» تشبه أبيها أكثر ممّا جعلها الأقرب إليه، بينما كانت تثير بذلك غيرةَ والدتها، والتي كانت تزداد مرضًا بتلك الغيرة يومًا بعد يوم، خلافاتٌ دائمة بين أمّها وأبيها، وسواء كانت هي طرفًا فيها أمّ لا؛ كانت أمّها تصبّ جامَ غضبها عليها وحدَها دون أختها، كانت الأخيرةُ الأقربَ لأمّها حتى صارت مع الأيام صديقتها الوحيدة، بل وكاتمة أسرارها كذلك.

منبوذة «زهرة» من أمّها، ثمّ من أختها فيما بعد، فقد كانت الأولى تنفردُ بحنان الأبّ واهتمامه وتدْليله إلى الحدّ الذي جعله يفسّر كلّ ملاحظات زوجته عنها وكأنّها بلاغات كيْديّة، ممّا يجعله يمنح ابنته على إثر فِعالِ زوجته صلاحياتٍ أكثرَ وأكبرَ من سنّها وقتئذ، وأكبرَ من أخلاقها كذلك.

طفلة، ثمّ فتاة، ثمّ شابّة مدلّلة إلى الحدّ الذي جعلها محورَ مزايدة بين أمّ وأب مختلفين، فكانت هي مصدرَ تفريغ دسائس هذا الاختلاف المُثلى وضحيّته بنفس الوقت، حتى أنّها كانت تؤتي الخطأ فيبرّره الأب ويقرّ بصواب فعْل ابنته أمام أمّ من أصل صعيديّ.. (لا تعجبها المائلة) كما يقولون، فتصبح النتيجة فتاة طائشة مدلّلة اعتادت أن تبكي الشيء فتحصلَ عليه.

إلّا أنّها لم تبكِ زوجها لأبيها لتحصلَ عليه، رغم أنها قد بكتْ كثيرين قبله، كانوا قد اكتفوا منها بما حصلوا عليه من التسكّع معها هنا وهناك، أفعالُها

تلك زادتْ من نفور والدتها ذات الطبيعة الجافّة أكثر، والتي ورَّثَتها ابنتَها الصغرى، فكانت الأقربَ إلى نفسها وإلى قلبها كذلك، تعرّفت «زهرة» على زوجها في أحد الأعراس لقريبةٍ من أقارب والدتها بالصعيد، كانت تستهويها تلك النوعيةُ من الحفلات بالطبع، لتظهر وتبرز مفاتنها في مجتمعٍ خالٍ من مثلها حتى في الأفراح والموالد، حيث النساء اللواتي يهدينَ الأعيَن الزائغة أبعضاهنّ على طبقٍ من فضة، ومن دون طلب.

على خلافِ كلّ شابٍّ مبهور بها داخل المكان، كان الدكتور «زايد» يقف بعيدًا وهو يشاهد كلّ هذا، بينما يدير رأسَه بعيدًا ليظهر مقتَه ممّا يراه، وكذا جذب الغزال الأسمر بفعله هذا انتباهَ الجميلة، والتي كانت تأبى أن يفلت منها مثله دون أن ترى في عينيه شيئًا من الإعجاب، بل والتّعبير عنه، زاد عنادَها تجاهه تلك المقولةُ التي همستْ بها ابنة خالتها بالقرب منها:

– إيّاكِ أن تفكّري حتى، دكتور «زايد» ليسَ من الرجال الذي قدْ يعجبه مثلك، ولن يلتفتَ حتى إليكِ.

– تراهني؟!

– أراهن.

– ماذا إنْ جعلته يطلبُ يدي للزواج! ها.. ما الذي قد أحصل عليه في المقابل؟!

– وما الذي يمكنك أن تحصلين عليه أفضلَ من هذا؟! طبيب، وسيم، بلا أمّ، وأب.. كلّ وقته لمهنته وأبحاثه، وأظنّه غير مرتبط، أريني تأثيرَك واحصلي عليه، الملعب لكِ.

– "طبيب، وسيم، وبلا أب وأمّ"، مُذهل بالفعل وفرصة، أضيفي إلى ذلك تلك المسافة بين المنيا والقاهرة، والتي أعتبرها كافيةً حتى أتخلّص من سطوة أمّي وصراعها الدائم مع أبي.

ما أنْ أنهت «زهرة» جُملتها حتى التفتت إلى ابنة خالتها تقول:

– مِن أين تبتاعين ملابسَك؟!

ثمّ استطردت حديثَها وهي تشير إلى بنتِ خالتها بجذلٍ مصطنع:

– ضَعي على قوائم مهامّك مهمّةَ شراء فستان مميّز، أمّ أنكِ لا تريدين الوقوفَ إلى جوار بنت خالتك العزيزة في يوم عُرسها القريب.. القريب جدًّا!

قالت جُملتها تلك بثقةٍ وتحدٍّ، ثمّ خرجت من تلك القاعة بسرعة، لتغيب نصفَ ساعة قبل أن تعود وهي ترتدي فستانًا أسودَ طويلًا، أكمامُه حتى رسغها، بينما يتلألأ الفستان فوقها كما لو كان الليل قد أُسدل عليها بنجومِه، ليظهر بهاءَ وجهها الفتّان، شعرها الذهبي القصير بالكاد يلامسُ ذلك العقد حول عنقِها، ما أنْ دلفت بهيئتها هذه إلى القاعة حتى خطفت ناظري دكتور «زايد» بالفعل، فوقف مشدوهًا قبل أن يطرق برأسه، وذلك السؤال يدورُ داخله:

– ما الذي جعل تلك الفاتنة تتخلّى عن فستانها القصير، والذي كان يكشف عن نصف صدرها قبل النّصف ساعة فقط؟! وجعلها تلتحفُ بتلك الزاوية التي لا تنفكّ تستبدلها بأخرى كلّما اقترب منها أحدٌ من الشباب، رغم أنها كانت تقف وسط حلقةٍ منهم في زهوٍ منذ قليل؟!

- حتى أحظَى بإعجابك، فهل فعلت؟! هل أعجبتك؟!

سقطت كلماتُها فوق رأسه كأنّها المطر قد هطلَ فجأة، بينما هو لا يدري أَأزعجته بتلك الكلمات أمّ أنعشتْه، لكن كلّ ما قد فطن إليه أنّ تلك الأنثى الواقفة أمامَه هي قدرُه، وأنه الآن يساق إليه سوقًا دون أدنى إرادةٍ منه.

- أمّي، هل سنذهب إلى أخي بالمستشفى، أمّ أننا سنمرّ على البيت أولًا؟!

أعادها سؤالُ ابنتها من بعيدِ ذكرياتها إلى واقعِها من جديد، فرسمت سريعًا ابتسامة فوق ثغرها وهي تقول بمرحٍ مشاكس:

- سنمرّ على البيت سريعًا لنبدّل ملابسنا، أمّك طيلة النهار بنفس الثياب وقد أرهقت كثيرًا في العمل اليوم، ثمّ نذهب فورًا إلى زيارة أخيكِ الذي وافق أخيرًا أن يقابلنا.

- هل سنأخذ جدّتي معنا؟!

- لأ.

إجابة مُقتضبة كعادتها كلّما ذكَّرها أحدٌ بوجود أمّها في حياتها، فأكثر ما شجّعها على الزواج من «زايد» قديمًا، هو الابتعادُ عن والدتها لأبعد مسافة مُمكنة، إلّا أنّ قدرها كان له رأيٌ آخر، حين تزوّجت أختها الصّغرى في المنيا هي الأخرى بعدها ببضعةِ سنوات، ممّا جعل أمّها تطلب الطلاقَ من أبيها بعد أنِ استحالت العشرةُ بينهما قبل أن تنتقلَ للعيش بالصعيد، داخل شقة أبيها الَذي ظلّت مُغلقة منذ زواجها وأخواتها الأربعة، حتى قام زوجُ ابنتها الصغرى بتأجيرها منهنّ ليقيم فيها مؤقتًا لحين شراءِ شقّتهما الخاصّة، ولمّا تعثّرا في الحصول على شقّة لعدّة سنوات، قرّرا تقديم طلبيّ هجرةٍ إلى إحدى

الدول الأوروبية، ثمّ سافرا بعد قبولِ طلبهما بمدّة قصيرة؛ كانا قد انتهيا فيها من كلّ إجراءات السفر.

لم يطلْ مكوث والدتها بتلك الشّقة بعد سفر أختها وزوج أختها، فما أنْ سافر الأخير وأختها، حتى استضافها الدكتورُ «زايد» في شقّته رغم أنفِ ابنتها، داعيًا إيّاها إلى إقامةٍ دائمة داخل إحدى الغرف الشّاغرة بشقّته ذات المساحة الشاسعة والغرف السّت، لكنّ حماته لم تخترْ إلّا غرفة بعينها، تلك التي شغلتها «زهرة» بعد أنْ وضعت ابنتها ببضعةِ أسابيع، حتى حلّت والدتها إلى منزلها ولم تتمّ حفيدتها الستّة أشهر بعد، فانتزعتْ من ابنتها غرفتَها تلك عن قصد، كما انتزعتْ منها الثّقة والسيادة مع الوقت كذلك.

ولدان وبنتٌ واحدة، حصيلة ثلاثين عامًا؛ هُم مدّة زواجها من «زايد». التفتت «زهرة» إلى صغيرتها التي قد أتمّت أعوامها الستّ منذ بضعة أيام، فانفرجت ابتسامتُها تفترش ثغرها أسفلَ ذلك الوشاح الأسود المُنسدل فوق وجهها، ولا يظهر منها إلّا عيناها، لم تكنْ فرحتها بها عادية، لقد تمنّت في كلّ حملٍ من حملي ذَكَرَيّها أن تنجب بنتًا، فلمّا وضعت طفلها الثاني صبيًّا هو الآخر حتى نحّت الفكرة جانبًا، خاصّةً بعدما بدأ وزنُها في الزيادة حتى تعدّى المائة كيلو في وقت وجيز، ليس بالقليل هذا الرّقم أبدًا على قِصَر قامتها، ما جعلها محْضَ سخرية في كلّ مناسبة تجمعها وأقاربها، خاصّة في وجود والدتها التي كانت تزيد من حدّة تلك السخرية، كما أنّها كانت تزيدُ من توتّر «زهرة» وحنقها كذلك.

لا تدري كيف حملتْ في صغيرتها بعد أنْ فقدت الأملَ في الأمر، ونحّت الفكرة من رأسها تمامًا، لكنّ ما أدركته وأرادته بشدّة هو رغبتها في وضعها

اليوم قبل الغد، حتى تتمكّن من إجراء تلك العملية المسمّاة بـ «تكميم المعدة» فتعود لسابقِ ما كانت عليه من وزنٍ وجَمال وزهو، فكرة قفزت إلى رأسها فجأة، أو هكَذا لاحظ المقرّبون منها، ورغبة ملحّة أن تجري تلك العملية في أقربِ وقت، وهذا بالفعل ما أقدمتْ عليه رغم رفض زوجها ووالدتها للعمليةَ، لكنّها أصرّت على إجرائها، وبالفعل أجرتْ «زهرة» العملية بعد ولادتها لابنتها بعام واحدٍ فقط، لتفقد في ستة أشهر نصفَ وزنها دفعةً واحدة.

ارتدتْ «زهرة» النقابَ فجأة وسط دهشةِ كلّ المقربين منها عدا والدتها وزوجها وأبنائها، تغيّر سلوكها كثيرًا في وقتٍ قصير، انطوتْ وابتعدت، ولم تعدْ تلك الزهرة الضحوكة المشاكسة، إلّا معِ ابنتها التي تجلس إلى جوارها الآن، والتي أثارت بجُملتها العفويّة تلك كلَّ تلك الذكريات في خاطرها دفعةً واحدة.

دسوق – كفر الشيخ

تبعت «مليكة» شقيقةَ زوجها إلى باب شقتها مودّعة لها، بينما الفتاة تهمّ بالنزول إلى شقّة والديها بالدّور الأرضي من نفس المنزل لتنام بعد قضائها ساعةً أو أكثر قليلًا أمام جهاز الحاسب الآليّ الخاصّ بأخيها بغرفة مكتبه، سبقَ لأخيها أن خصّص لها ذلك الوقت من باب التسلية وإشباع الفضول بالتذوّق فقط، حتى يتخلّص من إلحَاحها في طلب جهاز حاسوبٍ شخصي لتحاكي به نظيراتها في كُليتها أو بعض جاراتها كذلك.

فكانت تلك الساعة بمثابة اللّبنة التي يسدّ أخوها بها تلك الفجوةَ في نفسها، دون أن يبدي لها الأسبابَ وراء رفضه طلبها هذا، حتى أنّه لم يختلق لها عذرًا يبرّره به، لا تتذكّر أخته إلّا أنه قد جرى خلفها بطفوليّة ليُصعِدها أمامَه إلى شقته، ثمّ فتح لها بابَ مكتبه بشكل مسرحي وهو يقول لها: "هذا جهازٌ غالي الثمن جدًّا.. لكنّه لك ساعة كلّ ليلة أو أكثر قليلًا.. ثمّ غمز بإحدى عينيه وهو يؤكّد ساعة كلّ ليلة أو أكثر قليلًا فقط.. اتّفقنا؟".

ابتسمت أختُه لطريقته الهزليّة التي يتقنها جيدًا وهي تومئ برأسها، لطيفٌ هو حتى وهو يفرض عليها ما يريده، دائمًا ما يستخدم الجزرةَ معها دون العصا، وكانت تلك الساعة أو (أكثر قليلًا) كما أكّد عليها أمام حاسبه الآليّ؛ هي جزرتها التي تلتهمها عن طيب خاطرٍ كلّ ليلة، فلم ترَ أخته أنه قد حرمها بقدر ما منحها، حتى أنّها لم تعدْ تَذكر له طلبها ذاك أبدًا.

ودّعتها «مليكة» بابتسامةٍ مُنهكة، بينما هي تلوح لها بإحدى راحتيها قبل أن يبتلعها منعطف السلم وهي تطالب زوجةَ أخيها بالعودة إلى الداخل،

أغلقت «مليكة» بابَ الشقة خلفها ودلفت إلى المَطبخ من جديد لتتمّ إعدادها للوجبة الوحيدة التي يتناولها زوجها بالبيت، والتي كثيرًا ما يحرمها من تجهيزها باتصالٍ هاتفيّ بسبب أمسياته الليلية الطويلة، قبل أن تقصد غرفةَ نومها لتلقي بجسدها المتهالك فوق سريرها بعد تعبِ يومٍ طويل.

كلّ أيأمّ «مليكة» متطابقة تقريبًا، الاختلاف الوحيد الّذي قد يطرأ على يومها كان في تلك المشاجرات التي تنشبُ بين زوجها وزوجة أخيه القاطنة فوق رأس «مليكة» مباشرة بالطابق الثّالث من نفس المنزل.

منذ وطأت الأخيرةُ بقدميها عتبةَ البيت وهُم على خلاف معها، كانت مختلفة كثيرًا عن «مليكة»، أجمل، أرقّ، وأبهى، وكانت شقتها أكثرَ نظامًا كما كان قلبها أكثر دفئًا، كلّ وقتها لنفسها، ولزوجها، وبيتها، لم تكن تعمل كـ «مليكة»، وكان زوجها يوفر لها كلّ ما تشتهيه دون طلب في كثيرٍ من الأحيان، لكنّها لم تجدْ في قلبيّ حماها وحماتها مكانًا لها، ولم تحاول أن توجد لنفسها بهما مكانة، فاكتفتْ بالمعاملة الطيبة ولزمت شقّتها، الأمر الذي أثار غضبَ وحنق الجميع، خاصّة مع اهتمامِها الشديد بنفسها، والذي كان يثير غيرة «مليكة» وزوجها كذلك.

«مليكة محمد»

زوجةٌ بسيطة ككلّ زوجات الرّيف البسيطات، جميلة هي ككلّ أنثى، لكنّها لم تدركْ كيف تبرز جَمالَها الخاصّ لزوجها المُحامي، والذي به نزقُ المُغامرة، تعرّف عليها زوجها قبل ستّة أعوام؛ مِن خلال عمله، فقد كانت «مليكة» سكرتيرةً لإحدى محاميّات بلدته، عرّفه صديقه الشّاعر على الأخيرة حين قدّمها إليه كزميلةٍ مشتركة معهما في المهنتيْن، كانت المرأةُ كاتبةً كصديقِه

ومحاميةً مثله، علمَ- فيما بعد- أنّها تمتلك مكتبًا للمحاماة في صدْر المدينة، والذي سبقَ ودعَتْه إليه لاحْتساء فنجانٍ من القهوة، وذلك في إحدى الأمسيات الثّقافية التي دعاه إليها ذلك الصديق.

بيْدَ أنّه لم يلبِّ دعوةَ زميلته بقدْر ما قدْ لبّى دعوة القدر ليلتقي بها هي، «مليكة» سكرتيرة مكتب زميلتِه تلك، أو ذات الوشاح الأسود، كما كان يُطلق عليها فيما بعْد، وصديقة إحدى قريباته كذلك، هكذا أخبرتْه «مليكة» بعدما تعرّفت عليه منذ الوهْلة الأولى.

دعاها- ذاتَ يوم- لتحظى بأمسيةٍ ثقافية على شرفِ صديقه الشّاعر ومرؤوستها كذلك، لكنّها اعتذرت، وبادَرته بسبب اعتذارها الذي تهلّلت له أساريرُه بشدّة، حين أخبرته أنّ والدها يسمح لها بالعمل على مَضَض، وأنّ الأخير رغم مرضه إلّا أنّه لا ينفكّ يمرّ عليها كلّ فترة في عملها دون سابقِ إنْذار، ثمّ أشارت إلى النّقاب فوقَ وجهها وهي تهمسُ بخجل:

- أبي جعلني أرتدي النّقاب كما ترى؛ حتى يوافق على عملي المُتواضع هذا! ورغم ذلك فقد وافقَ بعد عناءٍ وجدال طويل جدًّا.

- نِعْمَ الأب هو يا أستاذة «مليكة»، إنْ لم يكنِ الرجلُ غيورًا على أهل بيته؛ فالقبرُ أولى به.

قالها وهو يبتسم، ثمّ همّ بالانصراف وهو يُقرئ والدَها السّلام، قبل أن يخرج.. ويغيب، أسبوعًا واثنين وثلاثة، ثمّ ما لَبث أن أتمّ الشّهر ونصفَ الشّهر، وما زال غائبًا لا تعرف هي عنه شيئًا، كانت تستحي في البداية أن تذكره أمام صديقتها التي تربطه بها صلةُ قرابة، ثمّ أخذت تتطرّق لذكْره على استحياءٍ في حديثها معها بعدَ ذلك، حتى تطوّر الحديث عنه من قبْل «مليكة» حدّ المُكاشفة، فأخبرتها أخيرًا أنّها معجبة به.

تصادف مرورُه بعد تلك الغيبة مع وجودِ قريبته مع «مليكة»، داخلَ مكتب المحاماة الذي تعمل الأخيرةُ به، بدا صادقًا وهو يبرّر مرورَه في تلك السّاعة المبكرة؛ بحجّة السّؤال عن قضيةٍ ما تخصّ أحدَ معارفه، بعد أن علم منه- قدَرًا- أنّ زميلته مرؤوسة «مليكة» هي التي تولّت أمرَها.

استقبلتْه «مليكة» بارتباكٍ وهي مسبلةً الطرف، بينما تشيرُ إليه بالجلوس فوق المقعدِ المقابل لذلك الذي جلست فوقَه قريبته بعد أن ألقتِ الأخيرة تحيتَها عليه.

بينما تتوالى إجاباتُه على أسئلةِ قريبته عن أحواله وأحوالِ أسرته، لمح بذاتِ الوقت تلك الدموع في عينيّ «مليكة» من فتحةِ وشاحِها الضيّقة وهي تهمّ بدخول المطبخ حتى تعدّ له كأس الشاي الذي طلبه، ما لبثت أنِ اختفت عن ناظريه حتى أشارَ لقريبته بتلك الإشارة التي تعني: ما الأمر؟! أو ماذا بها؟

- دكتورٌ تقدّم لخطبتها، وأبوها موافق، ويريد موافقتها وهي لا تريده.

- ترفض طبيبًا! كيف؟! صديقتك هذه ماذا تريد؟! محام بلا مستقبل مثلي مثلًا؟!

- مثلًا.

قالتْها بإشارةٍ، ونظرة بعينها جعلته يهبّ واقفًا وهو يقول همسًا:

- بلا عقل أنتنّ أيّتها النساء! ترفض طبيبًا وتتمنّى مثلي؟! أيّ هُراء هذا!!

أومأتْ قريبتُه برأسها إيجابًا وهي تقول مؤكّدة عليه ما يردّده:

- نعمْ هي تحبّك، وقد أسرّت لي بالأمر، فما هو رأيك في هذا؟!

ليس غريبًا في المجتمعات الرّيفية ما حدث، أنْ ترى الفتاة شابًّا لأوّل مرّة فتهمس لصديقتها- خجلًا- أنّها قد أحبّت.

هذا ما يحدثُ هناك عادة، الإعجابُ بالغريب يقع في نفوسهنّ أسرع، فدائمًا ما تنتظر فتاةُ القرية للوجْه غير المألوف لتنظرَ إليه بتمعّن، ذلك الوجه الذي لم تعتَدْ رؤيته، كابن العمّ والخال، أو كالجار، أو حتى كمَن ترفضُهم كلّ يوم لأنّهم قد أتوا البابَ طرقًا؛ دون تلك المغامرة القصيرة التي قدْ لا ترى الفتاة فيها شابًّا ما إلّا مرّة أو مرّتين، فتوافق على الارتباط به فورًا ودونَ شروط، هي توهمُ نفسها عادةً أنّها بذلك قد حظيتْ بفرصةِ الاختيار بكامل شُعورها، عندما يصادفها النّظر بإرادتها وهي تسمحُ لنفسها بالإعجاب كنوعٍ من أنواع الخروج على المفروض، ورفضه.

ثمّ أنّ الغريب عادةً ما يستنفرُ الشغفَ في النفس للاستكشاف والمعرفة، هي طبيعةُ الإنسان منذ بدْء الخليقة يهوى التجربةَ وكسرَ القواعد، والسير ضدّ الاتّجاه أحيانًا مقابل الشعور بمتعة الاختيار حتى وإنْ خالف وهوَ في طريقه إلى ذلك، العرف السائد في مجتمعه الكبير أو التقاليد الموروثة في عائلته الصغيرة.

تمّت خطبتُهما بسرعة، لكنّها طالت حتى أربع سنوات تامّات، أنهى هو في واحدةٍ منهنّ جيشه، ثمّ قام ببناء شقّته على مهَلٍ في البقيّة، وقد أعانتْه هي على ذلك ولم تبخلْ عليه بمالها، بصبرها، أو بنفسها، دون أن تلتفت إلى ضجر المحيطين بها جرّاء كلّ ما تفعله من أجله، هي تريده وستتحمّل في مقابل هذا أيَّ شيء حتى يجمعهما سقفٌ واحد كما يقولون.

بلا مهْرٍ وبلا شبكة، وبمراسم زواج بسيطة جدًّا، بدأت حياتُها معه، كلّ قطعةٍ في شقّتهما الصغيرة هي شاركتْه ثمنَها، وتركته ينفردُ باختيارها وحدَه،

زوجة الكبير هي التي وطأت بقدميها البيت، وقلبيّ الوالد والوالدة كذلك، كانت ترصد وتسجّل كلّ فعل ووقعَه على حماها وحماتها، الفعل الذي يسعدهما تكثرُ منه، وما يغضبُهما لا تفعله وإنْ كانت كارهةً أو مكرهة، شقَّت بطاعتها العمياء هذه طريقَها إلى قلب حماتها بسهولة، بينما حماها كان تابعًا لمحبّة زوجته، فأيْنما كان قلب الأخيرة كان قلبه، ومثله تمامًا ابنُه الذي كان يتباهى برضا والديه على زوجته، وكيف أنّ زوجته محبوبةٌ من الجميع.

لقد ملكت «مليكة» قلبيّ والديه بالفعل، ولم تتركْ لسواها بداخلهما شريكًا إلّا من زوجها وأخته التي كانت تصغرُه بأربعة أعوام، ثمّ أخيه الذي كان يصغره بعامين هو الآخر، ما دون هؤلاء هُم والعدم سواء.

لم تكنْ «مليكة» تذهب صباحًا إلى مكتب المحاماة الذي تعمل به وحدَها، كلّ يوم كان زوجها يصحو معها ليقوم بتوصيلها بنفسِه قبل أن يذهب إلى مكتب المحاماة الخاصّ به على أطراف المدينة، كمْ طالبته «مليكة» بالعمل معه في مكتبه الصغير بعدما قرّر الاستقلال عن أستاذه، وترك العمل معه في مكتبه الكبير والشّهير كذلك في بلدته، لم يكنْ له مكتبٌ خاصّ بعد زواجهما مباشرة، لكن الآن- وبعد بضعة سنوات من زواجهما- صار له مكتبُه الخاصّ به وحده، وإنْ كان صغيرًا، وفي منطقة نائية.

ألحّت «مليكة» في طلب العمل مع زوجها بمكتبه طويلًا، لكنّ زوجَها كان يرفض ذلك العرض قولًا واحدًا في كلّ مرّة، هو لن يتحمّل أنْ يرى زوجته وهي تتحدّث إلى رجالٍ غرباء، حتى وإنْ كان لا يفصله عنها سوى جدارٍ وبابِ غرفة، هو بالأساس كان يرفض خروجَها للعمل بعد الزواج لكنّها قد أصرّت أن تضع هذا شرطًا في عقد الزواج أثناءَ كتابته، وهو قَبِل به

على مضض بعد أنْ فاجأته به، اتّفق معها فيما بعد أنّه سيقوم بتوصيلها كلّ يوم إلى مقرّ عملها، ثمّ يعيدها كذلك بعد انتهائها منه.

ما أنْ ينتهي من عمله حتى يمرّ عليها في مكتب زميلته ليعيدها إلى المنزل، قبل أن يتّجه إلى مقرّ عمله الثاني حيث كان يدير إحدى المكتبات الكبرى بمدينته، والذي كان يشبعُ من خلال عمله بها شغفَه بالقراءة، كان قارئًا شرهًا يلتهم الكتبَ بنهم، وكأنّه يطعم جوعَ روحه الدائم من أرفف تلك المكَتبة، والتي من خلال عمله بها أيضًا، كان ينظّم الأمسيات الشعرية والثقافية داخل مدينته الأولى «دسوق» ومدينته الثانية «القاهرة» كذلك، كم يعشق هو الأخيرة، وكأنّها ساحرته ونَدَّاهته التي لا ينفكّ يجد لنفسه إليها سبيلًا فيقصدها وكأنّه يلبي نداءَ حبيبته السّاحرة وهو مأسور.

ستّ سنوات انقضتْ على زواجهما لم يتركْ زوجتَه تذهب إلى عملها أو تعود منه إلّا معه، أو وهي إلى جواره بعدما ابْتاع سيارته الصغيرة تلك، والتي جمعا ثمنَها باتفاقٍ بينهما من فائض رواتبهما معًا، هو بيْن عمليّه والأمسيات المسرحية والثقافية، ثمّ يعود كلّ ليلة بعد منتصف الليل أو مع الفجر أحيانًا، بينما زوجته في دائرتها الثابتة تدورُ دون تجديد أو تغيير.

عملُها صباحًا في مكتب المحاماة الذي ما زالت تعملُ به، ثمّ عودتها من عملها وإعدادها للطعام والشّراب وأمور البيت الأخرى، ثمّ المكوث مع حمويْها حتى المساء، ثمّ تصعد إلى شقتها لتنام فتصعد معها أختُ زوجها لتقضي ساعتَها المسموح لها بها على حاسبِ أخيها قبل أن تترجّل في هدوءٍ تاركةً «مليكة» إمّا نائمة أو تغالب النوم.

بينما زوجها ما زالَ بين عمله الثاني في تلك المكتبة وبين الأمسيات الشعرية هنا وهناك حتى السّاعات الأولى من صباح كلّ يوم، ليعود وهي نائمة في

أحايينَ كثيرة، فيسْتكملُ سهرتَه على حاسوبه بالغرفة الأخرى من شقّته حتى الفجر، ثمّ يخلد إلى النوم متى أتاه؛ جالسًا كان أو ممدّدًا، وقلّما تأخذه قدماه إلى فراشها، أو تستدعيه هي إليه بأنوثتها المُنهكة دومًا، والمغلّفة بغبار الامتلاك، نعم فقد صارَ زوجها، الذي لن تنازعَها في حمل اسمه امرأةٌ أخرى قطّ، وهذا هو المهمّ بالنّسبة إليها.

مِن نصائح والدتها رسمتْ «مليكة»- بعناية- صورةَ المرأة الصّبور التي أعطت زوجَها وأهله كلّ شيء، ومنها ترسّخ يقينُها أنها صارت صاحبةَ فضل عليهم جميعًا، وليس على زوجها فقط؛ ذاك اليقين جعلها على ثقة أنّها- وإن لم تنجبْ لوالديه الأحفاد- أنّها ستظلّ زوجة ابنهم الوحيدة إلى آخر رمَق، فما لها عندهم مِن أرصدة تفانٍ ستغفرُ لها كلّ جللٍ وزلل، حتى عجزها عن الإنجاب رغم مرور ستّة أعوام على زواجها من ابنهما، هي على يقين أنّ كلّ شيء يبدرُ منها مغفورٌ من الجميع إلى النهاية.

أمّا على صعيد زوجها دون أبويْه؛ فهو هيّنٌ ليّن معها في كلّ حال، إن عادَ ووجدها نائمة فإنّه لا يوقظها من نومها ولا يلومُها عليه، بل إنّه سوف يضع قبلةً حانية على جبينها في الصباح إنْ بادرته بالاعتذار أو العتب، وهو يهمسُ قربَها ببيت شعرٍ يبثّها فيه ما يدركه من حجم مسئوليتها، وكيف أنّها تستحقّ في المقابل ذلك القسطَ الطويل من الرّاحة الذي تناله كلّ ليلة.

نهْجانِ لا ثالثَ لهما ترعرعت عليهما «مليكة»؛ الأوّل أنّ ما يربط الزوجة بزوجها الإنجابُ وقد نحّى سابقُ فضلها على زوجها ووالديْه من خاطرها عجزَها عن الإنجاب وإنْ فاضت روحها إلى بارئها بهذا العجز، وأمّا النهج الثاني الذي تربّت عليه فهو الإبقاءُ على الحياء مع زوجها، وأنّه إنْ أراد طلب،

وبالتالي فإنّه إن قاسمها الفراشَ فقد رغب فيها، وإن نام بعيدًا فقد رغب عنها، وعليه فحتّى وإنْ كان بها رغبة.. يجب أن تنحّيها وتنام.

وهذا ما يحدثُ بالفعل بينهما، هو ينحّي رغبتَه تقديرًا لتعبها في عملها ومع والديه، وهي تنحّي رغبتَها لأنّها قد تربت على أنّ الزوج إنْ أراد طلب، وأنّها كزوجة يجب أن تكون مفعولًا به على دوام العِشرة، ولا يحقّ لها أبدًا أن تكون فاعلًا مهْما رغبت في ذلك أو أرادته، أو رغبَ هو في ذلك منها ولمْ ولنْ يطلبه أبدًا بعدَ تلك الليلة، فيومًا طلب منها أثناء العلاقة الحميمة أن تتلفّظ له بألفاظٍ بعينها، إلّا أنّها رفضت ذلك بشدّة، كما رفضت طلبَه الفقير للجماع لعدّة أشهر بعد ذلك الطّلب.

هي لا تعاقبُه بهذا الرفض، هي بالفعل كرهت ما طالبَها به، كما كرهت طلباتٍ كثيرةً على شاكلته، منها طلبه المتكرّر أن ترقصَ له على أنغام أغنية (إنتَ عمري) للرّاحلة «أمّ كلثوم» التي يعشق صوتَها.

– الغناء حرام.

هكذا تقولُ له وهي تقطّب جبينها بحزم لا يتماهى مع طلبه البسيط جدًّا، أو مع حقّه كما يظنّ، معظمُ طلباته التي كانَ يطلبُها منها كانت تقابلُها بكلمة واحدة (حرام)، ولأنّه رجل شرقيّ فهو يقدّس تلك الدرجة التي ترفعُ الرجالَ عن النساء والمسمّاة بالقوامة، ولأنّ القوّام قدوةٌ؛ فهو لا يحبّ أن يظهر أمامَها أنّه أقلّ إيمانًا منها، أو أقلّ أدبًا كذلك.

لم يكنْ من ذلك النّوع الذي يكابر، فيرفع صوتَه أو يدَه على زوجته، كان يحرص على صورته في عينيها دائمًا، بيْدَ أنّه كان يعجبه حياءها كذلك وقوّتَها، وهي تقول له عند كلّ طلبٍ خاصّ لا يصلح إلّا في مقام غياب الملكين كلمتها الجهورة (حرام).

هوَ بحاجةٍ أن يسمع هذه الكلمة منها تحديدًا، إنّها تبهج مهجتَه حين تردّدها له تحديدًا، تلك الكلمة الحاسمة منها إليه، هي ما تجعله دائمًا مطمئنًّا وهو يتركها كلّ صباح أمام مقرّ عملها، فإنْ كان هذا حالَ زوجةٍ مع زوجها فكيف سيكون حالُها مع الرّجال الغرباء عنها؟!

هي حتمًا تحفظ غيبتَه، وتصون عرضَه، وهذا أمام كلّ ما يريده منها ولا يبلغه أعظم له وأسمى وأعفّ لها، هو يريدُها عفيفة في كلّ حالٍ لأنّها أنثاه التي تحمل معه اسمه، كثيرًا ما تخيّلها وهي تزجرُ هذا وتسبّ ذاك إذا ما حاول أحدُ زبائن مكتب المحاماة- الذي تعمل مديرةً له الآن- أن يغازلَها بقولٍ أو إيماءة، لكم اتّسمت معظمُ مواقفها معه بالعفّة، كان يراها أشهى وهي رافضة جامحة تأبى تلبية نداءٍ معوج؛ حتى وإنْ خرج من جوْف زوجها الذي هو حلالُها وهي حلالُه.

الدّمام – السعودية

وقفت سيارةٌ رماديةُ اللون، ذاتُ حجم صغير أمام مرآب بنايةٍ متوسطة الارتفاع ككلّ البنايات التي تجاورها، قبل أن يترجّل منها رجلٌ أربعينيّ وهو يحمل بعضَ الأكياس البلاستيكية، وأخرى ورقيّة طويلة، ألقى التحيةَ على عامل الأمْن على مدخل المرآب قبلَ أن يناوله مفاتيحَ تلك السيارة ليدخلها الأخيرُ إلى مستقرّها أسفلَ البناية كعادتِه كلّ يوم، اتّجه الأربعيني إلى سلّم البناية ليصعد درجَه بسرعةٍ رغم كثرة ما يحملُه من أغراض، تخلّى الرجل عن بعض ما يحمله أمام بابِ الشقة المنْشودة، وهمّ أن يُخرج مفتاحَه من جيبه ليفتح الباب، فإذا بالباب يُفتح فجأة ليطلّ من داخل الشقة رجلٌ نحيلٌ، ذو قامةٍ قصيرة وشعرٍ أشعث، يلفّ عنقه بمنشفةٍ بيضاءَ بينما يسعلُ بقوّة.

– «حسن»، ألمْ تذهب إلى عملك اليوم؟! يبدو أنّ البرد قد اشتدّ عليك يا صديقي.

– لم أنم الليلةَ الماضية يا «شوقي»، جميعكم كنتم نيامًا بينما أنا كلّما غالبني النعاس فأغفو إلّا وأستيقظ رغمًا عنّي من شدّة السّعال والرّشح، فأصبحت بدرجةِ حرارةٍ مرتفعة كما ترى، الأمرُ الذي جعلني أتّصل بمديري في العمل وأطلب منه أجازةً مرضيّة اليوم.

– شفاك الله وعافاك يا بطل، اجلسْ قليلًا، وسأعدّ لك حساءً من شوربة الخضار الطّازج هذا، تتناولها وتأخذُ دواءك وتستريح قليلًا، وبإذن الله ستكون بخير.. وإلّا فـ..

دقّ هاتف «شوقي» بجيب بنطالِه، فقطع حديثَه مع زميله في السّكن ليخرج الهاتف المحمول من جيبه، ليسكت رنينَه بضغطةٍ من أصبعه، بينما يتأمّل وجه المتّصلة بارتباك، أشار «حسن» إلى بابِ غرفةٍ مجاورة بكلتا يديه وهو يبتسم قبل أن يقول:

– بعد ساعتين إذًا، سأنتظرُ الحساء الذي وعدتني به بعدَ ساعتين من الآن يا رفيق، بالكاد تقضي ساعةً بالغرفة وأخرى بالمطبخ، خذْ راحتك يا صديقي سأنام قليلًا في غرفة المعيشة، تستطيع أن تقوم بتشغيل المسجّل وارفع الصوتَ إن أردت، تعاملْ كما يحلو لك، والأفضل أن تعتبرني غيرَ موجودٍ بالأساس.

ثمّ غمز بعينه التي يتفصّد من فوقها– ومِن أسفلها– العرقُ بغزارةٍ إثر الحمّى الشديدة، قبل أن يوليه ظهرَه متّجهًا إلى حيث أخبره.

«شوقي زاهر»

مهندس بحريّ، اختار– حبًّا– تخصّص الميكانيكا البحرية بكلية الهندسة، تخرّج من جامعة الإسكندرية عام ١٩٩٣ بتقدير عام امْتياز، حضَّر الماجستير والدكتوراه في ستة أعوام بعد تخرّجه، تزوّج من ابنة عمّه الوحيدة، وأنجب منها توأميْن، خرج وحدَه من مطار برج العرب بالإسكندرية متّجهًا إلى السعودية في العام ٢٠٠٣، بعدما واتتْه تلك الفرصة ليوقّع عقدَ عمل طويلِ الأجل مع شركة عالمية للشّحن والتفريغ، ليستقرّ وحيدًا بأحدِ فروعها بميناء الدّمام بالسعودية.

رفضتْ زوجتُه وبنتُ عمّه السفرَ معه إلى حيث سافر واستقرّ منذ عشرة أعوام مضت، لم يكنْ لديه خَيارٌ سوى تركِها وأولاده الأربعة مع أسرتها الصغيرة جدًّا المكوّنة من عمّه وزوجة عمّه فقط، بعد تشبّثها بعملها الذي

لم تستطعْ أخذ أجازةٍ دونَ راتبٍ منه، هكذا ألصقت رغبتها في البقاء لهذا السبب، إلّا أنّ حقيقة تلك الرّغبة كان في تلك الحكايات التي قصّتها- ومازالت تقصها عليها- والدتُها عن حياتها حتى الآن، وكيف أنّ الغربة قد ابتلعت أجملَ سنوات عمرها، ولم تفلت لها منها إلّا القليل.

كم استمعتْ إليها بالسّاعات وهي تقصّ عليها تفاصيل يومها وليلتها منذ ثلاثين عامًا وحتى عاد بها والدُها إلى الإسكندرية منذ عشْرِ سنوات فقط، يوميّاتها كانت قاحلةً كتلك الأرض التي عاشت معها فوقَها عامًا واحدًا من عمرها، قبل أن تعودَ مع جدّتها إلى الوطن بعد تلك الحالة النفسية التي سيطرت عليها لمدّة أشهر ولم يستطع والداها إخراجَها منها إلّا باستقدام الجدّة بصفتها طبيبة وليست جدّةً لها، إذْ كانت الأخيرة تعمل طبيبةً نفسية، وكان لديها مصحّة نفسية خاصّة بمنطقة وينجت الشهيرة بالإسكندرية، فعادتِ الجدّةُ بها إلى الوطن، وتركت والديْها وإخوتها الصغار يعانون قسوةَ الغربة وحدهم.

أثيرُ الإنترنت كمْ أرهقته حكاياتُ أمّها إليها عبْرَه.

لم تكنْ أمّها قادرةً على تحمّل تلك العزلة، إلّا أنّها كانت مجبرةً على البقاء، لم يكنْ لها خيارٌ في ذلك السّفر مع زوجها منذ البداية، لم تتّخذْ قرار السّفر معه حتى تتمكّن من التراجع عن ذلك القرار بعْد، لقد كان والدُها أحدَ كبار مؤسّسة حسّاسة من مؤسّسات الدولة، لكنّهم أخرجوه معاشًا مبكّرًا لأسبابٍ لا يعلمها إلّا هُم وهو، وهو لم يخبرْ أحدًا قطّ لماذا أوْلَته قيادات تلك المؤسسةً ظهرَها حين قالت له: "إمّا السّجن أو الرّحيل".. فرحل إلى حيث أمروه في هدوء.

كان والدُها- على التزامه وطيبته- زوجًا حازمًا جدًّا، هو يحبّ أمّها كثيرًا؛ لكنّ طبعَه الذي اكتسبه من العمل بتلك المؤسّسة الحازمة كان يغالبُه في الكثير من المواقف معها، هو لم يفهمْ حاجتها للاحْتواء قط، وحتى إنْ فطن ذلك هو لا يمكنه منحَها هذا الاحتواء على أيّة حال.

وإنّ مجرّد فكرة أن يكون المرءُ مجبرًا على أمر بعينه، فلا خيارات ولا سعة ولا مُفاضلة بين حَسَنٍ وأحْسن، أو حتى بين أسوأ وسيّئ؛ فكرة الإجبار ذاتها قاتلةٌ للنفس التي جبلها اللهُ على التّخيير، حين خلقَ آدم في السّماء للأرض، فأدخله الجنةَ ليعلق خاطره ونسلَه بالرجوع إليها، فأمرَه أن لا يقربَ شجرةً بعينها، فيأكل آدمُ منها كفعلٍ ظاهرُه زلّة وباطنُه اختيارٌ أن ينزل للأرض! الأرض التي خلقه اللهُ لها بالأساس، لكنّه ترك له حريةَ اختيار توقيتِ النّزول إليها، حين أعطاه الجنة ومنعَه من الاقتراب من شجرةٍ واحدة فيها، فاقترب وأكلَ فنزل إلى الأرض.

وكانت أمّها لا ترغبُ في شيء سوى البقاءِ في الأرض، أرض الوطن التي خرجت وزوجُها وأولادُها منها بأمْر قياداته، ولم يعودا إليها إلّا بعفوٍ رئاسيّ، وهي لا تعلم فيمَ خرجت!؟ أو لِمَ عادت؟! كلّ ما تعرفُه أنها عاشتْ غريبةً بالإكراه حتى توفّي ولَداها التوأم فَي حادثٍ غامض زارهم على إثْره وفدٌ رفيعُ المستوى لتقديم العزاء، ثمّ دار بينهم وبين زوجها ذلك الحديث الطّويل، الذي على أثره قرّر زوجُها الرّجوع إلى الوطن فجأة، بعد أن أقحلَت الغربة ملامحَه وملامحَها، وسرق الاغترابُ عمرَه وعمرَها.

كيف يمكن لابنتها أن تعيشَ العزلة نفسَها، في بلادٍ طبيعتها مختلفة عن عروس المتوسط التي تركتْ هي لأجلها أبويْها وهي في سنّ العاشرة، وعادت إليها مع جدّتها الحنون؟!

كيف تغادرُ إلى البلاد نفسها التي تحدّثها أمّها عن غلظة البشر فيها امتثالاً لغلظة المناخ، وكأنها كانت تخشى على نفسِها وأولادها من إرْث هذه الطبيعة الخَشنة، كانت تخشى التجرّدَ من رقّتها التي اكتسبتها من معاشرةِ جدّتها الطويلة حتى توفّاها الله بعد عودة والدتها بعدّة أسابيع فقط، وكانت تخشى من تحوّل ملامحها إلى تلك الملامح التي تراها في والدتها إثرَ ما عانته في الغربة من دفْنِ لرقّتها في صحراء الغربة الموحشة.

كان «شوقي» يدرك مخاوفَ زوجته هذه جيدًا، لكنّه تركها تقدّم له ذلك العذرَ في تركه وحيدًا كلّ هذه السّنوات بحجّة أنّها لم تستطع الحصول على أجازةٍ من عملها، فقبِلَ بالعذر وقَبّل جبينَها ورحلَ وحدَه بَعد أن أسمعته معسولَ الكلام:

– شوقي، إنّ الوصال لا يُحْيي حبًّا، ولكنّ الذّكرى تفعل، وإنّ أصحاب المسّ الرّوحي يكتفون بقليل الرّجف، وإنّ ذلك القليل الذي يُطعِمون منه جوارحَهم نهلًا أبدًا لا ينفد، وإنّ طيب ذكرى واحدة من ذكرياتنا معًا تستجلب الأسرَ لعمري كلّه، فلا يشقينّك رحيلك عني فأنتَ ستظلّ معي حتى تعود.

طرقاتٌ متتالية على باب تلك الغرفة من الخارج، يقابلها صمتُ «شوقي» التّام من الداخل، حتى أنهتْ هي ذلك الاتصالَ عبر أثيرِ الإنترنت، والذي طال حتى الساعتيْن بينهما دون أن يشعرا بمللٍ أو برغبة في إنهاء الاتصال.

ليخرجَ «شوقي» بعدها بدقائق وهو يرتدي ملابسَه الداخلية المبتلّة كليةً، من غزارة عرقه الذي كان يتفصّد من سائر جسده، وكأنّه كان يقف أمام أحدِ الأفران البلدية في تلك المنافذ لبيع الخبز في بلدِه مصر، وسط نظراتِ

الجميع التهكّميّة التي انهالت عليه من رفقائه في السّكن بعد أن عادوا جميعًا من دوامهم اليوميّ.

كان «شوقي» يبتسمُ ويشير إليهم بإشارةِ النّشوة والانتصار، بينما يستمع إلى هذه الكلمات المزاحية التي تخرج منهم دونَ حرج، فإنه يشاركهم تلك الكلمات أحيانًا حينما يخرج من الغرفة نفسها أحدٌ آخرُ بنفس هيئته، فيجلس البقيّة- وهو ضمنهُم- نفسَ الجلسة، وهُم يشاكسون بالكلمات ذاتها ذلك المنهك المتّجه إلى الحمّام بخطواتٍ متثاقلة.

***

انشغلَ طرف «عهد» بمراقبة حبّات الرّمل وهي تتسرّب بين إناءيْن يلثم أحدُهما فمَ الآخر بشكلٍ رأسيّ، قاعدة إحداهما تفترشُ الأرض، وقاعدة الأخرى تكاد تعانقُ السقف، بينما تمتلئ بالرّمال حتى عنقها المقلوبة فوق الأخرى، ساعة رمليّة بحجم شجيرةٍ تشغل إحدى زوايا غرفتها لم تلْحظها «عهد» قبلَ الساعة، قلّة الرّمال في الزجاجة السفلية أكّد لها تلك الملاحظة، فقصدت بطرفِها «أمّ عائشة» في مجلسها قربَ الباب لتسألها عن خبر تلك الساعة الرملية الغريبة بالزّاوية، لكن ما وجدت «أمّ عائشة» عليه قد أَنساها حيرتَها، وجعلها تُقبل عليها قبل أن تجثو على ركبتيْها إلى جوارها، وهي تصرخ باسمها في هَلَع:

- «أمّ عائشة»، ما بكِ يا خالة؟! أجيبيني بالله عليكِ.. أجيبيني ما الذي حدث لكِ؟!

كانت عينا العجوزِ مفتوحتيْن، ومقلتاها بلا حراك بداخلهما، ومثلهما فمُها ويداها، لم تدرِ «عهد» ما يجب عليها فعلُه في تلك الحالة، أمسكت كتفيِ

المرأة وأخذت تهزّها بقوّة، توقّفت فجأة حين شعرت منها بشيء من المقاومة فانتقلت بيديها إلى رأس العجوز وهي تردّد اسمها من جديد، ولكنْ هذه المرّة وهي تبكي من فرْط الخوف، ربتتْ «أمّ عائشة» بإحدى يديها على وجنة «عهد» وهي تعتذرُ لـ «عهد» عن تلك الإغماءة التي داهمتْ رأسها، بينما تعيد قراءة كلمات الأخيرة عن ابنتِها من جديد، أشارت العجوزُ إلى الأوراق فوق المكتب وهي تقول بصوتٍ واهن:

– لم تكنْ هذه الحياة حياتك، ولم تكن تلك الكلمات التي سطّرتها بأوراقك هذه محضَ صدفة، ولم أقرأها أنا كأيٍّ ممّن قرأها، في كلّ مرّة كنت أَرى فيها ما لم أرَه من قبل، وكأنّني أقرأها لأوّل مرّة، موجعةٌ هي يا «عهد»، لكنْ أظنّ أنّ وجعها لن يكون هباءً أبدًا.

ابتلعت المرأةُ ريقَها وهي تستطرد حديثَها بحلقٍ جاف:

– حتى وجودي معك الآن هو الآخر ليس هباءً، كلّ شيء مقدّر بيننا يا ابنتي، وحدَكِ تعرفين ما الذي حدث لـ «عائشة» بعد تلك الفاجعة التي ذكرتها بين أوراقك، ووحدي أتوقُ لأن أعرفَ منكِ ما الذي حدث لها بعد ذلك؟!

التقطتْ «عهد» كوبَ الماء من فوق مكتبها، وقرّبته من فم «أمّ عائشة» وهي تقول:

– اهدئي يا خالة، واشربي قليلًا من الماء، واستريحي الآن ثمّ نتحدّث لاحقًا عن كلّ تلك الأمور التي تتحدّثين عنها منذ التقينا، وحتى نصل معًا للحقيقة يجب أن أعرف مَن هي ابنتُك تلك التي لا تنفكّين تسأليني عنها كلّ ساعة؟!

خرجت من صدْر «أمّ عائشة» تنهيدةٌ حارّة، بينما تنظر داخل عينيّ «عهد» وكأنّها تغوص في غوْر عينيها الوراثي، لتبحث عن ضالّتها فقط فيهما، وهي تقول متجاهلةً تمامًا للنصفِ الأوّل من جُملة «عهد»:

– كنتُ في منزلكم ذلك اليوم، يوم نزفَ أنفُك بغزارة وأنتِ تتحدّثين مع والدك في أمر زواجك، كنت آتية إليكِ لأحدّثك عنها، لكن عندما حدث ما حدث بينَك وبين أبيكِ، وسقطتِ أنتِ أرضًا مغشيًّا عليكِ؛ عدتُ أدراجي إليها، ولم أجدْها يا «عهد»، بحثت عن ابنتي «عائشة» في كلّ مكان لكنّي لم أجدْ لها أي أثر، بينما كنت أبحثُ عنها، كنتِ أنتِ بالعناية المركّزة بذلك المشفى تعانين من متلازمةِ القلب المُنكسر، فرأيت فيما يرى النائم تلك الرؤية أنّ الدليلَ إلى ابنتي بيْن أوراقك هذه، فذهبتُ إلى منزل أبيكِ وتوسّلت إليه أن يسمح لي بالقراءة.

عادتْ «أمّ عائشة» تشيرُ للأوْراق من جديدٍ وهي تقول بصوتٍ باكٍ:

– لقد هالني ما كتبتيه عنْ زواجك، وتلك الأحداث التي سردتِها من وحي خيالك، والتي تطابقتْ تمامًا مع حياة ابنتي «عائشة»!

سالت دموعُ «أمّ عائشة» بغزارة، وهي تستطردُ بصوتٍ متهدّج:

– «عائشة» هي ابنتي الغائبة الحاضرة يا «عهد»، وهي التي أتوقُ أن أعرف منكِ ما الذي حدثَ لها، أتوسّل إليكِ أخبريني أينَ ابنتي؟!

كانت «عهد» تستمعُ إلى «أمّ عائشة» بينما طرفُها يراقب عدّاد الثواني الذي يتناقص داخل تلك السّاعة الرقميّة على جانب شاشة الحاسب اليُمنى أمامها، وهي تتعجّب من تناقصِه كما تتعجّب ممّا تسمعه الآن من الخالة،

تحاول جاهدةً أن تربط بين ما تسمعُه منها وبيْن ما كتبته بالفعل في مدّة ثلاثة أعوام هي عمرُ خطبتها حينذاك.

– لكنْ مهلًا؛ هناك جزءٌ من الحكاية مفقودٌ بالفعل، ربما أنّهم حين أعطوكِ أوراقي بعد رؤياكِ تلك؛ لم تكنْ تلك الأوراق بتتِمّتها، فما هو مكتوبٌ في الصفحة الأخيرة هنا يعني أنّ أوراقي هذه غيرُ مكتملةٍ بالفعل.

تمتمتْ «عهد» بالجُملة بينما كانت تشيرُ بسبّابتها إلى مقطع بعينه بالصفحة الأخيرة من تلك الأوْراق، ثمّ رفعت طرفَها حيث تجلس «أمّ عائشة» على الأرض، وهمّت أن تقول شيئًا ما إلّا أنّها لم تجدْها في مكانها، التفتتْ «عهد» بحدّة إلى تلك الضجّة التي صدرت عن يسارها، لتجدَ «أمّ عائشة» وهي تحاول الوقوف من جديد، لكنّ ذعرَها حال بينها وبين ذلك، فأخذت تعتذرُ لـ «عهد» عن سقوط جزءٍ من مُلّة سريرها داخل صندوقه، ممّا أدّى إلى فزع كلتيهما، فهُرِعت «عهد» باتّجاه سريرها لتساعد «أمّ عائشة» على النهوض وهي تردّد:

– لا عليكِ يا خالة، أأنتِ بخير؟! تعالي واجلسي هنا حتى أعيد هندمةَ السرير من جديد.

ابتعدتْ «أمّ عائشة» جانبًا من طريق «عهد»، لتُمكِّن الأخيرة من الوصول إلى السرير بيُسْر، ما أنْ أزاحت «عهد» المرتبةَ من فوق السرير حتى تبعثرتْ رزمةٌ من الورق المحبّر في أرجاء الغرفة، ممّا جعل «عهد» تسقطُ المرتبةَ من بين كفّيها، وأخذت تلملمُ تلك الوريقات بعناية وهي تضعُ الواحدةَ فوق الأخرى، وأخرى في المُنتصف وبعضها تُرجئه إلى المؤخّرة بعناية، وكأنها تعرفُ ترتيبَ الأوراق جيدًا، انتهت من جمْع الأوراق بسرعة، ثمّ وضعتها فوقَ مكتبها برفق، قبل أن تعودَ إلى السرير من جديدٍ لتعيده إلى هيئته.

هنا.. خرجتْ «أمّ عائشة» من الغرفة وهي تبتسم، وأغلقت خلفَها الباب في هدوء، تاركةً «عهد» تعيدُ لملمة الحكاية التي تبعثرت حولها، وتعيد ترتيبَ كلّ شيء من جديد.

أجراسٌ بعينها تنبعثُ من داخل الحاسوب فوق مكتبها، تجعلها تلتفتُ إلى شاشته طيلة الوقت، لترى- هذه المرّة- ومضاتٍ لثلاثة أسماء أخرى داخل مستطيلاتٍ منفردة أسفل شريط المهام، كان منذ قليلٍ مستطيلًا واحدًا فقط، يومض ويخفتُ على اسم «يوسف»، الآن جاورَه من جهة اليمين ثلاثةُ أسماء أخرى «زهرة»، «مليكة»، و.. «عائشة»!

***

«رسائلُ عائشة»..

بدايةُ الحكاية.. «زواجٌ تعيس»..

تمّت خطبتي مرّتين، لكنّي لم أجدْ في قلبي ميلًا، أو في نفسي راحةً لاستكمال إحْدى الخطبتيْن، في المرّتين كان أبي يثورُ ويغضب، ثمّ يطيلِ خِصامي وكأنّني آتيتُ جرمًا بإنهاء الخطبة في النّهاية لأسبابٍ نفسية وليست عينيّة كما هو معتاد.

قدَرًا ساقني أبي إليه..

حين تركني أمكثُ عند أحدِ أخواله ثلاثَ ليالٍ بنهاريْن، كانت المرّة الأولى من نوعها التي يتركني فيها أبي ببيتٍ غريب، وكان خالُه «غريب» له في نفسي من اسمِه نصيب، إذْ لم أره بحياتي سوى ثلاثِ مرّات فقط.. وهذه المرّة كانت رابعهم.

زوجتُه طيلة اليوم كلّ حديثها عن الطعام وكيفيةِ تحضيره، بناتُه أربعة؛ اثنتان منهنّ متزوّجات منذ زمن، واثنتان لم يتزوّجا بعْد، إحداهُما بنفس عمري والأخرى دون الثالثة عشرة، وكانتِ المتزوجاتُ وأولادهنّ شبه مُقيمات في شقةِ أبيهنّ الشديدة الصّغر، وكأنهنّ بلا أزواج، حتى أنّ زوج الابنة الكبرى كان يمكثُ ببيته وحدَه لعدّة أيّام، وكانت هي تمتعضُ من ذلك وهي تجيبُ على تساؤلات الجميع أنّ هذا الحال يعجبه.

«ضياء» كان ترتيبُه الرّابعَ بينهم، بَكّرتْ والدتُه بولدٍ يكبر «ضياء» بستّ سنوات، عرفت منهم عنه الكثيرَ من الحكايات، التي تصدرها أنّه قد قاطع أسرته أكثرَ من ثُلثيّ عمره، الأمر الذي جعل الجميعَ يلتفت إلى «ضياء» وكأنّه لا ولدٌ سواه لوالديْه، ولا أخٌ غيرُه لأخواته.

شابٌّ هو في أواخر عقدِه الثالث، أنهى دراستَه الجامعية منذ أيّام، وحصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية، فبدا فرحًا بلقبه الجديد كأوّل مهندسٍ داخل أسرته الصغيرة وبيْن عائلته الكبيرة كذلك، لم يخفِ «ضياء» اهتمامَه بي هذه المرّة، كان سبق له رؤيتي مرّة واحدةً وأنا دونَ العاشرة، لكن بيْدَ أنّه يراني اليوم بعينين مختلفة، شابّة جميلة مُقبلة على نهاية عقدِها الثاني تقف أمامَه بكامل أنوثتها، لكنّها صامتة بعض الشيء.

هكذا بدا لي بعد تلك المُداعبة التي ألقاها على مسامع أبي بأنّني لا أتحدّث إلى مسلمين ربما، فضحك والدي وتركَنا معًا في غرفة الجلوس مدّعيًا أنّني فتاة متكلّمة جدًّا، لكن ربّما أنني خجولة في وجوده.

مزيجٌ من مشاعرَ مختلفةٍ تموج داخلي في صمت، جعلتْ منّي في أعينهم جميعًا غريبة أطوار، انتهتِ الزيارة لكنْ لم ينتهِ لقائي بـ «ضياء» وأسرتِه بعْد،

فقد دعا أبي «ضياء» وأخته التي تصغرُه بعامين إلى زيارة عمّهما بفيلّته الخاصّة بمنطقة العجمي بالإسكندرية، هو عمّهما الذي لا يصلانه كبقيّة إخوتهم؛ اتّباعًا لطبْع أبيهم الغريب، وكان كذلك خالُ أبي الأقربُ إلى قلبه ونفسِه وروحه، والذي كان أبي يشبهُه كثيرًا.

انتهتْ تلك الزيارة هي الأخرى بطيئةً عليّ، وبقي أن يذهبَ كلّ منّا إلى وجهته، لولا ذلك الاقتراح الذي اقترحتْه أختُ «ضياء» على أبي، والذي قابله أبي بترحاب شديد على غيْر عادته؛ أنْ يتركني عندهم لبضعة أيّام كتغْييرٍ لي كما أخبرته أختُ «ضياء» ثمّ يصطحبني بعدها إلى المنزل من جديد.

لثلاثِ ليالٍ متتالية كنت كمَن التصقتْ في مقعدها دون حراكٍ داخل شقتهم، وكانوا كمَن يصرّون على انتزاع الكلمات منّي دون طائل، انتهتِ الليلة الأخيرة لي معهم ببطءِ سُلحفاة، قضيت ثلثَ ليلِها الأخير وأنا يَقظة، أنتظرُ النهار لأعود مع أبي إلى بيتي وإلى غرفتي.

زيارةٌ مفاجئة لبيتنا تضمّنت كلّ أسرةِ الخال «غريب» عدا «ضياء»، كلماتٌ ذات مغزى من أخته التي تصغره بعامين كانت توجّهها لي طيلة اليوم، تحثّني فيها على الحديث عن «ضياء» والسّؤال عنه، وما زلت أعطيها وأعطي الجميعَ المطلوبَ منّي دون إرادة أو شعور، انتهتِ الزّيارة وبدأ التنابزُ حولي من كلّ فمٍ وعين.

لم ينْهِ ذلك التّنابز سوى اتفاق الخال «غريب» مع أبي على زواجي من ابنه «ضياء» على حين غرّة، واكتفى أبي بإبلاغي هاتفيًّا بالأمر، بعد أنْ طلب خالُه يدي لولده في الشّارع حين قابله أبي قدرًا ذلك الصباح!

كنتُ وقتها في استراحة مُحارب، لم أكنْ أقوى على خوْض رهق الاعتراض على شيء.. أي شيء، وكلّ شيء كان يتمّ بسرعة رغم أن مدّة خطبتنا طالت

لثلاثِ سنوات، أنهى «ضياء» جيشه في واحدةٍ منها، والتحقَ في أخرى بأكثرَ من عملٍ على التوالي، ثمّ ابتلعه البحر في السنة الأخيرة لتسعةِ أشهر كاملة، بعد أنِ ألتحق بإحدى شركات الملاحة المصرية كمهندسٍ بحريّ فوق أحدِ خطوطها الملاحية.

عاد «ضياء» من رحلته اليتيمة تلك.. (إذْ لفظه البحرُ من فوق سطحه بعدها للأبد)، وهو لا يشغل بالَه سوى شيئيْن؛ بناؤه بي بغرفته بشقّة والدته والتحاقه بإحدى الأكاديميات الشهيرة، من أجل حصوله على شهادةٍ ما يحتاجها في مجال عملِه بتلك الخطوط الملاحية التي يتطلّع للقبول في إحداها من جديد.

تزوّجنا على عجل، وبعد زواجنا بعشرةِ أيّام فقط بدأت الرّتابةُ، وظهر الملل..

أيّام مكرّرة لا جديدَ فيها، لا شيء يشغل حماتي سوى المطبخ وإعدادِ كلّ ما يحرك الفُكوك طيلة الوقت.

صار الوقوفُ بالمطبخ فرضَ عين عليّ منذ الساعات الأولى لصباح كلّ يوم وحتى الساعات الأولى من صباح كلّ غد! غرفتي مَمنوعة عليّ إلّا بعد ولوج الجميع إلى عالم الأحلام، كنت صامتةً أكتفي بالابتسام طيلةَ الوقت والسلام، فلا أحدٌ منهم يهتمّ بما يدور في رأسي وعلى رأسهم «ضياء» نفسه.

لطالما شكاني إلى أخواته وأمّه بعد كلّ علاقة حميمةٍ تحدث بيننا، كانت عبراتي هي التي ترتفع عوضًا عن غُنجِ النساء في تلك الدّقائق، وكانت دموعي هي الماءَ الوحيد الذي يسبق ماءَه، وكنت ألتحفُ الزاوية بعد كلّ انتهاءٍ وأنا أكتمُ أنفاسي حتى لا يثورَ عليّ، لكنّه أبى إلّا أن يثور في كلّ مرّة؛

فيفتح البابَ لوالدته وهو يتفوّه بأكثر الألفاظ وجعًا، بينما والدته لا تنفكّ تردّد بغيظ: "ما أشدّ سوادَ نصيبك يا بُنيّ!"

قبل أن تدلفَ إلى الحمّام فتخرج وهي تحمل بيدِها خرطومَ مياه قصير، تناوله إيّاه وهي تأمره: "اضْربها، اضْرب تلك المعوجّة حتى تستقيم"، ثمّ تولينا ظهرَها وهي تغلق الباب خلفَها بقوّة قبل أن تخرج إلى الهاتف الأرضيّ وتقوم بالضغط على زرّ الإعادة، الذي تحرصُ دائمًا أن تترك لها صغيرتُها فوقه رقمَ أكبر بناتها قبل أن تخلدَ الصغيرة إلى النوم.

وما أنْ تأتيها الإجابة عبْرَ أثير الهاتف حتى تبدأ في سرْدِ ما حدث وما لم يحدث على مسامع ابنتها، وابنتُها- بدورها- تقومُ بنشر كلّ ما تسمعه وما لم تسمعه.. هنا وهناك!

جرّبت الحديثَ مع حماتي ومع جميع بناتها خاصّة أكبرهنّ؛ لكن لم يفهمْ ما بي أحدٌ؛ فآثرت الصمتَ ودوامَ الابتسام.

جاءت تلك القطيعةُ بين والد «ضياء» وأبي في صالحي، كانت بمثابة المفتاحَ لقفص العصفور الأسير، تنامَى داخلي صوتُ روحي يهمسُ لي: "وها أنتِ ذي تتحرّرين من قيودهم، فاحمدي الله ما اسْتطعتِ"، وكنت أردّ على روحي بصوتِ نفسي: "بعْدما قيلَ من زورٍ في حقّ أبي على مسامعي؛ فليس لهم عندي عذرٌ في البقاء على أحدٍ منهم مهْما كبر أو صغر".

لم أرَ أبي ملاكًا قطّ، ولم أنصبه إلهًا كما كان هو حالُ بنات الخال «غريب» وفعلهنّ مع أبيهن، حتى صَدَّق الأخيرُ نفسَه وأخذ في التّعالي والتكبّر على كلّ مَن يسقط في محيطه، لكنّي لم أكنْ أتحمّل أن يُقال في أبي ما كان يُقال فيه، لمجرّد أنه قد رفض أنْ يقول زورًا أملاه عليه خاله، وقال ما أمْلاه عليه ضميرُه، ولم يخَفْ في ذلك لوْمة لائم.

عامان ونصفُ العام مرّوا على استقلالي عنهم حدثَ فيهم الكثير..

بعد بضعة أشهرٍ فقط من انتقالي لشقتي الجديدة، طرد «ضياء» أمّي التي قامت بتربيتي من بيتي، لتذهب الأخيرةُ دون رجعة، وفي نهاية العام الثاني مات أخي فلم يأتِ الخالُ «غريب» لتقديم العزاء فيه، أو أحدٌ من بناته؛ الأمرُ الذي استوجب قطيعتي لهم جميعًا، فلم أسلمْ من سهامِهنّ المسمومة طيلة ثلاثة أشهر بعد.

ثمّ كانت الفاجعةُ في منتصف العام الثالث؛ حين اتّهمتني أخت «ضياء» الكبرى أنّني قمت بسرقة والدتها بعدما ذهبنَ إلى عرّافةٍ ما، وقامت الأخيرة بتنويم بعض الأطفال دون الحدث، وسؤال كلّ واحدٍ منهم على حدةٍ عمّا يراه، فرأى أطفالهنّ جميعًا نفس اللقطة..

(امرأة متوشّحة الوجه تقوم بسرقة مصوغات جدّتهم من داخل خزانة ملابسها)..

ولم يكنْ بينهنّ مَن ترتدي النقاب سواي، وأخت «ضياء» التي كانت تصغره بعامين، والتي تزوّجت قبلي و«ضياء» ببضعة أيّام قبل أن تتّجه مع زوْجها إلى إحدى دول الخليج، وبالتأكيد لن يتّهمها أحدٌ بتلك السرقة، وإنْ كانت موجودة أثناء الحدث لتضع مولودَها الثاني في بلدها وبين أهلها.

قطيعةٌ امتدّت لستّ سنواتٍ كاملة بعد تلك الفاجعة التي هوتْ على حياتي فزادتها ركودًا، بلغ فيها ابني الوحيد «أنس» منتصفَ عامه التاسع، لم أرغبْ في الإنجاب مرّة أخرى، لقد اكتفيت به رغم رغبةِ «ضياء» الملحّة في الإنجاب مرّات أخَر، لا ينفكّ «ضياء» كلّ فترة أن يبادرني بالأمر، ويعلنَ لي عن رغبته هذه كلّما واتته فرصةٌ للحديث معي، لكنّ تلك التهمة التي

ألصقتها بي عائلتُه قد أقامت حائلًا نفسيًّا منيعًا بيني وبينه، حتى أنني قد تحوّلت إلى كائنٍ هشّ يرتمي بأحضان الانهيار كلّما اصطدمت بكبدٍ ولو بسيط من كبدِ الحياة.

منذ قبلتُ بتلك الزيجة، وأنا على عهدٍ مع نفسي أن أترك المقاديرَ تجري عليّ دون أن أعترضهم مهْما بلغ ظلمهم لي مبلغَه، طيلة سنوات عمري التي قضيتها في بيتِ أبي لم أكنْ أشارك أحدًا بالمنزل أفكاري أو مشاعري، كنت أكتفي بالكتابة إلى نفسي وبعض ما تنقّب عنه أمّي فيطفو لها، حتى تلك الأخيرة كان لها مع نفسها عهدٌ ألّا تطأ لي بيتًا ما بقي لي منذ ذلك اليوم المشئوم، حين أفرغ زوجي مكنونَ نفسه إلى والدتي، بأنّه لا يريد أن تمكث أمّي- التي ربتني- في بيته مرّة أخرى؛ وقد كان له ما رَغِب.

فلم تمكثْ في بيته الذي هو مِن خاصّ مالي، ولم تعدْ إلى الزيارة حتى، مهْما توالت الخطوب على رأسي بعد.

وكأنّ هذا ما كان ينقصني لتُغلَق كلّ الأبوابِ من الداخل على روحي، فمَن بعد لمكنون نفسي وتحليق روحي وقد تخلّت تلك الـ «سميحة» عني، كانت هي كلّ صِلتي بالبشر وإمامي الذي يصلني بربّ البشر كذلك، ممّن أرتوي بعْد؟! ومَن يصلح أن يحلّ محلّ فردوستي، التي كنت أغترفُ من نُهُرِ حكمتها، فيذهب البأس، ويدحض اليأس، وينبثق النور.

إنّ أمّي ملتصقة برأسي تعاتبني كثيرًا وتلومُني بلسان حالٍ قاتلٍ أستمع إليها دائمًا وهي تهمس لي:

- وزواجك من «ضياء» بذلك الاستسلام المشين، ألم يكنْ تخلّيًا عن نهْلك منّي؟!، هيّا آتيني سؤلي، أين كنت منكِ حين استسلمتِ لما يُراد لكِ على حساب ما تريدين ومَن تحبّين؟!

وماذا كنت سأفعل غيرَ ذلك يا أمّي؟!

كلّ شيء تمّ كان على يديكِ، رفضت إتمام زيجتيْن حين فسخت خطبتي مرّتين، وكلّ مرّة كانت تُفعل بي الأفاعيل من والدي ومن والدتي كذلك، زواجي كان معضلتَهم، وكأنّ ناموس الكون لن يستقيم إلّا به، صمدت قدْرَ استطاعتي، ثمّ وجدتني في هوّةٍ من اللامبالاة التي دخلتها طوعًا، وها أنا ذا أمكثُ فيها طوعًا، فما المميّز الذي قدْ أحصل عليه إنْ غَلَّبت الكرامة على الاستمرار ورحلت الآن؟!

ثمّ إنّه هناك «أنس» يا أمّي ..

كيف يمكنني العيش بعيدًا عنه، إنّي أحبّه مرّتين يا أمّاه، مرّة له ومرّة لي، مرّة لأنّه ابني، والثانية لأنّني أمّه التي تربّت على يديك، فعلقت كلّ ذكرياتي فيكِ ونسيت والدتي بكِ، ما أقساه من شعورٍ على أمّ يا أمّاه!

لا أستطيعُ حتى احتماليّة حدوثه معي، ألا يكون لي في ذاكرةِ طفلي أيّة أثر، أن تتلقّفه أيادٍ سواي وتحتويه صدورٌ غيري، لا أستطيع أنْ أحيا دونَ «أنس» يا أمّي.. لا أستطيع.

ألا ليتَها تدركُ هذا يا «عهد»..

أسمع كلماتِها تدور في رأسي، تكاد تفتكُ به:

– تدورين في دائرةِ فقدِك المفرغة إلّا من صداكِ يا «عائشة»، سألتك عن استسلامك منذ البداية، وتحدّثيني عن استسلامك الآن! حدّثتك عن عِوج الأصل، وتحدّثيني عن مقاومة الفروع وما بها من عِوَج، إنّ كلّ ما أردتك أنْ تعرفيه بُنَيتي؛ أنّ لكلٍّ منظوره وإنّ ما قرّرته هو حقّي، وما تقرّرينه هو

حقّك أيضًا، طالما أنّك استطعتِ الاستمرار فهو وسْعك، فلا تلوميني على ما تريدينه منّي وهو ليس وسعي، ولا تنبشي لحودَ الذكريات، فإنّ ما بها لا قِبلَ لنا به.

***

استيقظتْ «عهد» وهي تمسك برأسِها في ألمٍ لتجد نفسها قد غفَتْ فوق مكتبها، بينما تلك الأجراس ما زالت تنبعثُ من الحاسب أمامها بشكلٍ متواصل، أطرقت قليلًا بعد، ثمّ تخلّت عن مقعدها بإرهاق، واتّجهت إلى باب غرفتها وهي تجاهدُ أن تفتحَ عينيها، فلا تنفكّ تغلقها من جديد.

– ما كلّ هذا النوم أيّتها الكسولة، هيَّا.. ستتأخّرين عن موعدك.+

– موعدي! أيّ موعدٍ تقصدين يا خالة؟!

كانت «أمّ عائشة» ترمقها بنظرةٍ متمعّنة وهي تلوّح لها بوريقة، كُتِب فوقها بخطّ تعرفه «عهد» جيدًا.. "سأنتظرك.. وستأتي، قطاري سوف يغادر المحطةَ في التّاسعة والنصف مساءً، ما زال هناك متّسع، أحبّك. «يوسف»".

– متى.. وكيف وصلت إليكِ هذه الرّسالة يا خالة؟! ولِمَ تصفين رسالةَ «يوسف» هذه بموْعدي؟!

– هي موعدك يا «عهد»، وهو موعودُك، اذهبي إليه يا ابنتي وستعرفين بنفسِك كلّ ما تريدين معرفتَه.

قالتْها «أمّ عائشة» وهي تهزّ حاجبيْها في إشارةٍ منها إلى المرآة على يسار «عهد»، تلقّى عقلُ الأخيرة هذه الإشارةَ فورًا، فالتفتتْ حيث أرادت «أمّ عائشة» لتجدَ نفسَها بكامل زينتها، وكأنّ هناك يدًا قد أعدّتها للقاء خاص بالفعل، أخذت تدور حول نفسها أمامَ المرآة عدّة مرّات بسرعة، فبدتْ لـ «أمّ

عائشة» كطفلةٍ فرحَة بملابس العيد، توقّفت قليلًا أمام نفسها تتأمّل صورتها المنعكسة أمامَها في المرآة؛ قبل أن تتّجه إلى الخارج بسرعةِ لهْفَةٍ تريد أن تلتقي حبيبَها الآن بعد غيبةِ سنين.

في الخارج.. كانت تقف سيارة أجرة، فطنَتْ «عهد» فوْرَ رؤيتها أنّها في انتظارها، ما أنْ أغلقت بابَ السيارة خلفها حتى انطلق السائقُ بها دون أن ينبسَ ببنتِ شفة، هو يعرف إلى أين يتّجه وهي تعرف أنّه يعرف، فجلست بهدوءٍ وهي تتفقّد مظهرَها، وتهندمُه كلّ دقيقة، حتى توقّف بها السائق أمام محطّة قطار «رمسيس» الشّهيرة، شعرت «عهد» بالتّيه بعدما أنزلها السّائق قبالة بوابة المحطة التي لم يكنْ يفصلها عن «عهد» سوى بضعة مترات فقط، فأخذت تدورُ حول نفسها بحثًا عنه، وهي تردّد برهبة: "أين أنتَ يا «يوسف»؟!".

لحظات مرّت عليها كأنّها الدهر، قبل أن تجده أمامَها فجأة، وكأنّه اختفى عن عمدٍ ليظهر هكذا!، فبَدَا وكأنّ الأرض انشقّت عنه، أو كأنّه هبط من السماء بغتة، بينما هي مأخوذة لم تستفقْ بعدُ من ظهوره المفاجئ هذا، لم تدرِ «عهد» إلّا وهي بين ذراعيّ «يوسف»، والأخير يلهث لهفًا وهو يقول هامسًا:

– يا الله! أخيرًا أنتِ هنا، أنا لا أصدّق نفسي، أأنتِ حقًّا بين ذراعيّ؟! أوحشتِ روحي يا «عهدي»، وأوحشتِ قلبي وعمري وحياتي، وما الوحشة يا أنا إلّا فراغٌ بالقلب، لا يطويه إلّا بعض الدّفن حيًّا، كفّنيني بكِ على رؤوس الأشْهاد؛ فجُلّ حريتي تتلخّص هنا في هذه المساحة من العالم.. حضنك يا «عهدي» وكفى.

***

– لماذا لا تردّين على رسائلي؟! أنا أرسلُ لكِ رسالة كلّ دقيقة تقريبًا، كلّما استطعت أرسلت إليكِ، لماذا حرّمتني منكِ؟! كيف استطعتِ أن تتركيني وراءك وتذهبين هكذا؟! لقد أرسلت لكِ معها بعدما يئستُ من ردّك على بريدي، لِمَ «عهدي» كلّ هذا؟ لِمَ؟!

– تقصد مَن؟! أرسلت لي مع مَن يا «يوسف»؟!

– «أمّ عائشة»، كم هي رائعة تلك المرأة! وكمْ لها من خبايا! أظنّها كانت عاشقةً في صغرِها يا «عهد»، فلا يفعل فعلَها إلّا عاشق.

– «أمّ عائشة»!

كانت تنظر إليه وهي تردّد الاسمَ دهشةً طلبًا للمزيد من القول عنها، «أمّ عائشة» تلك المرأة الغامضة والحَنون بذاتِ الوقت، والتي ظهرت فجأةً من جديد بحياة «عهد» بعد غيبة، رغم اختلاف المكان والزمان.

– الزمان!

علا صوتُها بالكلمة ممّا جعله يبتسم، وممّا جعلها تندهش، وتقترب منه وهي تتكّئ بعَضُديها على المنْضدة أمامها قبل أن تقول له، بينما تنظر داخل عينيْه بعمق:

– قلْ لي يا «يوسف»، ما هو تاريخ اليوم؟!

– دعْكِ من هذا «عهدي» وأجيبيني لماذا تركتني فجأة؟! ما الشيء الجَلل الذي حدث وجَعَلك تقدرين على هذه القطيعة؟! أنا لستُ بخيرٍ منذ انقطعتِ عنّي، أرجوكِ قولي لي ماذا بكِ؟!

– أنت.. أنت بي يا «يوسف»، لا أدري كيف أنت بي لكنّ هذا هو شعوري الذي يغالبني، أنا كلّي ممتلئة بك، ليس الأمرُ كما قد تعتقدُه، لست عارفتك منذ لاحت صورتك فوق شاشة ذلك الحاسوب، ليس صحيحًا، أنا أعرفُك من قبل، ومِن بعْد، لا أدري كيف؟! لكن هذا ما حدث ويحدثُ، وهذا ما أشعر به، كما أمتلئ بالوجع منك كذلك حتى آخري، ورغم ذلك أنا هنا الآن، أنا هنا وداخلي يتساءل: أحقًّا أنت هنا؟! غير أنّي أبدًا لا أبوح، لكنك مثلها، مثل «أمّ عائشة» تمامًا؛ موجود بي ولا تنفكّ تسأل وكأنّك المعصوب! أنا يا «يوسُف».. أنا.. أنا معصوبةُ الطرف، لكنّي أراك ولا أسأل!

كان يتأمّلها بعينين هاربتيْن، كلّما ألقت عليه نظرةً فرّ منها، كان حلوله بها كاملًا لكنّ حضوره ناقصٌ!

بعينيه تيهٌ يشبه ذلك الجزءَ النّاقص من الحكايات، من الصور، من الملامحِ، ومن الحياة، ذلك الجزءُ الخفي الذي يربكنا دومًا، ويستحضر فضولنا دائمًا، كأنّه مطرفٌ على زاوية خفية؛ كتلك التي في كلّ الكون من حولنا، والتي لا يتمّها حتى تنقيبنا عنها بضراوة، وحدها نفوسنا من تتمّ فضولنا تجاه ما لم يبدَ لنا بأحد يقينيْن؛ إمّا بحُسن ظنّنا أو بسوئه، وكيف تقوى «عهد» أن تسيء الظنّ فيه؟!

– كخنجرٍ أنت واستقرّ في حشاي يا «يوسف»؛ إنْ ذهبت إليك أنزعك أُرديتُ نزفًا.. وإلّا..

– وإلّا ماذا؟!

– وإلّا فاستقرّ بي، واسكنْ، لعلّك تمدّ عمري ببعض الحبّ.

– ألهذا الحدّ وجودي مؤلمٌ لكِ يا «عهد»؟!

– لا أدري، لكنّي أتألّم وكأنّك حلم وأنا منك أستفيق!

حُلمٌ أبيض؛ رأيتك فيه فارسًا يمتطي جوادَه وليس المِهَار.

فارسٌ؛ كان يصطحبُني إلى الباب في كلّ مساء، وهو يستودعني عرضَه ومالَه وولدَه، ثمّ يذهب مقاتلًا بأيّما سيف.

فارسٌ؛ إن أُتيح له وقتٌ كي يغازلني تمتزجُ نبرته بصوت الصّهيل، وإن أرسل إليّ صورته كان غبارُ العاديات خلفيةً لملامحه.

فارسٌ؛ كان يرى في عينيّ لونَ حلمه وهو يطالبني بصلاح دين، ثمّ يضيفني لأقراني على صدْره وهو يتمتم: "وضّئيني بكِ؛ فأنتِ الطهر في كلّ حال، وأنجبيني من رحِمك صلاحًا وكُوني لي أمًّا، ودَعيهم يلقبونَكِ بأمّ الرجال".

كمْ كنتَ في ذلك الحلم رجلًا يا «يوسف»، وكم كان ذلك الحلم أبيضَ!

– حلم أبيض، كنت فيه رجلًا يسير بكراماته وزلّاته على حدٍّ سواء.

رجلٌ؛ إنْ أراد.. هدم المعابد والقلاع، وارتقى بحُلمه وهو موقنٌ أنّه قد فاز.

رجلٌ؛ كبيرُ الفعال، عظيمُ الخصال، شفيفُ الرّوح، عفيفُ الوصال، وبكرُ الجوارح، حييُّ المقال.

رجلٌ؛ يُوتِدُني بظهره، ويسير بي وهو على يقينٍ أنّ ظهره مُصان.

رجلٌ؛ يكشفُ من جسده مَواطِنَ بطولاته حيث كلّ بطولةٍ قد خلّفت ندبةً، وحيث كلّ ندبة تريدُ مقابلها من مقلي فقط؛ بريقُ فخرٍ يشتهيه أكثر من مرمريّة تفاصيلي تحت ضوءٍ غير ضوءِ ندباته.

كنت وطنًا..

- حلمٌ أبيضُ كنت فيه أنتَ الوطن.. وكنت أرى فيك شبقَ الانتماء وليس القضاء.

وطنٌ؛ رأيتك فيه عشيقًا وحِبًّا وأخًا وأبًا، وأمًّا ودربًا، وريحًا وسكنًا، وخشنًا وصِبًا.

وطنٌ؛ كنت أختال بالانتماء إليه فوق كلّ بلدانِ غربتي، وأهْرَع إليه فزعةً من خضمّ التّوق، ومن عظم الغربة، وأنا لست فيه.

وطنٌ؛ الانتماء إليه عزٌّ، والإشارة إليه فخرٌ، والعيشُ فيه سكن، والخروج منه انتحار.

وطنٌ؛ خارجه الكون غربة وحنين، وروحٌ لا تفارقه وإنْ بدا الطين منها بعيدًا، وعلى مسافة.

وطنٌ؛ استعمرتْه النّون قبلي، فلفَظَ محتلّيه "كلّهنّ" وارتضى بي ككلّ النّون.. وبعدي هو "راهبُ عشق" بنى بروحي وهامَ.

- كنت.. وكنت.. وكنت.. وكأنّك تتحدّثين عن ميت! أيْ «عهدي».. ما زلت هنا وما زال هناك أملٌ في هذا الحلم، وكلّ حلم، إنّي أحبّكِ يا «عهدي» ولم أعدْ أرى من النساء سواكِ، افعلي بي كلّ ما تريدين، لكنْ لا تتركيني ولا تنسي.. بيننا عهد، أي «عهدي» ما علمتك تنقضين عهدًا، أو تخلفين موعدًا، أوَ تتركين ذا حاجة، وأنا ذو حاجة، وأنتِ كلّ حاجتي؛ فلا تحرميني منكِ.

- نعم، إنّ ما بيننا عهدٌ، عهدٌ أكبرُ من نزف عروقنا الآن، وكلّ آن، أكبر من صدمتي الأولى فيك، أكبرُ من الاعتراف بأنْ لا واقع لنا دونَ مزج العِرْق

بالعِرْق، عهدٌ أكبر من فرْض السّياج وارتداء اللّجام وتوثيق الأخطاء والمعايرة يا «يوسف»؛ فرغم ما بروحي مِن خناجرك إلّا أنّها ما زالت تستأنس رائحةَ عرقِك التي علّقت منك فوقها، وكأن لا حياة لي إلّا بمزج الدّم بالدّم مهْما كان حجمُ الألم.

لكنّ الاشتياق، يا مُنى روحي، لا يعني أنْ ألقاكَ لبعضِ الوقت.. كما الآن.

- بل يعني أنّك بي كالماء والليل والنهار، وليس بعد الآن إلّا أنْ يصبح الماء عَطِشًا، والليل يَقظًا، والنهار بحاجة لعَيْنيْك حتى يُضيء، فما كان لقاءُ العاشقين إلّا صِلةً وقيامًا، وإنّي عاشقةٌ ذاتُ نُسُك، وأنت عَلى سفرٍ، والمسافر مُقصرُ.

- وهل يجوز لقلبي القَصْر في صلة عشقك؟! كيف أقصرها يا «عهدي» والمحرابُ أنا وأنتِ بي رُغم صِماتك مقيمة؟!

ألستَ خائفًا يا «يوسف»؟!

بلى؛ أنتَ خائفٌ لأنّك من واقعك مطارَد، وإنك لستَ مُقصرًا فقط، بل إنّ لك رُخصًا أُخَر، ستجعل منك عاشقًا على عجل، فاذهبَ الآن ولا تتدثّر بي على نقائصك، فما زَملْتُ كعرجاء إليك الآن إلّا.. طلبًا للمعافاة منك، وبذلًا لترياق يُقيمك بعدي..، لَكأنّ الله قد أسدل رحمتَه على كليْنا بلقاءٍ تمّ، وعهدٍ أُعطى، ودرب شهد، ومحطةِ إقلاعك هذه ليست الأخيرة أبدًا بين ماضيةٍ وماض، فبعدُ يا «يوسف»، ما زالت نسائمُ القدر تسري إلى روحي: "أنْ عودي اليوم، وارْجعي غدًا فما زال هناك متّسعٌ من.. "لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا".

أمّا قبل يا «يوسف»، .. فإنّك لم يفصلْك عنّي سوى ضباب نفسك، وإنّي أختبئ فيك من عيون العالمين عن عمْد، هكذا أبقيتك بي وإنْ كنت لا تراني.

فاطمئنّ..

فأنتَ عندي لم تعدْ على ما يراك عليه الناسُ حيث أنت، أنتَ هنا قد ذُوِّبت بي وما عدتَ ذا حضورٍ بل حلول، أنتَ هنا تجري في عروقي حتى يأتيني اليقين، فإنْ كنت بين المحيطين بك نصْب أعينهم، فإنّك هنا قابعٌ بي حيث لا شفاءَ منك، وإنّي كُفِيتُ منك أنّني يقينك الذي تقصده بعد كلّ تيه، وكُفِيتُ منك أنّي مَدارُك الذي بدونه لا اتّزان لك مهْما أغرتْك المجرّات، فدعْك من لقاء الأبدان بعد الآن حتى لا نتحوّل إلى صورةٍ باهتةٍ بلا إطار.

فخارج «البرواز الأنيق» لا يليقُ أن تجمعنا صور، وخارج البرواز الأنيق الكثيرُ منك لن يرويني وإنْ جئتَ كلّك، وخارج البرواز الأنيق سأظلّ في عطش إليك لا رواءَ له إلّا أن يتنفسَ الصّبارُ من رفاتِنا معًا، فهل تملك من أمْرِكَ أثمانَ تلك اللقطة؟!

كلّا، أنتَ لا تملك من أمرك إلّا الوقوفَ في منتصف كلّ شيء، نصف زوج أوّل أمس، وأمس نصفُ خائن،.. ونصفُ عاشقٍ اليوم، وغدًا يثير رُعبَك.

اذهبْ يا «يوسف» ولا تخفْ على غنائمِك منّي؛.. فإنّك في حشاي حتى يأذن الله لنا بمخاضٍ تنسبني بعدَه إليك.

كانت هذه آخرَ كلمات «عهد» إلى «يوسفِها» قبل أن يذهب، بينما هي جالسةٌ بمقهى «الخذلان» على ناصية محطّة قطاره ما زالت، ذلك المقهى الشّهير ببرودته، والمعروف بمواقفه المَثيلة في تلك المحطّة الشهيرة.

طلبتْ «عهد» القهوةَ كعادتها، بينما تحتسي كبرياءها، مطوّفةٌ به ما زالت، إلّا أنّها صامتة في حضرة طيفِه لآخرِ رشفة، تنتهي من جلستها؛ فتطلب الحساب، فتدفعه ثمنًا لكبريائها، وهي تظنّ أنّها بذلك تلكز الضميرَ فيه.

بينما هو قدْ أولاها ظهرَه وذهب، كان اسمُه يومض ويخفت أعلى شاشةِ هاتفها النقّال فوق المنْضدة أمامها تمامًا، هاتفها الذي تركه «يوسف» لها قبل أن يذهب باتّجاه قطاره، والذي تحرك به فوْر ابتلاعه لآخرِ شبرٍ من ظلّه، يبدو أنّ «يوسف» قد طلب من «أمّ عائشة» لقاءَ «عهد» منَ أجْلِ إعادة هاتفِها إليها، ليبدأ- هو الآخر- في إطلاق الإشعارات مثل ذلك الحاسب الآلي فوق مكتبها، وأربعة محادثاتٍ في ستارة مهامّه العلوية، تترأسها تلك التي تتجدّد كلّ دقيقةٍ باسْم الرّاحلِ منذ وهلة.. «يوسف».

***

- هل التقيتِ به؟!

- نعم.

- هل أخبرته عنها؟!

- أخبرته عنْ مَن يا خالة؟!

تركتْ «أمّ عائشة» ذلك القميص الذي كانت تحمله إلى جانب تلك الأغراض الأخرى فوق مكتب «عهد»، وقالت وهي توجّه وجهَها إلى «عهد» باهتمام:

- لا يهمّ، فيومًا ما سوف يعرفها ويعرف كلّ شيء، المهمّ هل تذكرين لِمَ كان هاتفُك معه يا ابنتي؟!

– لا يا خالة، بل لا أتذكّر إنْ كان لي هاتفٌ نقّالٌ من الأساس، لكنّي ألفته حين وضعه جانبي على المنضدة، كما ألفت رائحتَه التي علقت منْه به وبي.

قالتْها وهي تضعُ راحتيها فوق صدرها بشكلٍ معكوس في لقطةٍ حالمة، جعلت «أمّ عائشة» تدندنُ بهمْهَمات مُتناغمة، وهي تغمز بإحدى عينيها قائلة:

– إذًا، هذا هو سرّ مكوثك بنفس الملابس التي الْتقيتِه بها حتى الآن.

ثمّ أردفت بتنهيدةٍ ناعمة وصوتٍ حانٍ:

– إنّه لأيسر على أحدِهم أن يزجر الموجَ في يمِّه، أو أنْ يطفئ الشمس في كبدها؛ على أنْ يخفي صبابتَه يا «عهد»، فكلّ مُسرٍّ بالهوى لا بدّ له من خِلّ، يصرخ ويضحك بين أحْضانه، ويترك عنده تمام كلّ مكنونٍ وظنّ، حتى إذا جاء أجلُه يا ابنتي ضمن أنه قد ترك الجزءَ الخفيّ من الحكاية معه، فتكون التّتمّة ترياقًا لكلّ صبٍّ سيجيء بعده إلى يوم القيامة.

ثمّ طبطبت براحتِها اليُمنى على صدْرها بشكلٍ حميميّ في إشارةٍ منها إلى نفسها:

– وأنا لروحِك وما طالها من مسّ، ولقلبك وما ناله من وخْز، فالقلبُ لا يَنسَ ساكنَه يا «عهد»، القلبُ والبئر سواء يا ابنتي، والبئرُ لا تَبتلعُ عزيزًا.

انتقلتْ «أمّ عائشة» بناظريْها إلى الحاسب أمامَ «عهد» ثمّ ربتتْ فوق شاشته، وأردفت:

– كلهنّ كالسّيَّارة، والسّيَّارةُ خاسرون حين زَهَدوه، فالروحُ تُبصر وإنِ ابيَضَّ الطرف، والحياة تستمرّ رغم كلّ كبد، أيَا «عهد».. "إنّ الحبّ رزق،

وإنّ الصدق وفاء، وإنّ اللّقاء قدَر، وإنّ العزّة لَمن صَبَرت وأسَرَّت، وتركتِ المقادير تجري حتى يُسْجِدُ الله لها الشمسَ والقمرَ وبعض الكواكب من غير حولٍ منها ولا قوّة.. إلّا أنّها صبرت"، فاصبري.

– أراكِ قد اشتقتِ للطّلاسم من جديدٍ يا خالة.

– هذه المرّة، السّرُّ عندك يا «عهد»، بل كلّ الأسرار عندَك، وابنتي كذلك عندك، «عائشة» ملهمتُك من نوْعك، كما أنّ «يوسف» ملهمُك الأوْحد من صنف الذكور، لا تنسي «عائشة»، اغفِري لها جرمَها بحقّك، وأعِيديها لي يا «عهد» هي بينهنّ رغمًا عنها.. رغمًا عنها هي هنا.

قالتْها «أمّ عائشة» وهي ما زالت تربتُ على شاشة الحاسب الآلي فوقَ المكتب، لكنْ هذه المرّة بحسرةِ أمّ تعرفها «عهد» جيدًا، كيف تعرفها؟ لا تدري، لكنّها شعرت فجأة أنّ في قلبها هي الأخرى ذلك الفراغ الذي رأتْه منذ قليلٍ في عينيّ «أمّ عائشة» وهي تربتُ براحتها على شاشة الحاسوب وكأنّه ابتلع ابنتَها وعلى «عهد» أن تغوصَ فيه حتى تعيدها إليها.

نظرتْ «عهد» إلى النّوافذ الأربعة المفتوحة بأسمائهم أسفلَ الشاشة داخل شريط المَهام، «زهرة»، «مليكة»، «يوسف»، و«عائشة»؛ مع كلّ إشعار يصدرُ من الحاسوب للبريد الوارد من أحدِهم، يصدر نظيرٌ له من داخل هاتفِها النقّال كذلك، وما زالت هي لا تحرّك السّهم إلّا باتّجاه اسم «عائشة»، متجاهلة تمامًا الثلاثة أسماء الأخرى.

***

«رسائلُ عائشة»

كنت قد تعرّفت على صديقةٍ بعد تلك الواقعة التي اتّهموني فيها بالسّرقة، حين جمعتني بها شقة جارتي في تلك البناية التي تركتها قبل أكثر من أربعة أعوام من الآن، كانت جارتي تلك سببًا في لقائي بالحاجّة «أسيل»، لكنّها لم تكن سببًا لبداية هذه الصّداقة بيننا، أخت زوجي الكبرى كانت السّببَ الأوّل في ذلك، نجحت الحاجّة «أسيل» في جذب انتباهي إليها، حينما تودّدت إليّ بالحديث عن أختِ زوجي الكبرى أثناء زياراتها المتكرّرة على فتراتٍ قريبة لشقة جارتي تلك من نفس البناية.

والتي انتقلتْ تدريجيًّا إلى لقاءاتٍ متفاوتة داخل شقتي كذلك، جب عن تفاوت عمرها عن عمري طولَ حديثها عن أختِ زوجي، وكيف أنّها كانت تستنكرُ ما فَعلته ذلك الصباح، إلّا أنّي قد أحببتها كثيرًا لذلك الشّبه الملحوظ بينها وبين أمّي التي سبق وحدّثتك عنها من قبْل في رسالتي السابقة، ازددتُ تعلقًا بـ «أسيل» لتعلّقها بابني «أنس»؛ خاصّة أنّها لم تكنْ تنجب وقد بلغت عامَها الثالث والخمسين، الأمرُ الذي جعلني أتعاطفُ معها أكثرَ وأكثر.

ولكنْ ما خلق تلك الصّلة والقرب بيننا بالأساس؛ كان معرفة الحاجّة «أسيل» المسبقة بي عن طريقِ تلك الواقعة التي حدثت في دار تحفيظ القرآن المجاور لبيتي منذ ستّ سنين، والتي كنت من مُريديها طلبًا لحفظ كتاب الله وقتَها، قبل أن أنقطعَ عن تلك الدار وعن الحِفْظ كذلك، بعد ما حدث ذلك اليوم من أختِ «ضياء» الكبرى داخلها أَمام مُحْفظتي وكلّ زميلاتي بالدّار.

في ذلك الصباح، وقفت أختُ «ضياء» الكبرى بصحْن الدّار، وأخذت تسأل عن محفظتي بلهفة، وما أنْ وجدتها حتى وقفت تسردُ عليها بصوتٍ

عالٍ كيف أنني قد قمتُ بسرقتهم على مدار سنواتٍ ثلاثة، حتى أنني قد تجرّأت على اقتحامّ شقّة والدتها في غياب الأخيرة عنها، وقمت بسرقةِ مَصاغ حماتي وبعض المال، وأخذت تسردُ للمعلمة كيف أنّ زوجي «ضياء» لا يصدق أيًّا من أقوالهم تلك، كانت تقصّ عليها الأمرَ سريعًا، و بهستيريّة جعلت المحفّظة تظنّ أنها صاحبة مرض نفسي، وهذا ما سألت «ضياء» عنه فيما بعد أثناء مُهاتفته على التليفون الأرضي لتخبره مُستنكرة بتلك الواقعة الغريبة من نوعِها عليها.

كانت الحاجّة «أسيل» إحدى المتردّدات الجُدد على تلك الدار، وقد صادف وجودها بالدار داخل حلقةٍ أخرى تلك الواقعة، فكانت إحدى الشّاهدات على أخت «ضياء» وإحدى المتعاطفات معي فيما بعْد كذلك، وبعد أربعةِ أشهر تامّات، يشاء القدرُ أن يجمع بيني وبينها، غير أنّ ما جذبني في «أسيل» بالأساس كان ذلك التّشابه بينها وبين أمّي، من حيث الملمح والظروف كذلك، ومنذ ذلك الحين صارت الخمسينيّة «أسيل» صديقتي الوحيدة، حتى أنّني أصبحت أناديها بـ «ماما أسيل».

كانت «أسيل» امرأةً كثيرةَ الاعتمار، حيث كان لها عمرةٌ سنويًّا على الأقلّ، وأحيانًا كانت تزيد بأخرى في عام واحد، عادت «أسيل» من عُمرتها الأخيرة وهي محمّلة بالهدايا لي ولـ «ضيّاء» ولابني الوحيد، كانت تغدق «أنس» خصيصًا بكلّ لعب الأطفال الحديثة، كانت لا تتحمّل مرضه، ولا تقوى على عدَم رؤيته، حتى باتت مُلاصقة له، وبالتّالي صارت ملاصقة لي كذلك، لقاءات يوميّة صارت تجمعنا معًا؛ حتى أنّه مع الوقت صارت حياةُ إحدانا مشرعةً على الأخرى بلا قيود.

مشكلاتي بكلّ تفاصيلها تعيشها «أسيل» معي، ما خلتْ مناسبة من خلاف بيني وبين «ضياء» بسبب قطيعتي لأهْله، وما من صدرٍ يحتوي كلّ هذا إلّا صدْر ماما «أسيل» كما كنت أناديها دائما، أيّام وأسابيعٍ وشهورٌ تمرّ لا يشاركني أحدٌ تفاصيلَ يومي إلّا هي، في حين أنّ ذلك كان على هوى «ضياء» تمامًا، حيث رفع وجود «أسيل» عن كاهله الكثيرَ والكثيرَ من الحراك الذي يُبغضه، فما عاد مشغولًا باختلاقِ أسباب يتخلّف بها عن موعْد زيارتي لطبيبي، ولم تعدْ نزهة نهاية الأسبوع تؤرّق نومه أو تكدّر رغبته في عدم الخروج من البيت، حتى أنه قد تخلّف عن قصْد عن كلّ مناسبة قد دعاه أحدُ أفراد أسرتي إليها، إلّا أنّه كان يسمح لي و«أنس» بالذهاب طالما برفقة الحاجّة «أسيل».

ظروفُ الأخيرة قد سمحت لها بكلّ هذا وأكثر، فهي زوجةٌ لرجلٍ سلسٍ للغاية، كلّ ما يهمّه طعامٌ مُعدٌّ وثوْبٌ نظيفٌ ومنزلٌ مهندَم، وإنْ فعلتْ زوجته كلّ هذا في نصف نهارٍ لتغيب بعد حتى منتصف الليل خارجَ البيت، كلّ هذا كان يعتبره بمثابة تعويضٍ لها عن عدم الإنْجاب الذي كان هو سببًا فيه.

الأيّام تمرّ برتابتها عليّ حتى ابتعت ذلك الحاسبَ الآلي لابني «أنس»، ومن ثمّ قام «ضياء» بتوصيل الإنترنت إليه عن طريقِ تلك الشبكات المعروفة، والتي كان يشترك المسئول عنها بباقة إنترنت كبيرة، ثمّ يقوم بتوصيل أطرافٍ منها للعَقار الذي يقطن فيه، والعقار الذي يجاوره كذلك، حتى أنّ البعض قد جعلها مهنتَه عن طريق تأجير محلٍّ في منطقةٍ ما، ثمّ تعاقد مع إحدى شركات الشّبكة العنكبوتية عن طريق الهاتف الأرضيّ، ثمّ يقوم بتغطية الشقق السكنية داخل هذا الشارع بجانبيْه مقابل مبلغٍ زهيد مقارنةً بما

قد يدْفعه الفردُ الواحد كمُقابل لأقلّ باقةِ إنترنت مباشرة على هاتفه الأرضي شهريًّا.

تعلّمت سريعًا استخدامَ ذلك الحاسب، عرفت كيفيةَ إدارة البرامج فيه، كيف أنشئ ملفًّا، كيف أستخدمُ برنامج word، وكيف أنسّق بعض كلماتي داخلَه، كيف أحفظ ما أكتبه وكيف أعود إليه، ومع الوقت تعلّمت يا «عهد» كيفية إنشاء حساب على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك".

في البداية، لم أكنْ شغوفة بالأمر حتى قمتُ بالاشتراك ببعض الصفحات الأدبية داخله، الأمرُ الذي جعلني أنشغلُ عن العالم خارجَ شقّتي بالقراءة عن طريق تلك الصفحات، وعن طريق تحْميل كلّ الكتب التي أرغبُ في قراءتها بصيغة pdf من موقع جوجل الشهير، ممّا يسّر عليّ كثيرًا من البحث والجهد والانتظار كذلك، فكلّ ما أريد قراءته أجدُه بضغطة زرّ، بل وبتّ أكتشف كتبًا لم أكن أعرفُها وكُتّابًا لم أكنْ أعرفهم كذلك.

في الوقت الذي كنت أستخدمُ فيه الحاسوبَ لاهتماماتي تلك، كانت «أسيل» تستخدمُ الإنترنت عن طريق حاسوبها الذي ابتاعتْه حديثًا هي الأخرى في اهتمامات أخرى، فانشغلت عني كثيرًا بالتّواصل مع أسرتها التي كان يقيم معظمُ أفرادها خارجَ مصر، كما انشغلت عنها كذلك بشغف القراءة وبعض الكتابة في الأوقات التي يسمحُ لي «أنس» بها، كم كان «أنس» شغوفًا بتلك الألعاب الحركيّة داخل ذلك الحاسوب، وكم كان بارعًا جدًّا في بعضها، ومتابعًا لكلّ جديد منها، ربّما لأنّه لم يكن طفلًا حركيًّا بالأساس، فهو طفلٌ ذهنيّ أكثرَ منه حركيّ، دائم التفكر والتدبر والتأمّل، هو في صمت، وكم كان يروقني ذلك جدًّا.

رسائلُ تهديدٍ من نوعٍ مُريب بدأتْ تنهالُ في اتّصالات شبه يومية على الهاتف الأرضيّ بشقتي، رسائلُ جعلت النومَ يفارق عيني، والرّاحةَ تفارق نفسي، فبعضُ ما كنت أسمعه على الهاتف من ترّهات كانت تشمل وصفًا دقيقًا لتحرّكات «ضياء»، ووصفًا دقيقًا لما يرتديه من ملابس، وأين توقّف عن المسير في طريق عودته إلى المنزل، ومتى استكمل سيرَه، ومَن الْتقى كذلك، لم أبادر «ضياء» بأيٍّ من هذا، ما زلت بعيدةً نفسيًّا عنه، أراه لا موجودَ رغم وجوده، مثله مثل والدي ووالدتي والجميع في حياتي.

عندما تنعدمُ الثقةُ بين المرء وأقربِ الأشخاص إليه، عندما يخذله مَن يقاسمه نفسَ الدم أو لقمة العيش والجدران ذاتها، يتحوّل المرء- حينذاك- إمّا إلى شخصٍ تائه تتلقّفه المواقف وتدمّره السّقطات، أو أنّه قد يرتمي في أحضان غريبٍ اكتسب الثّقة فيه من وجوده الدّائم في الجوار دون طلب، وقدرته على الاحتواء عند الحاجة إليه.

وهكذا كانت «أسيل» وأكثر..

حينَ انهالت تلك الاتّصالات على الهاتف الأرضي، وعلى هاتفي النقّال، من بعد لم أجدْ سواها أقصّ عليها كلّ ما يجري معي، و«أسيل» تستمع إليّ جيدًّا وأنا أحكي عليها تفاصيلَ تلك المُكالمات، بينما أترك لها كيفيةَ الربط بين ما أقصّه على مسامعها وبين كلمات «ضياء» السابقة عن تلك الواقعة التي حدثتْ معه منذ بضعةِ أسابيع، أنه ثمّة رجال سيئونَ يحاولون الضغط عليه في عملِه من أجل التّعامل معهم، و«ضياء» يرفض ذلك بشدّة.

***

لرسائلَ أقدم..

لأوّل مرّة، يأخذ الفضول «عهد» فيجعل لها إرادةَ الصعود لرسائلَ أقدم، كانت تحرّك سهمَ الصّعود الموجود في جانب مُحادثة «عائشة» الأيمن إلى الأعلى بلهف، وكانت الدهشة تتملّكها كلّما صعدت بمؤشّر الرّسائل إلى أعلى، كلّما هبطت الكلماتُ أمامها وكأنّها شلّال معكوس الانْسياب كتلك الثّواني، والدّقائق، والسّاعات، والأيام التي تتناقص أمامها في ساعة الحاسب الرّقميّة تمامًا، والتي أصبحتْ تتناقص هي الأخرى بنفس سرعة هبوط السّهم، وكأنّ العودة به إلى رسائلَ «عائشة» القديمة يجعل ساعةَ الحاسوب تسرع في العدّ التنازليّ هي الأخرى!

الأمرُ الذي لفتَ انتباه «عهد» فكلّما أبطأت سهمَ الصعود لرسائلَ أقدم أبطأ تعداد الوقت العكسي هو الآخر، وكلّما أسرعت في العودة أسرعتِ الساعة في الدّوران بالعكس، حتى أنها قد تخطّت نقصان عامٍ كامل في دقيقة واحدة!

ما زالت تصعدُ «عهد» بالسّهم، وما زالت بدايةُ الرسائل بينها وبين «عائشة» لم تظهرْ بعد، حتى لفتَ نظرها جملةٌ عابرة وسطَ المكتوب ما لبثت أن التقطتها عيناها حتى توقّفت فجأة، ثمّ عادت بالسّهم إلى الأسفل قليلًا، وأخذتْ تقرأ بصوتٍ عالٍ.

"لطالما أخبرتني أمّي عن البئر وعن وجودِ «يوسف»، لكنّي لم أفهمْ ألغازها تلك قطّ، كانت تلقي عليّ نصائحها كتعويذات سِحْر، أتذوّقها ولكنّي لا أفهم ممَّ تكوّنت؟! أو لِمَ هذه التراكيب اللّغوية دونَ غيرها التي تتفوّه بها طيلةَ الوقت؟!

لطالما أخبرتني عن قميص «يوسف»، ولطالما أوْصتني أنْ لا أحزن، ولطالما أمرتني بالصبر، لكنّ «يوسف» لم يجيء أبدًا يا «عهد»، وغياب أمّي عنّي هو ما يجعل قلبي ينفطرُ في صمت كلّ يوم، وليس معرفة مَن هو «يوسف» أو أين بئرُه؟!".

توقّفت «عهد» عن القراءة عندما أحسّت بكفّ «أمّ عائشة» وهي تربتُ به على ذراعها الممتدّة فوق مكتبها، بينما تستند برأسها إلى كتفها، وعيناها مثبّتتان على شاشة الحاسوب من موضع رسائل «عائشة».

– لا تتوقّفي عن القراءة بصوتٍ عالٍ يا ابنتي حتّى أعرف ما حلّ بعائشةِ بعدي، استمرّي فيما بدأتِه الآن مِن أجلنا، فمِن هنا سيعود الطرفُ إليكِ أيضًا، ألا تشمّين ريح «يوسف»؟!

– بلى، أشمّ ريحه ينبعث من هاتفي وحاسوبي، رغم أنّ قميصه الذي لم يرتدِه فوقي، ورغم أنّني أتعطّر من عطره وأتقوّت من صورته؛ إلّا أنّني أخشى أنْ أجده يا خالة.

– ألستِ مؤمنةً به؟!

– مؤمنةٌ به يا خالة، إنّي مؤمنة به كلّه، بكلّ فصوله وكلّ خطوبه، وكل زلّهِ وجَلَله، بل إني نصبتُه في سمائي شمسًا، ولا أعتبر غروبَه تخلّيًا قط؛ أعتبرُه ناموسَ كَوْن؛ بل إنّي أعتبره الكونَ يا خالة.

– هذا هو حالُ مَن أحبّ فصَدَق يا ابنتي، أن يقنع بأنّ الطرفة عن وجْه الحبيب فقْدٌ، فهل أنتِ في حضرته دائمة النظر؟! وهل أنتِ في غيابه.. به مُسْتهامة؟!

– هذا هو حالي منذ ذقتُه يا خالة، لم أعدْ أملك من نفسي إلّا هو، قَرَّت أناي فيه، وأنكرت كلّ الكوْن بعده.

– إذًا هو بكِ يا «عهد»، «يوسف» في حشاكِ يا ابنتي، وإنّ للأجنةِ في الأرحام لسمْع؛ أراكِ قد حملته من غير مسّ، اهمسي له الآن "أُحِبّك"، ودعي الأقدارَ تعمل عملها، أرجوكِ لا تعرقلي الزّمن بصمْتك، اصرخي بها إن شئتِ، واكتبيها في الخلود إنْ أردتِ، لكن لا توقفين العمرَ هكذا، أو تعكسين الزمنَ طويلًا.. فكلّنا ينتظر.

انتقلَ طرفُ «عهد» إلى الساعة التي تتناقص أمامَها، تحاول أن تربط بين الزمن المعكوس فيها وبينَ ما تقوله لها «أمّ عائشة» الآن، ما الذي تعنيه بقولها هذا؟! وكأنّ لعهد إرادةً فيما هي فيه؟!

ألا يكفِها ما تلاقيه من رسائل ابنتها لها، فـ «عائشة» تكمل الحكاية وكأنّ ما سبق وكتبته «عهد» حقيقي وحدث، لكنْ لبطلةٍ حقيقية في الحياة لا تعرفها «عهد» إلّا من هذه الرسائل التي أمامها ومِن بعض كلمات «أمّ عائشة» ومِن سؤالها الدائم عنها، وكأنّ «عهد» مَن أخفتها في ذلك اليوم الذي ذكرته «أمّ عائشة» من قبل، يومَ أخبرت الأخيرة «عهد» بوجودها في منزلهم بنفس اليوم الذي واجهت فيه والدَها برفضها الزّواج من «ضياء»، كانت مواجهةً قاسية دخلت «عهد» في غيبوبة جرّاءها ممّا جعل «أمّ عائشة» تعود أدراجَها دون أن تلقاها، لتجد ابنتَها الوحيدة قد اختفت وكأنّ الأرض انشقّت وابتلعتها.

– أو «اليم».

– أيّة يمٍّ يا «عهد»؟!

– ماذا! هل قلتُ يمّ يا خالة؟!

– نعم بنيّتي، ماذا قصدتِ بها؟!

– «عائشة» يا خالة أنا عرفتُ أين هي لكنْ أخشى أنّها في المكان الذي لا يكون المرءُ فيه نفسه، بل يصبح شيئًا آخر، له نفسُ الملامح بين مَن يعرفه لكنّه قد يستعير اسمًا غيرَ اسمه أمام مَن لا يعرفه، ليبرزَ مِن خلفه نفسه الأخرى التي لا مكانَ لها في واقعِه، ولا وزن.

– أراكِ وقد صارتْ لكِ طلاسمُك أنتِ الأخرى يا «عهد»، لكنّي لمحت صورة ابنتي فوق مُقلك الآن، وهذا كافٍ أن يطمئنَني عنها لبعضِ الوقت، هل ستكملين قراءةَ رسائلها الآن؟! أمْ أنّ موعدَ كلمتك حان؟!

– أيّة كلمة يا خالة؟!

– الكلمة التي مبتدأها أنتِ يا «عهد» وخبرُها «يوسف»،.. أحبّك.

– أحبّك! هل يجوز البوحُ لي بها يا خالة؟! إنّها الكلمة التي يصبح صداها إمّا سيف وإمّا عهد، والخسارة عند السّيف فادحةٌ يا خالة، والعهد للمؤمنين فهل ترينَه يستحقّ الكلمة؟!

– مَن قال لكِ إنّ العهود يقطعها الأوفياء فقط يا صغيرة؟! أيّ «عهد» إنّ الحبّ رزق ينزله الله في القلوب بلا حولٍ من أصحابها ولا قوّة، و«الحبّ الخالد» يا صغيرتي هو الذي يمرّ خلسةً من سَمّ المستحيل، ليستقرّ في قلبين مكتوبٌ على أصحابها الفرقة، فيصبح أحدهما كاتبًا في العلن والآخر قارئًا في السّر، وأراكِ للخلودَ أهلًا يا «عهد».. ألا يكفيك من «يوسف» هذا اللقاء؟! أنتِ تكتبين وهو يقرأ؟!

– وهل سيقرأ؟!

– المأسور فقط يفعل يا ابنتي؟!

– وهُنَّ يا خالة هل كان يقرأ لَهُنَّ كما سيقرأ لي؟!

– إلى جوارك.. مَن هُنَّ يا «عهد»؟! لا تُقْرَن عزيزة النفس كريمة العهد، التي لم تمنح نفسَها على عجلٍ، ولم تعطِ العهدَ على باطلٍ؛ بمَن إذا أردن سقطن؛ كيف تمزجين مَن تكذب وتخون بمَن تصدق وتفي؟!

– لكنّهنّ قرنَ في قلبه قبلي وبعدي يا خالة وهو كذبَ وتنصّل وغاب؟!

– وعادَ يا «عهد».

– متى يا خالة عاد؟! غائبٌ هو منذ ملك القاصرة فيَّ.

– بل عاد، عاد بعدما ذاقَ فاعترف، وعرف أنّك أمانَه، إذْ ذاق التيهَ بعدك، عاد ليسمعها منّكِ، إنّه موعدك مع الكلمة يا «عهد»، وكلّ شيء مكتوبٌ يا ابنتي.

وكأنّ كلمات «أمّ عائشة» هذه كانت أقوى من نداءاته المتكرّرة ليلَ نهار داخل بريدها الوارد، إذ انتقلتْ عهد بسهم الحاسب إلى اسمه، وفتحت رسائله لأوّل مرّة منذ أن وطأت بقدميها هذه الحجرة، ومنذ رأتْ هذا الحاسب بها لأوّل مرّة، ومنذ وجدت فوق شاشته صورته وأسفلها اسمه، اسمه الذي يومضُ ويخفتُ بإشعارٍ مميّز كلّ دقيقة، والذي توقّف وميضُه الآن لأوّل مرّة منذ وجودها في هذه الغرفة وأمام هذا الحاسوب، فتوقّف معه العدّ العكسي لساعة الحاسوب كذلك، وبدأ عدّاد الثواني يزدادُ من جديد.

ما أنْ ضغطت «عهد» فوق المستطيل الذي يظهرُ اسمَ «يوسف»، حتى صعدت بمؤشّر الرسائل إلى البداية؛ بداية (رسائله ورسائلها).

***

بئرُ «يوسف»

كانت عادتها عندما يصلُها طلبُ صداقة من غريب، أو حين تستقبل رسالةً ما تصبح مطالبةً فيها بقبول طلب صداقةٍ من أحدهم؛ أنْ تتجاهل الرسالةَ دون قراءة، ثمّ تذهب إلى الصفحة الشخصية فتلقي عليها نظرةً عامّة، ثمّ تقبل الطلب بعد ذلك أو ترفضه.

إلّا أنّ «عهد» - هذه المرّة- قد قبلت طلبَه، وكأنّها تعرفه ويعرفُها، وكأنّها كانت تنتظر رؤيةَ اسمه بطلبات الصّداقة فتقبله، ثمّ تأخذ نفسًا عميقًا بحجم كلّ سنوات الانتظار قبل أن تدخل صفحته بعْدُ برهْبة العارف، كاد خافقُها يقفزَ من بين ضلوعها عندما وقع طرفُها على صورته، كانت الصورةُ تجمعه وآخر في خبرٍ ما، إلّا أنّها لم ترَ إلّا هو، شعورٌ بالانتماء انتابها فجأة، وكأنّها في مكانٍ تعرفه، وأمام روح تألفها.

كانت الصورةُ لرجلٍ له نفسُ ملامحها، لكنْ في صورة ذكوريّة تدعو للتعجّب، كانت تتحسّس وجهَها بيمناها، بينما تمرّر يسراها فوق صورته التي أمامها، وهي تهمسُ بصوتٍ بالكادِ تسمعُه:

- يا إلهي، وكأنّني أمام مرآةٍ أرى فيها نفسي غير أنّني قد تحوّلت إلى رجل! هل مِن المعقول أنّ مَن أراه الآن هو صاحبُ هذا الحساب حقًّا؟!

انتقلت سريعًا إلى زرّ الصور أعلى صفحته بحثًا عن صورةٍ فردية منها تتأكّد أنّ الحساب له، أخذت تتصفّح صورَه وهي تبتسم، كانت ملامحُه من

ذلك النوع الذي يتغيّر مع كلّ لقطة بشكل مُلفتٍ مثلها تمامًا، غير أنّ روحه كانت تطلّ من عينيه في كلّ صورة وكأنّها تناديها، الشيء الذي جعلها في عجبٍ من نفسها أمام حالةِ المسّ التي تعتريها من مجرّد رؤيتها لبعض الصور لرجلٍ غريب.

ليست بعضُ الصور، وليس غريبًا ككلّ غريب أرسل لها طلب صداقةٍ وقبلته بعد نظرةٍ سريعة على نوعيّة منشوراته، الأمرُ الذي لم تفعله معه حين قبلت الطلبَ أولًا ثمّ دخلت الصفحة فيعلقُ بصرُها بصورته، مثلما لفحَ روحها باسمه على رأس قائمةِ طلبات الصداقةِ لديها.

الشّيء الذي لم يحدث معها طيلة أعوامٍ سبعةٍ هي عمرُ إنشائها لحسابها الشخصي على موقع التّواصل الاجتماعي «فيسبوك»، وكأنّ ما يحدث لقاء مقدّر بين بعضٍ وكلّه، وليس مجرّد طلب صداقةٍ بين رجلٍ وفتاة!

خرجت من صوره مبهوتةً كمَن فقدت روحُها حلولًا فيها، لتتجوّل فوق منشوراته اليوميّة فوق حائطه، أعجبتها تلك التّعليقات المشاكسة بينه وبين أفراد أسرتِه من الجنسين، كانت تقرأ تعليقاتهم وهي تبتسمُ لهذا الترابط الحميميّ بينه وبينهم، ودّت لو تشاركهم تلك المشاكسات وكأنّها منهم، حتى أنّها همّت بكتابة تعليق أكثر من مرّة، لكنّها تراجعت عن ذلك واكتفت ببعض الإعجابات فوقَ تعليقاته هو فقط دون التعليقِ عليها.

لفتَ نظرَها أنّ منشوراته قليلة كوْنه كاتب وشاعر، وكأنه ليس مقيمًا فوق صفحته كالبعض من الكتّاب والشّعراء ذوي الإقامةِ الدائمة إلى جوار أحرفِهم، يبدو أنّه من ذلك النوع الفيّاض كالبحر؛ إنْ هبّت رياح شعورٍ عاتية كتبَ وإلّا فإنّه في اثباط، قصائد كثيرة غير مكتملةٍ في الحبّ وفي الكراهية، في

الوفاءِ وفي الخيانة، في الشّوقِ وفي اللقاء، تهاني قليلة ورثاء طويل لكلّ غائب وراحل، وقليل من العتب، وكثيرٌ من إنكار ذات، كانت هذه نوعيةَ منشوراته كما صنَّفتها «عهد» وهي تتفقّده مِن حرفه، أو.. تتعرّف عليه منه.

كان مِن بين منشوراته نعيٌ مختَصَر لكنّه صادق جدًّا، قد يعتبره قرّاؤه غريبًا، نعَى فيه «يوسف» مجذوبًا مات لتوّه في قريته!

شاعرٌ هو، لكنّه لم يكتبْ في ذلك المجذوب الرّاحل شعرًا، كان نعيًا صادقًا بسيطًا خرجَ من قلب مكلوم بالفعل، وليس من قلم كاتب اعْتاد أن يصنع مجدَه من كلّ حدث، وقد أبكَاها ذلك النعيُ بشدّة عندما قرأته لأوّل مرّة، لكنّ ابتسامةً ما وجدت طريقَها إلى شفتيها في القراءةِ الثانية وهي تهمسُ لنفسها:

– يا إلهي، ما الذي يحدثُ هنا؟! اسمُه «يوسف» ويشبهني ملمحًا، ويشبهني حتى في حبّ المَجاذيب! ما تلك اللّفحة الروحية التي تعتريني الآن؟! أشعر وكأنّ روحي تتوحّد في روحِه دونَ أن يدري هو عنْ ذلك شيئًا!

– ما هذا الهُراء الذي أقوله؟! هو مجرّدُ غريب حتى وإنْ كان اسمه «يوسف»، وهذه مجرّد صورة حتى وإنْ كان صاحبُها يشبهني، وهذا مجرّد نعي حتى وإنْ كان كاتبه يحبّ المجاذيب، مصادفة، كلّ شيء مصادفة، وأنا أبالغ، و..

توقّف حديثها مع نفسِها فجأةً عندما ظهرَ أمامها شبه مستطيل، أحدُ أضلاعه ملتصقٌ بجانب متصفّح فيسبوك من جهة اليسار، وآخر قد التصقَ بالمتصفّح من أسفل ليمثّل زاوية قائمة مع إطارِ الموقع وكأنّ شبهَ المستطيل

هذا جزءٌ منه، كان أعلى المستطيل من جهةِ اليمين اسم «يوسف»، ومن جهة اليسار قبعت أيقونتان إحداهُما لعلامةِ كاميرا، والأخرى على شكل سمّاعة هاتفٍ أرضي، وأمّا فراغ المستطيل ذي الإطار السّماوي المعروف على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك باسم (المحادثة)، فكانت تتدفّق داخله الكلمات بشكلٍ دعا «عهد» للتأمّل.

– السّلامُ عليكم أستاذة «عهد»، مع حضرتك «يوسف عزيز» كاتبٌ وشاعر، لي عدّة دواوين بالعامّية والفصحى، وبضعة كتب أتمنّى أن يحظى بعضُها أو كلُها بشرف قراءتك لها، وأشكرك كثيرًا على قبول طلبِ الصّداقة، تحياتي.. «يوسف».

ليستْ هذه هي المرّة الأولى التي تصلها فيها رسائلُ من غريب، لكنها ما زالت تقف متأمّلة أمام هذه التكنولوجيا المُخيفة في كلّ مرّة تصلُها فيها رسالةٌ من نوْعها، حين يكتب أحدُهم من شرق البسيطة لآخر في غربها فتصلُ الرّسالة فورًا دونَ وسيط أو رقيب إلّا ذلك الرّاسل هناك.. وهذا المتلقّي هنا، كان كلّ ما يستحوذ على تفكيرها– حينئذ– السّرعة، لقد صار كلّ شيء يحدث سريعًا جدًّا في هذا العالم ذي السّمت البطيء، وصارت كلّ الأماكن قريبةً جدًّا في هذا الكوْن الواسع، وإنّ المسمّيات اختلفت في كلّ شيء، حتى أنّ اللقاء، الموعد، البثّ، والخلوة؛ صار لا يلزم الرّاغب في أيّ من هذا إلّا ضغطة زرٍّ فيحصل على ما يريده.

«شبكة عنكبوتية» ..

هكذا يسمّون الإنترنت الذي أتاحَ للإنسان كلّ هذا الرّغد دون عناء أو مشقة، بضعة آلاف فقط ينفقُها الواحد منّا في هاتفٍ خلوي أو حاسبٍ آلي،

أو آخر محمول، وهاتف أرضي يشترك مالكه في إحدى شبكات الإنترنت ليسهل الولوجَ إلى تلك الشبكة العنكبوتية، ثمّ ها أنتَ ذا قد انفتحت على العالم مِن حولك دون رادعٍ أو رقيب إلّا نفسك.. أو هكذا تظنّ.

لماذا اختاروا لها ذلك الاسم تحديدًا؟! لماذا «العنكبوتية» دونَ غيرها من الأسماء؟! بالتأكيد هُم يعرفون أنّ شبّاك العناكب هي بيوتهم، لكنْ هل يعلمون أنّ هناك آيةً بالقرآن الكريم تنصّ على أنّ أوْهنَ البيوت لبيت العنكبوت؟!

لا أظنّ أنّهم يجهلون تلك الآية، والتي تحمل الرقمَ واحد وأربعين من سورة العنكبوت بالمُصحف الشّريف، والتي تستحضرُها «عهد» في ذهنها كلّما وردتْ إليها رسالة ما في بريدِها الوارد.

لكنّ الرّاسل هذه المرّة كان «يوسف»، فهل ينطبق عليه كلّ أفكار «عهد» وبعض تحفّظها؟! أمْ أنّه الشخص المستثنى من كلّ القواعد كما تجري العادة دومًا مع الشخص الوحيد الذي يمرّ فيُربكُنا، فيكون له الحقّ بالنهاية في كلّ شيء.

لم يشغلْ شيءٍ من هذه التّساؤلات خاطرَها من قبل، كانت ترفضُ وتقبلُ وتتجاهلُ أو تتواصلُ في صمتٍ ذهنيّ مُطبق، كثيرون قبلَه قد أرسلوا إليها طلباتِ صداقة، لم ترَ «القاصرة» التي فيها أنّ هذا رجلٌ أو تلك امرأة، جميعُهم بعينيها كانوا أرواحًا متآلفة، اجتمعت أطيافُهم في سربٍ يحلّق في سماء الكَلِم.

لكنّ «يوسف» كان له مع عينيها عهدٌ، وبكارة عينيْها لم تُفض إلّا على اسمه فقط.. «يوسف عزيز».

***

(أكبرُ مصائب ابن آدم أنّه يعطي الحبّ لَمن لا يستحقّ دون أن يدري أحيانًا، حين يمسك بمَطرقة العتاب و«العتاب» حبّ، ويجهد نفسَه في تفتيت قلوب كالصخور حوْله، مَن يحبّك حقًّا سيقبلك في كلّ حال، فلا تنهك روحَك في التّفسير والتبرير وتحسين صورتك، أهدِ مَن يضعك في صورة باهتة بروازًا أنيقًا من الهجْر الجميل ليضع ظنّه فيك داخله ثمّ يعلّقه على حائطه الأسود، فإنّ جهدَك الذي تبذله في تبييض أسودِهم مقتلٌ لآدَميّتك، وبعض خيْباتك في الأقربين لك عزّ في دائرةٍ أوسع، واعلَمْ أنّك لن تروق لَمن لم يألفك، وإنْ أنفقت ما في الأرض جميعًا، وبعض التّنافر رفعة لو تعرف، فلا يحزنْكَ قولُهم).

ما أنْ تنتهي «زهرة» من قراءة تلك الكلمات حتى تعيدَ قراءتَها من جديد، ثمّ أخذت تقرؤها على مهلٍ وبتمعّنٍ شديد لمرّة أخيرة؛ وكأنّها تفكّر في كلّ كلمةٍ وما وراءها من معانٍ، يبدو أنّ «عهد» لمستْ بكلماتها تلك وجيعةً دفينةً في نفس «زهرة» غير تلك التي أصابتها منذُ قليل، عندما استقبلتْ تلك الأشْعار باسم «يوسف» أنّه قد أعجب بهذا المنشور لكاتبته «عهد إبراهيم».

همّت «زهرة» - هي الأخرى - بكتابة منشورٍ قصيرٍ فوق حائط صفحتها بموقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، اجتهدتْ في كتابته كثيرًا، فراجعته عدّة مرّات، وحسّنته أكثرَ من مرّة قبل أن تقوم بنشْره أخيرًا فوق جدارها المهجور.. "ولا سلامَ على لصوص السّلام، الماكثين لأنفسهم، والراحلين بأنفسِهم عند أوّل قشّة توقَد في هشيم الزّيف، التّاركين وجوهَهم عند الشدائد أقنعةً ثمّ غابوا".

دقائق فقط وقامتْ بنشْر ثاني منشورٍ لها في أقلّ من نصف الساعة.. "قد لا يكون ما بدا منهم نقيصةً؛ قَد تكون أنتَ وضعتهم في إطارٍ أكبرَ من حجمهم فسقطوا!".

لم تنْتهِ الساعة إلّا وثالثُ منشورٍ لها مذيّلٌ بكلمةٍ مقصودة قد قذفته فوقَ جدارها.. "إنّ عزيزًا حَلَّ بالدّارِ.. أَمِنْ مرحّب؟

صبرًا يا عزيزًا حلَلْت؛ سأجفّف دمعي على عزيزٍ راحلٍ وآتيك؛ هكذا هي "قلوب الرجال" قلّما تسكنُها للنهاية "واحدة".. مقصودة.

كانتْ «زهرة» من أوائل النّساء في محيطها التي امتلكتْ تلك الهواتف الدّاعمة للإنترنت، منذ أنْ عرف الوطنُ العربيّ تلك التّقنية التي تدعم شبكةَ الجيل الثّاني، والجميعُ يلهث خلف اقتنائها بضَراوة، ما جعل شركاتِ الهواتف المحمولة تعمل جاهدةً على التطوير من منتجاتها ومن قدرتها على التّنافس كذلك، الأمرُ الذي تطلّب منها طرحَ جديدٍ كلّ فترة، وكلّ جديد كان يزهد من سعر القديم فيصبح سعرُه مناسبًا للبعض أكثرَ من ذي قبل.

بيْن الطبقةِ الثّرية في المجتمع العربي كان تغييرُ الهاتف المحمول بآخر إصدارٍ لنفس شركة المحْمول ذاتها التي يحملون إصدارًا ما منها يعدّ من الضروريّات، الأمرُ الذي جعل الطبقة المتوسّطة تدخل سباقَ اقتناء الهواتف الذكيّة هي الأخرى، فكان ما يتمّ الاستغناء عنه من الطبقة الثّرية يعتبر رزقًا للطبقة المتوسطة، وهكذا الأمرُ بين الفقراء والطبقة المتوسطة، لتدخل الهواتف المحمولة بذلك إلى قائمة احتياجاتِ الفرد، أو ربّما لتصبح على رأس القائمة ذاتها حتى أنّ بعض الفقراء صارَ هدفُهم الأوّلُ هو اقتناءَ أحدثِ إصدارٍ لهاتفٍ بعينه؛ لأنّه ذو صيتٍ بين أقرانهم أو في محيطِ أسَرِهم.

عملُ «زهرة» كمخرجةٍ متميّزة لمعظم برامج القناة السّابعة بالتليفزيون المصري بمحافظة المنيا؛ ساعدها كثيرًا على اقتناء أحدثِ الإصدارات التي تطرحها أفضلُ شركات صناعة الهواتف الذكيّة والأجهزة اللّوحيّة في العالم،

كما كان ييسّر عليها- أيضًا- اقتناءَ كلّ شيء تريدُه مهْما غلا ثمنُه، حتى تلك الشّقة التي كانت لوالدتها وخالاتها، والتي دفعت لهنّ ثمنَها دفعة واحدة بعد انتقال والدتها إلى العيش معها بعامٍ واحد، لتنتقل بذلك ملكيّة تلك الشقة إلى «زهرة» دونَ شريك.

هذه هي «زهرة» حينما تريد شيئًا فإنّها تحصلُ عليه بالفعل.

منذُ انتقلت والدتُها للعيش معها بعد سفرِ أختها وزوجِها إلى الخارج، وهي هدفُها الأوّل أن تشتري تلك الشّقة، كانت تدخّر نصفَ راتبها، والنّصفُ الآخر كانت تنفقُه على احتياجاتها الشخصية؛ مثل الهواتف الذكيّة والحاسب المحمول وكلّ ما ينال إعجابَها من ملابس وإكسسوارات، وما إلى ذلك.

ساعدتْها وفاةُ والدها الذي توفّي بالقاهرة بعد ولادةِ ابنتها الصغرى بعامين ونصف العام على الانْتهاء من أمْر تلك الشّقة بسرعة، فالمبلغ الذي ورثته من موتِ أبيها كان كلّ ما تحتاجه لتتمّ تلك الصّفقة مع والدتها وخالاتها الأربعة، أمّا ما تبقّى معها من مالٍ فقد ابتاعت به تلك السيارة الحديثة، صغيرة الحجم متوسّطة الثمن التي كانت تصبو إليها ذاتَ يوم.

ما أنْ تنتهي «زهرة» من عملها كلّ يوم حتى تمرّ على المنزل تتفقّد الجميع، وتتناول القليلَ من الطّعام كوجبةٍ رئيسيّة وحيدة خلال يومِها كلّه، فمنذ أن أجرتْ تلك العملية وكمّمت معدتها؛ وهي لم تعدْ تُقبل على الطعام بالشّراهة ذاتها التي كانت تُقبل عليه بها من قبل. ما أنْ تنتهي «زهرة» من لُقيْماتها سريعًا حتى تقصد غرفتَها لتبديل ملابسها بالسّرعة ذاتها، وهي تأمرُ ابنتها أن تستعدّ من أجل الذّهاب إلى دروس السّباحة أو لسواها من تلك الأنشطة الرياضية أو الترفيهية الكثيرة التي كانت تشتركُ لابنتها بها في آنٍ واحد.

لم تكنْ تلك الأنشطة من أجل تغْطية وجودها خارجَ البيت كما يفعل أمثالُها ممّن لا ينتمين إلى الدّاخل، لم تكنْ «زهرة» من تلك النوعيّة من النساء، التي تحتاج إلى تبرير لكلّ فعل تقوم بفعله، ما تريده تفعله، وليذهب الجميعُ إلى الجحيم، إنّما كانت مقبلة على ابنتها حبًّا، تريد أن تفعل معها كلّ شيء كانت تتمنّى أن تجده من أمّها ولم تجدْه، لذلك كانت تحاول إسعادَ الصغيرة بكلّ ما تقدّمه لها مِن عطاء.

تغيّرت «زهرة» كثيرًا قبل أن تحمل بابنتها الصغيرة وتغيّرت أكثرَ وأكثرَ بعد أن أنجبت صغيرتَها، والتي كان الفارق بينها وبين أخويْها كبيرًا جدًّا في العمر، حتى لكأنّها ابنة لكبيرها وليست أختًا له، وتبدّلت «زهرة» كليةً منذ أن تعرّفت على زميلتها الجديدة بمبنى الإذاعة والتّليفزيون بالمنيا، والتي تعاطفت معها كثيرًا عندما علمت منها أنّها مطلّقة بعد زواجٍ استمرّ لعشر سنوات.

بعد معرفتِها بـ «عتاب» بعام تقريبًا قرّرت «زهرة» - فجأة- أنْ تجري عملية تكميم المعدة دون أن تستشيرَ أحدًا من أسرتها، الشيء الذي أثار حنقَ الجميع خاصّة زوجها ووالدتها، والتي لم يرافقْها أثناء إجرائها إلّا صديقتها «عتاب» وابنها الأوْسط فقط.

انطوتْ «زهرة» كثيرًا بعد عام من إجرائها لتلك العملية، صارت تجالس حاسوبَها أكثرَ من ولديْها وأمّها وزوجها، تكتب كثيرًا فوق حائط صفحتها الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك» عن حرمانها العاطفي، وعن ابتعاد زوجها عنها، وعن عاطفتها العطشى لعطفِه وحنانه واحتوائه.

موضعُ الصّورة الشخصية بالحساب الخاصّ بها؛ تحتلّها صورة لعجوز مُنتقبة، لم يخفِ الوشاحُ- الذي تضعه فوقَ وجهها- عمرَها الحقيقي، ولم

يخفِ اهتمامها برسم عينيها كذلك أنّها فوق الخمسين من عمرها وربّما أكثر، مُنتقبة تنشرُ منشورات تدلّ على التزامها وحفظها لكتاب الله، وبنفس الوقت تقوم بنشر بعض المنْشورات التي تدلّ على فراغٍ عاطفي كبير يحتلّ قلبَها كأنثى متنمّرة تريد الحياةَ وكأنّها تتحدّى الزمن.

جعلتْ صفحتها الافتراضية متاحةً لكلّ صنوف البشر، بينما تحجب عن واقعها.. الوالدة الفاقدة للغة التّواصل معها منذ الصغر، والأخت البعيدة عنها قلبًا وقالبًا، والابن الذي لا يتحدّث إليها منذ سنوات، والآخر الذي أدمنَ المخدّرات رغم طهْر روحه، وتحجب عنه أيضًا الزّوج.. الـ... ماذا!

أَوَ حقًّا الدكتور «زايد» هو ذلك الزوجُ الجاحد لحقوق زوجته كما تكتب «زهرة» عنه دومًا على حائطِها الإلكتروني؟! أهوَ ذلك الزّوج غير المكترث لأنّات زوجته المعذّبة كما تصف نفسها في تلك الكلمات العدائيّة أكثر منها انْكسارية واكْتراثية؟! هل زوجها يستحقّ منها كلّ تلك الإشارات الاتّهامية التي تستخدمها ضدّه؟! ثمّ أين هو؟! أين دكتور «زايد» ليردّ عن نفسه أو يحتوي زوجه أو يعاتبها بما له عندها ويعترفُ لها بما عليه؟!

أينَ هو مِن عالمها الافتراضي هذا؟!

أين الدكتور «زايد»، الزّوج، من كلّ هذا يا ترى؟!

***

أوقفَ رجلٌ وقورٌ سيارتَه أمام ذلك المبنى المتوسط الحجْم بذلك الشارع الرئيسي بمدينة المنيا السّاحرة، قبل أن يترجّل منها بخفّةٍ لا تتناسب مع عمره، ملامح الرجل وهيئته كانتا تخبرَا الناظر إليه أنّه في منتصف عقده السابع،

وقف الرجلُ لبرهةٍ من الوقت يعدل من هندامه وهو يتأمّل اسمه فوقَ تلك اللافتة المضيئة أعلى ذلك المبنى المقابل له، والتي كتب فوقها بلونٍ برتقالي قانٍ (مستشفى الدكتور «زايد غريب» التخصّصي لجراحات القلب المفتوح).

لم يولَدِ الدكتور «زايد» وفي فمِه ملعقةٌ من ذهب كما قد يظنّ مرضاه الذين يقصدونه داخل مشفاه هذه كلّ يوم من كافّة أنحاء الجمهورية، لقد كان ابنًا وحيدًا لسيدةٍ فقيرة تربّى في كنفها يتيمًا، عملت والدته بكلّ عملٍ شريف تتقنه لتتمكّن من جلب المال الذي تعيش وابنُها منه.

قرّرت والدته أن تلحقَه بالمدارس الحكومية بناءً على نصح البعض ممّن أثنوا على ذكاء «زايد» المَلحوظ، ورغم مجانيّة التعليم التي تقدّمها الدّولة للمواطن المصري، إلّا أنّه عند البعض تلك المصاريف الرمزية المطالب بدفْعها مقابل الكتب؛ تعدّ حملًا على بعض أولياء الأمور، ذلك الزّي الدّراسي المطلوب لابنها على مثلها باهظُ الثمن، وحتى ذلك الوقت الذي يقضيه ابنُها في المدرسة والآخر الذي يقضيه في استذكار دروسه، كان من المُمكن أن تجعله يعمل عددَ السّاعات نفسها فيخفّف عنها ما هي فيه من كبدِ الفقر.

إلّا أنّها آثرت تعليمَ ولدها على راحتها، منذ أدخلتْه تلك المدرسة الابتدائية على طرفِ المدينة، وهي تناديه بـ «الدكتور زايد»، حتى شبّ «زايد» على حلم واحد فقط أن يتمّ تعليمه الذي كان يكفلُ نفسه في الكثير من مصاريفه فيما بعد، ليصبح طبيبًا تحقيقًا لحلم أمّه الذي أصبح حلمَه أيضًا مع مرور الوقت.

حتّى أنّه لم يعرقله ماديًّا موتُ والدته، وإن كان تعثّر معنويًّا كثيرًا لفراقها، إلّا أنّه ما توقف عن ذلك الحلم بموتها المفاجئ هذا، بل تعافت روحُه سريعًا

إلّا من الحنين لأمّه، بعدما استطاع أن يحصلَ على إعجاب أحدِ أصحاب محالّ البقالة الكبيرة، والذي يُعرف باسم «سوبر ماركت»، والذي كان يتوسّط نفس المنطقة التي كان يستأجر «زايد» إحدى الغرف فوق سطح إحدى عماراتها القديمة، فأسند الرجلُ إليه حسابات المحلّ كعمل مسائي.

وفي أيّام الأجازة الأسبوعية كان يعملُ بساعات عمل إضافية مقابلَ مبلغ متّفق عليه نظيرَ كلّ ساعة يقضيها داخل المحلّ، أمّا في أجازة نصف العام والأجازة الصيفية فكان يعملُ ويبيت بالمحلّ ليحصل على أكبر عددِ ساعات عمل، ويوفّر إيجار الغرفة كذلك؛ من أجل ما يحتاجه من مال.

حرصُه الدّائم على التفوّق الدراسي في كلّ مراحله الدراسية رقّق قلب صاحب العمل عليه، فتكفّل الرجل بمصاريف مدرسته حتى انْتهى «زايد» من الدراسة الثانوية بنجاح وتفوّق.

حين علمَ من «زايد» أنّ حرصَ الأخير على التفوّق قد أهلّه- بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة- للدّراسة الجامعية بالمجان، فاشتدّ إعجاب الرجل به أكثرَ وأكثر، الرجل كان يعلم أنّ كلية الطبّ من الكليات التي تحتاج للكثيرِ من المال والجهد والحضور كذلك، الأمرُ الذي دفعه للتعامل مع «زايد» في العمل بالسّاعة، وقد أسند الرجلُ إليه مبلغًا كبيرًا كأجرٍ عن الساعة الواحدة التي يقضيها «زايد» بالعملِ معه، وكان يدفع له كلّ ما يطلبه على آجل العمل معه في أجازتي نصف العامِ ونهايته.

حينما سأله «زايد» ذاتَ يوم قائلًا:

- لماذا تفعل كلّ هذا من أجلي؟!

تنهّد الرجل تنهيدةً مريرة قبل أن يجيبه بانكسار:

– لي من الأولاد خمس، كلّهم ذكور، كانت أمنيتي الوحيدة أن أجدَهم جميعًا مثلك يا «زايد» لكنْ لم أجدْ في أحدٍ منهم نصفَ حماستك هذه، ولا نصفَ إصرارك، ولا شيئًا من حلمك ورغبتك الملحّة في تحقيقه، حفظكَ الله من كلّ سوءٍ يا ولدي.

ما أعجبَ هذه الدنيا!

وما أعجبَ حالَ الإنسان بها!

مثل هذا الرجل يستطيع أن ينفقَ على أولاده الخمسة حتى يصل بهم إلى أرقى الجامعات دون كدٍّ أو شقاء، إلّا أنّه يقف عاجزًا أمام افتقارهم للحلم ورغبتهم في النجاح والتفوّق والحصول على تلك الدّرجة العلمية المرموقة، والتي كانت تجبر المجتمع – عادة– على احترام الحاصل عليها في تلك الحِقبة الزمنية الماضية والحالية كذلك، عجز الرجل أمام فتورِ الحلم في قلوب أبنائه الخمسة، جعل «زايد» يحمد الله على حاله وعلى رغبتِه التي توافقت مع رغبة والدته رحمها الله، فسار بالحلم إلى تحقيقه، ولو حبْوًا، حتى بعد وفاة مَن غرست في نفسه ذلك الحلمَ الجَميل.

– رحمك الله يا أمّي.

قالها «زايد» بصوتٍ مرتفع دون أن يشعرَ وهو يبتسم، فنظر الرجلُ إليه بإكبار أكثر، دماثة خلق وتفوّق دراسي، وحلمٌ جميل يقف «زايد» الآن على عتبته، هل للصلاح عنوانٌ أفضل من هذا حتى يكتبَ لمثل أمّه به عملًا لا ينقطع؟!

لم يكنْ «زايد» يشعر بالإهانة أو التقليل عند ولوجِه الحرمَ الجامعي من تلك البوابة الصغيرة المخصّصة لدخول أصحاب تلك العلامة فوق هويّتهم

الدراسية، والمعروفة عند كلّ الطلبة والطالبات أنّها لأصحاب المنح المجانية، كذلك لم يكنْ يزعجه تعالي البعض من زملائه عليه، خاصّة الأغنياء منهم، والذين عادةً ما كانوا يخفقون في سنواتهم الدراسية على نقيضه، كان «زايد» متصالحًا مع نفسه لأبعدِ حدّ، كان يعلم- علم اليقين- أنّ كلّ هذا مجرّد حلم مُزعج في عمرٍ مليء بالأحلام الجميلة القادمة، حلمٌ مزعج سينتهي قريبًا عندما يحتضن شهادته الجامعية ويرحل من هنا، فلا يعود إلّا لمناقشة الماجستير أو الدكتوراه.

دلفَ دكتور «زايد» إلى مكتبه داخل مشفاه التخصّصي على مهل، شهاداته الدراسية المتعددة الجهاتِ تتراصّ على جدران مكتبه، تلك الشهادات التي حصل عليها من داخل البلاد وخارجها، والتي كانت مرصّعة فوق جداريْن من جدران الغرفة الأربعة، الحائط الذي خلف مكتبه تمامًا وذلك الذي يقابله، كان بجانب الأخير من جهة اليمين بابُ المكتب، فيُستهَل الداخل إلى مكتب دكتور «زايد» بتلك الإطاراتِ الأنيقة المعلقة أمامَه مباشرة، والتي لا يمكن أن تخطئها عين.

فوْرَ جلوس دكتور «زايد» خلف مكتبه، كان يقابله في الجهة الأخرى من المكتب كلّ ما تبقى من شهادات التقدير والاحترام، التي حصل عليها منذ تخرّجه من كلية الطب في أوائل السبعينيّات حتى الآن.

كلّ هذه المكانة العلمية المرموقة التي كان يشهد له بها القاصي والدّاني، لم تشفعِ له عند «زهرة» لتعدم بعقلها الباطن فكرة أنّه كان فقيرًا معدومًا إلى الحدّ المخجل بالنسبة لها يومًا ما، كان «زايد» يرى في نفسِه المثلَ والقدوة التي تصلح لكلّ مَن له حلمٌ أكبر من إمكانيّاته بكثير، وكانت هي لا تراه سوى

عديم الأصل فقير الجذر، رغم أنّه من عائلة كبيرة جدًّا، لكنّها كمعظم حال العائلَات في الوطَن العربي، بها جانبٌ فاحشُ الثراء، وجانبٌ آخر شديدُ الفقر، وكان والد «زايد» من الجانب الأخير، عاش والدُه غريبًا عن أسرته، فقيرًا بين مجتمعه، ومات فقيرًا ليدفن في المدافن العامّة ملفوفًا في كفنٍ من تلك الأكفان التي يتبرّع بها أحدُهم لمثله من الذين لا يملكون قوتَ الحياة ولا أكفان الأموات كذلك.

لكنّ الرجل الفقير ذاك قد أنجز إنجازًا عظيمًا قبل موته، لقد أنجب ذكرًا غنيًّا بحلمه الثمين الذي حقّقه، ذكرًا قد بلغ خمسةً وستين عامًا من عمره، بعد أن قضى أكثرَ من نصفها وهو يحمل لقبَ الأستاذ الدكتور «زايد غريب».

***

عشرة أيّام مرّت على «عهد» منذ قبولها طلبَ صداقتِه، كلّ يوم كانت تفتح فيه صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك؛ أكثرَ من عشرين مرّة! هي لا تفعل شيئًا إلّا أنّها تتفحّص صورَه، وتقرأ منشوراتِه القديمة قبل أن تضع فوقَ كلّ منشور له أعجبني دون تعليق، كانت تريد الوجودَ على صفحته الشخصية منذ بداية أوّل منشورٍ بها، وحتى آخر منشور قام بنشره حديثًا.

حفظت تواريخَ أفراحه وأتْراحه عن ظهْر قلب، متى توفّيت جدته، متى حصل على "كارنيه" اتّحاد كتّاب مصر، متى قام بتغْيير سيارته لأوّل مرّة، ما نوعُ سيارته القديمة، وما نوعُ الجديدة التي يقتنيها الآن، ما اللونُ الأدبي الذي يفضّله، ما هو تاريخُ أوّل قضية كسبها في عمله الأوّل كمحامٍ، و.. ما هو تاريخُ زواجه؟!

لم يفجعْها كوْنه متزوجًا، بقدر ما امتلأت شغفًا أن تعرف تفاصيلَ تلك الزيجة منْه!

مِن غير المنطقي أن تفكّر «عهد» فيما تفكّر به الآن، لكنّه الشعور الغالب داخلها، والذي لا يمكنها أن تنكِره، هي مولَعة لأنْ تعرف منه كيف الْتقاها؟ وأين؟! ولِمَ تزوّجها؟ ومتى؟! هل أحبّها يومًا حقًّا؟! وهل ما زال يفعل حتى الآن؟! كمْ من الأولاد والبنات لديه منها؟! وكم عددُ السنوات التي جمعتْه معها؟!

كانت «عهد» تقرأ له كلّ يوم عشراتِ المنشورات الطويلة والقصيرة على حدٍّ سواء فوق حائطه الإلكتروني داخل موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، ما أنْ تنتهي من قراءةِ منشور ما حتى تضعَ له أعجبني، ثمّ تنتقل للمنشور الذي يليه، لم يبادرها «يوسف» بإرسال الرسائل الخاصة مرّة أخرى، لكنّها كانت تشعر به قريبًا جدًّا منها، وكأنّه يلفح بأنفاسه ملامحَها من خلف شاشة ذلك الحاسب الآلي أمامها، كان ينتهي اليوم وتنقضي الليلة وهي لم تشبعْ بعدُ منَ النّهل من حرفه وملامحه على حدٍّ سواء، وكأنّ في حرفه اللقمة، وفي ملمحه الماء، وهي لا تريد من هذه الحياة أكثرَ من ذلك.

"مِن الإعجابات ما يُسعد القلب"..

جملةٌ قصيرة جدًّا كتبها «يوسف» فوقَ حائط صفحته السّماوي منذ دقيقة، لتلتقطها عينا «عهد» بينما تهمّ أن تغلق حاسوبَها لتحظى ببعض النّوم فوق فراشها الوثير.

– يا إلهي ما هذا؟! هل حقًّا يقصدني بهذه العبارة؟! بالتأكيد هو قاصدي، بعد تلك الإشعارات الكثيرة التي وصلته باسمي لكلّ تلك المنشورات القديمة خاصّته.

بينما «عهد» تسأل نفسَها كلّ هذه الأسئلة بصوتٍ عالٍ، كان «يوسف» قد حسمَ أمرَه في إرسال رسالة خاصّة لها رغم أنّها لم تجبْ على رسالته الأولى، والذي أرسلها قبل عشرة أيّام من الآن.

"أستاذة «عهد»، اسمحي لي أنْ أعبر لكِ عن امتناني كوْنك قد قرأتِ لي كلّ تلك الكلمات داخل مئاتِ المنشورات في عشرة أيّام فقط، لكنْ هل لي بسؤال من فضلك؟!".

انتهتِ الرسالة، وما زالت تلك النقطة الخضراء مضاءةً بجوار اسمه، دليلًا على أنه ما زال متّصلًا رغم مرور أكثر من ساعةٍ على قراءتها لرسالته.

– يا إلهي! لقد أرسل لي هذه الرسالة فكُتِب له تمّت القراءة فورًا! ترى هل سيظنّ أنني كنت سأبادره أنا الأخرى برسالةٍ ما أمْ ماذا؟!

لم تكنْ «عهد» ترى ابتسامتَه التي أخذت طريقَها إلى شفتيه الآن إذْ أنّ حالها لم يكنْ يختلف كثيرًا عن حاله، هو أيضًا كان يفعل نفسَ الأشياء التي تفعلها، يقرأ فيعجبه ما قرأ فيعلّق، وقبل هذا كلّه كان يفعل الشيء ذاتَه الذي تفعله هي كلّ يوم ولا تدري لمَ تفعله؟! الشيء الذي أربكها الآن بعدما أرسل «يوسف» رسالتَه هذه؛ لقَد كان «يوسف» هو الآخر يقوم بفتح نافذة المحادثة الخاصّة بها مثلما تفعل هي بنافذتِه، منذ أن يفتح حاسبه المحمول وحتى يقوم بإغلاقه.

لقد كان ينتظرُها، لا ينتظر كلمةً منها..

منذ قرأ لها ذلك التعليقَ الطويل فوق الصّفحة الرسمية لرئيس الجمهورية وهي تعجبه، لقد أعجبته جرأتها وطريقة طرحِها للفكرة التي اتّفقت كثيرًا

وما في نفسه من أفكار، أشعل ذلك التعليق وما تلاه من ردودٍ داخله بينها وبين المؤيدين والمعارضين لرأيها على حدّ سواء، الفضول في نفسه لمعرفة المزيدِ عنها، فبعد أنْ أعجبته موضوعيتها في الرّد، واشتدّ إعجابه بها لما لمسه منها في قبولِ الآخر، الأمرُ الذي يتبنّاه هو في أعماله الكتابية منذ بضعة أعوام في ظلّ الغياب التّام للغة الحوار بين القوى السياسية المختلفة بعضها وبعض.

ذلك التعليقُ لها وما داخله من ردودٍ منها على المعارض والمؤيّد جعله يفطن أنّها مختلفة، فدخل إلى حائطِ حسابها على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" وهو يسأل نفسه بصوتٍ مرتفع:

– مِن أين يا تُرى تلك الفتاة المُنتقبة؟! وكيف تتّفق هذه القوة مع امرأةٍ متوشّحة مثلها؟! إن بها جرأة وذكاءً اجتماعيًّا يكْفيان لأنْ يجعلاني أنحني لاسم بلدها إجلالًا أنّ منه قد خرجت مَن هي مثلها.

«عهد إبراهيم»..

لا معلومة سوى اسمِها فوق حسابها، كلماتها تدلّ أنّها مهتمّة بالشأن العام، وآراؤها قوية ومقنعة، ردودُها الطويلة فوق معظم منشوراتها تدلّ أنّها صاحبة قضية، وأنّها تهدف إلى التوعية والتثقيف السّياسي والاجتماعي والأسري كذلك، متنوّعة صفحتُها لكنّ سمتها الغالب سياسي، بيْد أنّها تتبنى قضيةَ المرأة كذلك مثلها مثل كثيرات لكنْ في مواضع أخرى، أعجبته الفكرة كثيرًا؛ أن يكون هناك ملتزمة تهتمّ بالنساء وتتبنّى المرأة كقضيةٍ غير اللواتي يرفعن المرأةَ كشعار لحرية لا تتوافق مع سمت احترام عقلِ المرأة، ولا تتوافق حتى مع الطبيعة الحيِيَّة للمرأة العربية والشرقية قبل تلكَ المنصوص عليها في دينٍ أو تشريع.

شيء آخرُ لفتَ نظرَه في رأسها غير أفكارها وقضاياها؛ إنّها عيناها.. أو تحديدًا ذلك البريق في عينيها.

إنّه يحبّ المرأة الجميلة، ولأنّ للجمال معيارًا نسبيًّا يختلف من رجلٍ إلى آخر، فإنّ الجمال عنده كان يُختصر في عينيّ المرأة، ولا شيء قد يظهر جمال العين عند النساء أو قبحها له إلّا قطعة القماش متعدّدة الألوان تلك، والتي ما أنْ تُسدلها الأنثى فوق وجهها حتى يظهر في العين سحرها، وقد كان لـ «يوسف» تلك القدرة على تمييز المرأة الأنثى من خلف ذلك الوشاح، خاصّة الأسود منه.

لم تكنْ صور «عهد» بالكثيرة فوقَ حائطها على صفحتها الخاصّة بموقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، ولم يكنْ هو بحاجةٍ إلى الكثير منها ليتمكّن من معرفة ما يودّ معرفته، فتلك الصورة التي وضعتها «عهد» كصورةٍ شخصية كانت كافيةً لتخبره بكلّ شيء؛ قوّة شخصيتها الجذابة وبريق عينيها اللّافت قد استنفراه فأرسل إليها ذلك الطلب، والذي قبلتْه «عهد» على الفور وكأنّها كانت تنتظره، بقي أن تردّ على رسائله فإنّ به شغفًا هائلًا للتّواصل معها، هو لا يدري كيف أسكتَ شغفه داخله لمدّة عشرة أيّام كاملة ليس هذا من عادته بالمرّة.

– أظنّها سترّد هذه المرّة على هذه الرسالة، لا بدّ لها أن تفعل، فليس من المعقول أنّها لا تهتمّ، وإلّا فما بالها وتلك الإقامة الدّائمة فوق حائطي؟!

أنهى حديثَه مع نفسه، وعيناه معلقتان بنافذة المراسلة الذي أرسل إلى «عهد» عبْرها منذ ما يزيد عن السّاعتين وأكثر دون أن يأتيه منها ردّ.

نشطٌ الآن..

جُملة مؤرّقة للغاية لمَن ينتظر، هي تلقي بالمرْتقب عادةً بين فكّيّ الانتظار والأمل، فلا يملّه الأول فيفلته للنوم أو للحياة، ولا يكافئه الثاني فيصْدر من الحاسب ذلك الإشعار المنتظَر، وينهي هذا الشّعور القاتل في النّفس المؤرقة

ما أسهلَ الوصول عبْرَ تلك التّقنية الحديثة، وما أصعبَ الوصل!

لم يكنْ مجرّد تسجيل خروج من قبل «عهد» دون أن تجيبه على رسالته، لقد شعر «يوسف» بانطفاء نجم في روحه، وليس مجرّد دائرة خضراء قد تعتّمت إلى جوار اسمها داخل المحادثة، زفرَ «يوسف» زفرةَ حنق عندما ظهرت أمامه بنفس الوقت نافذةُ مراسلة جديدة تحمل اسم امرأة أخرى، ودون أن يفكّر قام بتسجيل خروج هو الآخر تاركًا تلك المرأة اللاهثة خلفه منذ عشرة أيّام دون إجابة.

فما كان منها إلّا الاتّصال فورًا على هاتفه المحمول، كان «يوسف» ينظرُ إلى الاسم الظاهر على هاتفه بفتور.. «صلاح» هكذا كان يدوّن رقمها باسم أبيها، فليس من المعقول كوْنه متزوّجًا أن يكتبها باسمها داخل جهات اتّصاله بهاتفه النقّال، وإلّا فما العمل لو أنّ تلك الهوجاء اتصلت كما تفعلُ الآن وزوجتُه إلى جواره، لتقرأ الزوجةُ اسمها.. «زهرة صلاح»...

والذي يومض ويخفتُ نصفُه فقط فوق شاشة هاتفه المحمول الآن، في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟!

***

«رسائلُ عائشة»

ظلّ هاتفي النّقال يستقبل رسائلَ التّهديد تلك بغزارة، بينما ماما «أسيل» تخفّف عن نفسي وطأها وتهدّئ من روْعي بعد ذلك الذّعر الذي اعتراني، خاصّة بعدما بدأ اسمُ «أنس» يُذكر في معظم الرّسائل الواردة مؤخّرًا.

في تلك الأثناء، تمّ تحديد موعدٍ لخطبة بنت أخت «ضياء» الكبرى، الأمرُ الذي أشعل نارًا بيني وبينه، هو يطالبني بالعفو والذّهاب معه، وأنا أستنكرُ عليه قوله، فيشتدّ النقاش بيننا، حتى أنّه قد أدخل ماما «أسيل» في الرأي، هالني رأيُ الأخيرة التي أيّدت- بشدّة- ذهابي إلى الحفل مع «ضياء»، بل وعرضتْ عليّ الذهابَ معي كذلك، لم يقع نقاشٌ بيني وبينها قبل ذلك اليوم في هذا الأمر، لذلك.. كان رأيُها مفاجأةً حقيقية لي.

فشلتْ كلّ محاولاتها على مدار أيّام في إقناعي، حتى جاء اليومُ الموعود وانتابتني في ذلك اليوم حالةٌ من البكاء بلا انقطاع، لم يستطعْ «ضياء» احتوائي كعادته، وأخذ يفرغ عليّ جام غضبه، حتى كان انهيارًا من نصيبي قبيل نزوله إلى الحفل ببضعة ساعات، الأمرُ الذي أجبره على الاتّصال بالحاجّة «أسيل» لتبقى معي حتى يعود، وقد لبّت «أسيل» طلبَه هذا على الفور.

كانت الليلة الأولى والأخيرة التي قضتْها ماما «أسيل» معي، بعدما هاتفَها «ضياء» واطمئنّ منها على حالتي، ثمّ أخبرها أنّه سيبيتُ مع والدته، وأنّه لن يعود حتى مساء اليوم التالي في موعد عودته من عمله، أنهى «ضياء» اتّصاله لتطلب «أسيل» زوجَها على هاتفه النقال وتخبره أنّها ستبيتُ معي لأنّني مريضة، وزوجي خارج البيت.

قضتْ «أسيل» أكثرَ من نصف الليل وهي نائمةٌ على مقعدٍ بجوار فراشي، حتى غلبني النعاس فنمتُ، ولمّا استيقظت في الصباح وجدتُها مسجاةً إلى جواري محتضنةً لـ «أنس» وهُما يغطّان في نومٍ عميق.

أكثر ما كان يحزنُني أسرة «ضياء» لم يتركوا بيننا شعرةً أتمسّك بهم من خلالها إلّا هذا الدم، عفوتُ عنهم وغفرتُ لهم كلّ كبائرِهم من أجل ابني

الذي هو بين شقيّ الرّحى باسم النصيب، بينما أبوه يثور في وجهي عند كلّ عودةٍ له من زيارة والديه قائلًا: "كلّ البيوت بها نفس المشاكل وأكثر، انظري إلى أبيكِ وما يفعله مع والدتك، واحمدي الله على ما أنتِ فيه، من حقّي عليكِ الطّاعة وزيارتك لأهلي ليست شركًا بالله حتى ترفضي أمري بها، مهْما فعل أهلي بكِ هُم أهلي وأنتِ زوجتي وعليكِ طاعتي، أمّ أنكِ تريدين تصويري بأنّني لست رجلًا، ولا أستطيع أن أحكم امرأتي!!".

امرأتَه!

متى كنتِ امرأتَه يا «عهد»، هل في خطبة استمرّت لثلاثة أعوام وأنا بعيدة عنه نفسيًّا، وهو لم يجيد استقراءَ ذلك قط؟! أمّ في تجاهله لفهم بعض كلماتي وتمريرها كأنّي لم أقلْها، حتى ذلك اليوم الذي باشرته فيه بعدم راحتي ورفض نفسي للاستمرار في تلك الخطبة، فما كان منه إلّا الغياب لبضعَة أيّام، فإذا بأَبي وقد قرّر معه موعدَ الزّفاف! أمّ في تلك الأيّام التي نهرني فيها وأسمعني أقذعَ الألفاظ لأنّ الأنثى داخلي استعصمت بالعنيدة ولم ترِدْ منه تلك الذّكرى، فلم يتحلّ بالصبر ولم يجتهدْ أن يخطو نحوي برفقِ الرّاغب فيّ وليس اللاهث خلفَ رغبته بلا رادعٍ وكأنّه اشتراني من أجل هذا.. وهذا فقط!

امرأته!

وماذا عنْ غربتي؟! ماذا عن عدم احتوائي؟! ماذا عن العبوس بوجهي؟! والبخل في كلّ شيء هو حقّي، حتى في مشاعره التي لم تكنْ سوى جافّة، شائكة، كلّما اقترب بحدّته نحوي ابتعدت.. وابتعدت.. وابتعدت! ماذا عن عدم مشاركتي الحياة؟! ماذا عن الصّور الخالية من وجوده؟! وماذا عن افتقاره إلى فنّ صناعة الذكريات؟!

ماذا عنه وعنّي أنا يا «عهد» بعيدًا عن أسرته وصراعاتِها معي؟!

ماذا عن هذه الحبيسة في بدنها التي تجاوره في المكان، بينما روحُها تراقص في الخيال طيفًا لرجلٍ آخر، لكن بروحٍ أحنّ، وبقلبٍ أرقّ.. في حياةٍ أخرى تغلّفها الرّحمة ويسري داخلها الودّ، فقط الودّ يا «عهد»، أليس هذا من حقّ روحي؟!

أمّ أنّه وحده له كلّ الحقوق، حتى أنّه يقول لي إذا سردتُ له مجرّد حلمٍ: "اتّقِ الله وعيشي"!.

وبينما أنا «عائشة» جسدٌ بلا روح معه؛ كانوا هُم يقولون لي: "اشتراكِ وباعَنا"

كيف يا «عهد» باعهم وهو معهم في كلّ مناسبة ويشاركهم كلّ فرحة؟!

وهُم لم يكرموه في نفسه ولا في زوجته، ولا في ولده من بعْد؟!

اتُّهمت منهم بأبشع التّهم، ولم أكنْ أحتسب فلم أكنْ حينها على قدْر إيماني الآن، كنت أموتُ مع كلّ موقف، مع كلّ طردٍ، مع كلّ اتّهام، مع كلّ قسوة وتربّص بالقول والفعل، كنت أخشى الحديث معهم حتى لا يُقتصّ حديثي ويؤوّل ويُصنع منه رداءُ سوءٍ يلبسونه لي ولبعض أيّامي، أفعالهم هي التي رخّصتهم عندي وعند «أنس» من بعد.. لكنّهم قومٌ كاذبون، أبدًا لا يقرّوا حقائق، فقط يكذبون ويصدّقون- مع الأمد- كذِبَهم.

فدوائِرُهم الممتلئة بالمنافقين، كلّما أفرزت لهم عن وجهٍ لا يقبل التلوّن لطّخوه بعار التبلِّي، وأخرجوه من ديارهم كما أُخرج من قبْل سيّدنا «لوط» ومَن اتّبعه من ديار مقترفي الكبائر.

أتدْرين ما جريرتي يا «عهد»؟!

أنّني خفتُ النّتيجة..

خفتُ على بيتي من الدّمار، وعلى ولدي من التشرّد والتّيه، وخفتُ منهم على أهلي، فإنّهم أناس لا يصلحون للعتب ولا للحساب، ليس فيهم مَن يصلح لمثلِ أبي، فكيف كنت أسمحُ لأبي العليِّ الهامة؛ أنْ يهان على أيدي مَن لا يعرفونَ الأصول؟!

إنّهم أناسٌ مصابون بداءِ «الإسقاط»..

هل تعرفين ما هو داءُ الإسقاط يا «عهد»؟!

أنْ يعرف المرءُ نفسه، فيخشى من كشف ما به أمامَ كلّ وافدٍ جديد بحياته، فلا يسلم منه كلّ مَن يتعامل معه، إذْ بداء ما فيه يرميه، ويؤوّل كلّ فعله إلى السيئ من نفسه، فتصبح كلّ إشارة إلى حقيقته مجرّد "بلاغ كيْدي" لأنّه قد سبقهم بالإشارة وجعلهم بباطلِ فعله وقوله محضَ حديثِ الناس.

أتدرينَ ما هو حديثُ الناس يا «عهد»؟!

أتدْرين المثلَ القائل: "إنّ الفضيحة ليست فعلًا، بل كلام"؟!

أتدْرين كيف يُسَوِّد الطغاة صحائفَ مَن يكشف حقائقهم؟!

إنّهم كذلك يعرفون أنّهم سيؤون، فيشغلون الناظر لهم عنهم بنفسه، حين يختلقون له المشاكل من كلّ نوع، ثمّ يقولون له: "تَلَهَّ".

لقد سئمت الكلامَ الدّارج يا «عهد»..

سئمتُ كلّ كلمات التّثبيط العقيمة، أنّ كلّ البيوت على الأسوأ مِن هذا مغلقة!

لماذا؟!

لماذا يجبُ أن أستمع إلى كلّ حكايات القهْر الأخرى، لتحصل والدتي بعد الانتهاء من حديثنا على تنهيدةِ راحة؛ أنّها قد أقنعتني أخيرًا أنّني في نِعم؟!

ومَن قال لها- ولهم- أنّني لست في نعَم، وأنّني لست شاكرةً لله عليها في كلّ وقت؟!

لستُ من النوع الشّكّاء يا «عهد»، لكن ما قيمةُ الأهل إنْ فرحنا وحدنا أو بكيْنا في صدور الأغْراب؟! ما قيمة الأمّ حين تسجّل غيابًا من واقع ابنتها لأنّ ابنتها تطالب بأبسط حقوقها؛ أنْ تحيى بسلام؟!

ليس لي أحدٌ يا «عهد» سوى «أنس»، وتلك التي كانت تحتضنه في فراشي كأقربِ إليه من أبيه وكلتا جدّتيه.. ماما «أسيل».

***

"اسمُك مكتوبٌ هنا"..

رسالةٌ جديدة من «يوسف» ببريدِ «عهد» الذي انبثق أمامَها هذه المرّة واسمُه يومض ويخفتُ أعلى مستطيل المحادثة، ضغطتْ «عهد» على الـ Link المصاحب لتلك الجُملة القصيرة أعلاه مقارنةً برسائله السابقة، ليفتح لها موقع مجلّة «البيت السعيد» المعروفة جدًّا ضمن مواقع Social Media المتنوّعة والكثيرة كذلك، والذي كان يحْوي صورتها داخل مربع صغير، يجاور صورتها من جهةِ اليسار أحد عناوين مقالاتها الطويلة عن فنّ صناعة الذكريات، وأسفل العنوان اسمُها، ثمّ المقال كما كتبته على حائطِها الشخصيّ.

أنْ تكتب على حائطك الشّخصي شيء، وأنْ ترى حرفَك منقولًا عنك شيء آخر، شعورٌ بالزهو والإعجاب سَرَى في نفس «عهد» وهي ترى حرفَها يحتلّ مساحة أخرى مختلفة عن هذه المساحة فوق حائطها الشخصي، لأوّل مرّة يخالجها هذا الشعور بالقيمة، أنّ هناك مَن يقيّم حرفها ويزنه وينتقي منه وينشرُه باسمها وصورتها، ثمّ يفاجئها بالأمر كما حدث الآن.

"آسف لأنّي نشرت دون إذْنك أستاذة «عهد»، لكن لم أستطعْ منعَ نفسي مِن فعل ذلك، وسأصْدقك القولَ فقد خشيت رفضَك، لو لم يكنْ لديك مانع أتمنّى انضمام حضرتك إلى فريق الكُتّاب بالمجلة، أرجو التّفكير أولًا قبل الرّد، أكرّر اعتذاري. يوسف".

كانت هذه ثالثَ رسائل «يوسف» إليها عبْرَ بريد حسابها على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، في كلّ مرّة يرسل إليها برسالة كان يذيّل الرسالة باسمه، لقد وردتها مئاتُ الرسائل من مئات الرّجال قبله لم يردها بينهم مَن يذيّل كلّ رسالة إليها باسمه مثلما يفعل هو، وكأنّ «يوسف» يعرف أنّ اسمه له في نفسها أثرٌ، وهو يريد التأكيد على هذا الأثر في كلّ مرّة يقوم فيها بإرسال رسالة إليها.

خلّلت «عهد» شعرَها بأصابع كفّيها العشرة ليتلاقى عند ذلك المشبك الذي تثبت به شعرَها بأعلى رأسها عادة، فأزالت المشبكَ بيمناها بينما يسراها تكملُ المسير إلى أطراف شَعْرها بارتياح، عيونٌ مطرفة وثغرٌ باسم ورغبةٌ في إسدال الشّعر فجأة فوق اسمه، شعورٌ بالراحة يسري في أوْصالها جعلها تستمرّ في تمشيط شعرها بأحدِ كفّيها في استسلام.

"أستاذة، طلبتُ من قبل أنْ أسأل حضرتك سؤالًا ولم أتلقّ ردًّا، فهل أنا متطفّل إلى هذه الدرجة، أمْ أنْ حضرتك متحفّظة أكثرَ من اللازم؟!".

أجبرها الإشعارُ الذي أصدرته رسالتُه الرابعة على أن تفتح عينيها بكسل، لتقرأ ما كتب، شيء ما داخلها يحول بين أصابعها وبين هذه الأحرف فوق لوحة المفاتيح لتجيبه، بينما تلك الأصابع تنسابُ بين خصلات شعرها ما زالت وكأنّها مخدّرة.

لطالما أسَرّت «عهد» بحديثها كلّ مَن تحادثه من النوعين، هي تجيد الحوار، ولديها حضورٌ رائعٌ يجعل مِن كلّ نقاش يقع بينها وبين بعض طارقي الخاصّ مادّةً أدبية رائعة، لطالما استخدمتها بعد انتهاء الحوار في كتابة مقالٍ طويل تهدف فيه لإثارة قضيّة ما أو لتغيير سلوكٍ ما أو تلقي فيه الضوءَ على جزءٍ مُعْتم فتنشرِح لحرفها القلوب، كثيرًا ما عمدتْ إلى تحويل حوار خاصّ إلى منشورٍ عام، هي بذلك تلوح لصاحب البريد عادةً أنّ الحوار للاستفادة وليس للتسلية أو تضييع الوقت، «عهد» بالفعل تتواصل مع الكثير من الرّجال، فلماذا هذا الفتور الذي يعتريها تجاه الرّد على «يوسف» تحديدًا؟!

– دلْوك ها هنا غيرهنّ، لا تخشي الإقبالَ على الريّ من زلال بئرِه يا «عهد»، إنّ «يوسف» في الماء لكنّه عَطِش، القليل من كفّك سيرويه حتى يعود، القليلُ فقط يا ابنتي، لا ضيرَ من القليل.

لا تدري «عهد» متى غفتْ في جلستها هذه، لكنّها تدري جيدًا أنّها كلما غفت تراها، «أمّ عائشة» صاحبة الوجْه النوراني والثّغر الباسم والصّوت الرّخيم، وكلماتها السّراجية التي تسري في عتمة الحياة فيستنار القلب وينجو من أدهميَّة بعض البشَر، ستلتزم «عهد» بنصيحتها كعادتها، ستحمل القليلَ منها وتذهب إليه ولتجري المقادير بعدُ كما تجري؛ فهي راضية بها في كلّ حال.

– لأنّك «يوسف»، ربما لن تكون هذه الإجابة شافيةً لك الآن لكنّي لن أستطيع أن أُلقّبك بغير اسمك، اسمُك وفقط مجردًّا من كلّ ألقابهم وألقابِهنّ، وما من نداءٍ قبل اسمك إلّا اسمك.

– هل تعرفينني من قبلُ يا أستاذة؟! هذا هو سؤالي الذي أردتُ طرحَه عليكِ من قبل، ولكنّك لم تجيبي على رسائلي، أشعرُ وكأنّك تعرفِيني وأعرفُك ولا أدري ماهيّة هذا الشعور أو مصدره.

– أنا «عهد إبراهيم»، أعشق الكتابةَ منذ صغري، أكتب لنفسي قبل أن يكون حرفي للناس، عمرُ حسابي الشخصي هذا سبعةُ أعوام، أعشق القراءة، عندي مشاكلُ كثيرة بحياتي لكن.. «يوسف عزيز» ليس ضمنَها.

– «يوسف عزيز» متزوّج، ولم أنجب بعْد، لم أكن كاتبًا ولا شاعرًا في صغري، لكنّي أعشقُ القراءة، كتبت استنفارًا وليس عمدًا، حتى أنّني قد تفاجأت بلقب شاعرٍ ذات يوم، عندي مشاكل كثيرة أيضًا وضعتها كلّها في مؤلفّاتي، لكن.. حضرتك لم تجيبي على سؤالي حتى الآن، هل تعرفيني من قبْل؟!

– مَن ذلك المجذوب الذي كتبت نعيَه على حائطك؟!

– هل تقصدين «صقر»؟! «صقر»؛ من أحباب الله في بلدتي، حزنت لموته كما لو كان صديقي.

– وهل كان صديقك؟!

– كنتُ أجالسه، وكان لا يجالس إلّا مَن يألفه.

– وهل أَلِفك؟!

– أعتقدُ ذلك، فلم يملّ جلستي قط، ولم أملّ جلسته كذلك.

– وجدّتك؟!

– رحمة الله عليها، هي اختارتني بعد موت جدّي للعيش معها، لم أفارقها إلّا بعدما تزوّجت، وكانت ليلة حزينة عليها رحمها الله.

– لماذا؟! «يوسف»، حدّثني عن تلك الليلة، ما الذي أحزنَ جدّتك يومَ عرسك؟!

استمرّت الكتابة بين «عهد» و«يوسف» بتلك المحادثة لساعاتٍ طويلة، حتى أنّهما قد لضما الصّباح بالمساء دون أن يبارح أحدُهما موضعَه إلّا لأداء الصلاة ثمّ يعودا للكتابة من جديد، نصفُ نهار انقضى بينهما، لم يتزحْزحا عن بعضهما إلّا تلبية لنداء الصلاة المفروضة على وعدٍ باستكمال حديثهما بعد أداء الفرض فورًا، هو يذهب إلى الصّلاة في المسجد القريب من عمله المسائي، وهي بزاويتها التي خصّصتها للصلاة فيها، نهارٌ مضى في الكتابة، ثمّ ليلٌ بأكمله ابتلعه حديثُهما عبرَ الاتصال الصوتي دون كللٍ أو ملل، كان هو من ذلك النوع القاصّ وكانت هي مستمعةً جيدة.

انتهت المحادثة بتبادل أرقام الهواتف المحمولة، والتي كانت تقريبًا متطابقة إلّا من أرقام شبكة المحْمول الثلاثة، الأمرُ الذي جعل «يوسف» يتعجّب كثيرًا، بينما «عهد» تبتسمُ لدهشته تلك في صمت، لقد تجاوزت كلّ العجب منذ بضعة أشهر، هي تعرف أنه يشبهها كثيرًا في كلّ شيء، وتعرف– أيضًا– أنّ القدر يحمل لهما معًا شيئًا ما.

لم تكنْ «عهد» تتعجّل المسير إلى المصير، لكنّ «يوسف» كان دائم الهرولة في كلّ اتجاه، طبيعة عمله ومسئولياته المتعدّدة جعلته شخصًا لاهثًا طوال

الوقت، حتى أنّ «عهد» كانت تتعجّب من حالِه هذا، فوسط كلّ هذا اللّهث اليومي متى.. وأين.. وكيف كان يطلّ الكاتب من داخله على أوراقه؟! متى كان يحتضن قلمَه؟! ومتى كتب «يوسف» كلّ هذه الكتب وتلك الدواوين الشّعرية؟!

***

"كان تعارفًا طويلًا نوعًا ما، لكنّه كان فريدًا من نوعه، أتعرفين؟! إنّ هذه هي المرّة الأولى التي أقبع فيها داخل محادثةٍ كلّ هذا الوقت، ماذا فعلتِ بي يا «عهد»؟! بالله عليكِ أخبريني ماذا فعلتِ بي؟!".

تركَ لها «يوسف» تلك الرسالة بعدما أغلقت اتّصالها معه مباشرة، لكنّ «عهد» عمدت تسجيل الخروج فوْر غلقها للاتّصال، كانت بحاجةٍ إلى استيعاب الأمر وتقييم هذه المحادثة الطويلة، لذا فما أنْ أنهت الاتّصال حتى خرجت فورًا من متصفح "فيسبوك"، وأغلقت حاسوبها وأخذت تراجع كلّ تلك الحكايات التي قصّها عليها «يوسف».

جدّي- رحمة الله عليه- كان رجلًا ثريًّا جدًّا، لكنّه تزوّج امرأة أخرى غير جدتي، كانت أصغر وأجملَ، واستطاعت أن تسحب البساط من أسفل أقدام جدّتي- رحمة الله عليها-، أنجبت الزوجة الجديدةُ من جدّي أربعة ذكور وثلاثة إناث، وأقنعت جدّي بكتابة كلّ أملاكه باسمها، وبعد وفاة جدّي طالب عمّي الشقيق أبي بمساندته في الوقوف بوجهِ زوجة جدّي الجديدة وأعمامي منها، لكن أبي أبَى أنْ يفعل، أبَى أن يتناقل الناس أنّ عائلته تتقاتل من أجل الميراث، وترَك لهم كلّ شيء وعملَ مزارعًا أجيرًا كعملٍ إضافي لسنواتٍ طوال.

كلّ تلك السنين كنّا مجرّد ضيوف في بيت جدّي لأمّي، حتى مات الأخير وترك البيت لأمّي، كانت أمّي البنت الوحيدة بين ثمانية ذكور، جميعهم مستقرّون ولهم بيوتهم الخاصّة، فلم يكن تقبلهم للأمر على مضض، بل رحّبوا جميعهم بالفكرة خاصّة أنّ أبي كان شديد الاحترام لأمّي، الأمر الذي جعل من اسمه نصيبًا عندهم، فقد كان عزيزًا وهو «عزيز».

بعد تسوية أبي لمعاشِه من تلك الوظيفة الحكومية التي كان يعمل بها، قرّرت أن أقوم بهدم البيت وإعادة بنائه من جديد، لم يكن الأمر بالسّهل على أبي لكنّي كنت استخرتُ الله، ومِن ثمّ توكلت عليه، وبالفعل دبّر الله الأمر، وقمتُ ببناء البيت في وقتٍ وجيز، بينما كنت غارقًا حتى أذناي في ترميم ما أفسده جدّي، كان أعمامي وأبناؤهم يسافرون لقضاء العطلات الرسميّة هنا وهناك.

حفرَ أبي في الصّخر بأظافره حتى أتممت دراستي ثمّ أخي فأختي، كنّا خمسة أفراد ولم أدرِ أنّ الدجاجة مقسّمة لأربع، لم يكنْ لأمّي منها نصيبٌ إلّا بعدما تزوّجتُ وأخبرتني زوجتي بالسّر، مهنتي كمحام أجبرت أعمامي غير الأشِقاء على التّعامل معي، خاصّة مع إصراري على إثبات ميراث أبي بالقانون، ورغم لؤمهم الذي ورثوه عن والدتهم، إلّا أنّني تركتهم يقتربون منّي كما يحلو لهم، وكما يحلو لي أيضًا، ففكرة العيش دونَ أهل فكرةٌ قاتلة لمثلي، لكنْ بالنسبة لأخي وأختي وأبي الأمران سيَان، وإنْ كان ثلاثتهم دائمي العتْب لي من فرْط تعاملي مع الجميع.

لم يكنْ «يوسف» يصمت- ولو لبرهة- وهو يقصّ عليها حياته، ولم تشرد «عهد»- ولو للحظة- وهي تسمعه، كانت ترى نفسَها إلى جواره وهو يحكي

كلّ تلك التفاصيل الدقيقة عن حياته، وكأنّه نجحَ بطريقته السّردية الرائعة التي يجيدها ككاتب، أو ربما هي ما جعلت منه كاتبًا؛ أن يدخلها بشكلٍ ما في حياته، فحوّلها في ثوانٍ لطيْفٍ خفيّ يعايش معه ماضيه، فرحتْ في مواضع فرحِه وتألّمت في مواضع ألمِه، حتى أنّها ظلّت عالقة في حياته بعد إنهائها تلك المكالمة الأخيرة معه.

صعدتْ معه درجات السلّم الجامعي بالقاهرة، جلست إلى جواره في مدرج كلِّيته، كأنّ «يوسف» صار جارًا لها فجأة، تخرج معه من بلدتها عند بداية كلّ أسبوع، ثمّ تعود معه بنفس القطار كجارةٍ له في مقعده كذلك، دائم الثّرثرة هو، وهي دائمةُ الابتسام، كانت تبتسم بسعادةٍ حقيقيّة وهي تستمع إليه، كانت تسعدها تعليقاتُه الدائمة على الضّيِّق أو المُلفِت من ملابسها، وكانت تضحكها إشاراته التّمثيلية الرائعة عن قِصَر طرحتها التي تضعُها على رأسها، لم يكنْ يضيق عليها الحياة بأسلوبٍ فجّ وجافّ، بل كان ينهاها ويأمرُها بطريقةٍ هزليّة رائعة ثمّ ينهي لقطته الاعتراضية التي كان يرتجلُها في ثوانٍ، بجُملة قصيرة جدًّا "أثقُ بكِ يا «عهد» لكنّي أغار».

استيقظتْ «عهد» من نومها وهي تبتسمُ لهذا الحلم الجميل، لأوّل مرّة يراودها مثله حلم، كلّ أحلامها كانت حكرًا على وجه «أمّ عائشة» وكلماتُها المنيرة التي تشبه وجهَها الصّبوح.

– أراكِ انجذبتِ لـ «يوسف» حدَّ تطويع الأحلام يا «عهد».

– ومَن يمكنه تطويع الأحلام يا خالة، ثمّ أنّه حديثنا الأوّل، وربّما الأخير؛ فقد قال الكثير وقلت الكثير، ولم يعد هناك ما يُقال بعد.

– لقد أنهيتُما حديثَكما عن الماضي يا ابنتي، ما زال هناك حاضرٌ لم يُعَش، ومستقبلٌ مرهون بإرادة مَن جمعكما.

التفتتْ «عهد» باتّجاه صوت «أمّ عائشة» الذي كان ينبعثُ كالعادة من خلفها، لتجد العجوز تقف كعادتها قربَ باب غرفتها وهي شبه متّكئة على مقبضِ الباب، وخلفها الكثيرُ من النور، ثمّ قالت:

– حدّثيني عن أرض اللقاء يا خالة.

– إنّها بين حَرَم وحرام، وشتّان بين مَن يدخل المحراب على طهرٍ يبغي «الصّلة والقيام»، وبين مَن يراها ثرى؛ فيتيمّم منها حتى يجدَ الماء.

– وهل أحلامنا دليلٌ على ما في نفوسنا، أمّ أنّ بعضها أضغاث أحلام؟!

– هل تقصدين بذلك ذاك الحرم الجامعيّ الذي كنتِ معه فيه منذ قليل؟!

ابتسمتْ «عهد» لمقولتها وطريقتِها المداعبة التي نطقتها بها، ثمّ أومأت برأسِها وهي تطرق برأسها خجلًا.

– قلتُ لكِ يا «عهد» أنّ اللقاء بين (حَرَم) وأظنّ أنّ لقاءك به في رؤياك قد أخبرك عن نفسك ونفسه شيئًا، وأيضًا قلتُ لكِ إنّ بعض اللقاء.. (حرام).

قالت «أمّ عائشة» كلمتَها الأخيرة وهي تلتفت إلى حيثُ يقبع الحاسب الآلي فوق مكتبِ «عهد» ثمّ أردفت:

– حُلْمك كافٍ أن يوضّئه، وحِلْمك كافٍ أن يغيّره، فهو بين نفس الغواية ونفس البداية، لكن خطاه مرتعشة وصراطَه مجدولٌ من الهوى، لا تدعيه يَهْوِي وإلّا ستهوي معه، انفضي عنكِ غضب الحليمة حين تهبّ رياح الحقيقة، وارفعي السّتُر وأبقِي على السّتْر.. والسرّ يا «عهد» فهو «يوسُفُك» وأنتِ درّته.

قبضتْ «عهد» أصابع يدِها اليمنى ببطء بعدما شعرت بألم بها أيقظَها من حلمها الثاني، فتحت عينيْها بصعوبة وهي تحاول أن تعيدَ فتَح كفّها من جديد، لتجد نصفَ جسدها مسجًّى فوق مكتبها بإرهاق، بينما تصدر من حاسبها نغمةُ اتّصال صوتي طويلة، أسكتتْها «عهد» بإزاحةِ ذلك الإطار الذي كان يتوسّط شاشة الحاسب وصفحة فيسبوك الخاصّة بها كذلك، كان المتّصل «يوسف»، وكانت هي تحاول استرجاعَ تفاصيل حلمها الأخير بكلّ تركيزها.

"«عهد»، ماذا فعلتِ بي؟! ظللت مستيقظًا الليل كلَّه أفكّر بك، لم أنمْ ليلة أمس إلّا للحظات فقط، لأجدَك في تلك اللحظات حيّة في أحلامي، كيف لَمن لمْ يرَكِ أن يراكِ ويعرفَك؟! كنتِ أنتِ «عهد» وقد فعلتِ بي الأفاعيل، كانت ليلة زفافنا ولم أكنْ فيها سوى مجرّد مفعول به، لا يهمّ إن لم تفهمي كلامي الآن ولا بعْد، لكنّي صادق فيما رأيت، وصادقٌ فيما أقول، ربّما تريني الآن وقحًا أو مدعيًا، لكن منذُ متى يتجمّل المرء أمام نفسه، لم تكنْ ليلة أمس إلّا فاصلة كبيرة في حياتي، ولا أملك العمرَ الكافي للتجمّل أو إخفاء شعوري خوفًا من فهمك الخاطئ لي، أشعر أنكِ منّي ولا أستطيع تجاوزَ ما بي مقابل مخاوفي من ردودِ أفعالك، افعلي ما شئتِ وسأقول ما بي.. «يوسف»".

رسالةٌ طويلة مبتدأها «عهد» وختامُها «يوسف»، رسالةٌ مخالفة لما رأته عليه في حلمها، رسالة سريعة سبقتها رسائلُ في حلمين كان هو بطلًا في كليهما، إمّا بجميل الحلول، أو بالحديث عنه مع الشّفيفة «أمّ عائشة».

«إنّي بحاجةٍ إلى الفهم»

لم تكنْ هذه الجملة رسالةً منها إليه، بل كانت عنوانًا كتبت أسفله مقالًا طويلًا، طرحت به كلّ مخاوفها بشكلٍ فلسفي في قصّة قصيرة، تركت «عهد»

نهاية تلك القصّة مفتوحة كعادتها، فهي مؤمنةٌ أنّ نقطة النهاية عند النهايات القطعية جريمةٌ بحقّ ناموس الحياة، كلّ الحَيَوات فصول، وكلّ فصلٍ هو مسبوقٌ بفصلٍ ومتبوع بآخر.

"نحنُ لا نشعر بالبداية الحقيقيّة لموعد تغيير الطّقس، نحن عادة ما نغفو على حالٍ فنستيقظ على آخر، وهذا الآخر ليس موجودًا في الرّسائل المباشرة من الشخص عن نفسه، بل هو في كلّ موجودٍ غير مقصود، في الأبواب المردودة بين المرْء وسواه، في المواقف والقرارات، في رحيلنا عن هذا أو بقائنا مع ذَاك، وفي الصّمت أحيانًا وطول المشاهدة.

لِنرَ.."

***

كلّ ساعة رسالة توسّلية منه، يطالبها فيها «يوسف» بحقّه في معرفة سرّ هذه القطيعة من جهتها، لا تدري «عهد» إذا كان سيملّ من إرسال تلك الرسائل لها أمّ سيستمرّ إلى أجلٍ هو لا يعرف مداه؟! لا يهمّها أن يرى- أو يعرف- ما بها بعد تلك الرسائل منه التي لا تتوقّف ليل نهار، لم تكن رسائلُه هي كلّ ما يثير حفيظة «عهد» تجاهَه، لقد كانت هي وشعورُها تجاهِه، وكأنّها تنزلق في هوّة ما جذبًا دون أدنى إرادةٍ منها، لا تدري هي شيئًا عن تلك الهوّة المسمّاة بـ «يوسف»، إلّا ما ينطق هو به عن نفسه في عالم الافتراض هذا.

«فيسبوك»..

بقعةٌ زرقاء باتّساع كرةٍ أرضية كاملة، يرتفع منسوبُ الوافدين إليها كلّ ساعة بنسبٍ مهولة، مربحة جدًّا هي تلك النّسب لمخترع هذا العالم الأزرق،

«مارك زوكربيرغ»؛ مواليد ١٤ مايو من سنة ١٩٨٤م، رجلُ أعمال ومُبرمج أميركي، ولد في وايت بلينس، نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية، اشتهر «مارك» بتأسيسه موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك"، وهو أكبر موقع تواصلٍ اجتماعي في العالم، أنشأ «مارك» الموقعَ مع زملائه في قسم علوم الحاسبِ «داستن موسكوفيتز» و «كريس هيوز» وهُم في جامعة (هارفارد)، ليصبح «مارك» فيما بعد هو الرئيس التنفيذي لموقع التواصل الاجتماعي الشهير «فيسبوك».

هذا ما يعرفُه عنه معظم قاطني تلك البقعة الافتراضية الشاسعة، وقليلٌ هُم أصحاب الفضول الذين يأخذهم عمقُ التفكير لمعرفة مَن هو صاحب الفكرة ومنفّذها.

أبوان من أصلٍ يهودي يعيشان بمدينة نيويورك الأمريكية، أبوه «ادوارد زوكربيرج» كان طبيبًا للأسنان، وأمّه «كارين» طبيبة نفسية، وله ثلاثة أخوات «راندي»، «دونا»، و«آريال»، قيل في «مارك» أنّه ملحدٌ، لكنّه صرّح عبر ردٍّ على أحد التعليقات أنّه ليس ملحدًا، ويعتقد أنّ الدين مهمٌّ جدًّا، ولم يزدْ على ذلك.

تطوّرت اهتمامات مارك بالكمبيوتر سريعًا، فهو مبرمج كمبيوتر منذ طفولته المبكرة، برعَ «مارك» في تطوير وسائل الاتّصال والألعاب، حيث قام بتطوير العديد من الألعاب والبرامج، كان أوّلها برنامج للتّواصل سماه (Zucknet) وهو في سنّ الثانية عشرة، والذي قام والده باستخدامه في العيادة الخاصّة به؛ بحيث تستطيع المُمرضة التواصل مع أبيه الطبيب بدون الحاجة لأنْ تقوم بزيارة غرفته لإعْلامه بوجود مريض في غرفة الانتظار، واستخدمت العائلة نفسَ البرنامج للتواصل بين أفرادها في المنزل!

بدأ «مارك» البرمجةَ عندما كان في المرحلة الإعدادية، بينما كان يحضر بأكاديميّة (فيليبس اكستر) في المدرسة الثانوية، بنى برنامجًا لمساعدة العاملين في مكتب الاتّصال، ونسخة من لعبة الأخطار، كما بنى مشغّل موسيقى يدعى الوصلة العصبية (بالإنجليزية: Synapse)؛ التي تستخدم الذّكاء الاصطناعي لمعرفة عادات المُستخدم في الاستماع وتوفير مقترحات مماثلة له، حاولت (مايكروسوفت) و(إيه أو إل) أنْ تشتري الوصْلة العصبية كبراءة اختراع، وعرضت أن توظّف «زوكربيرج» لديها، ولكنّه رفض وفضّل تحميلها بالمجّان قبل أن يقرّر الالتحاق بجامعة (هارفارد) الشهيرة.

عندما لاحظَ والد مارك شغفَ ابنه بالكمبيوتر، قام بجلْب أستاذ خصوصيّ لـ «مارك» ليأتي مرّة في الأسبوع لتعليم ابنه وتطوير موهبتِه، قال «ديڤيد نيومان» معلّم «مارك» الخصوصي هذا لأحدِ المحرّرين مؤخّرًا:

– "كان من الصعب البقاءُ مع هذا الطّفل العبقري وتعليمه، كوْنه منذ طفولته كان سباقًا دائمًا للأشياء التي أردت تلقينه إيّاها، الأمرُ الذي أشعرني بأنّني ليس لديّ ما أعطيه له فرَحَلت".

طفلٌ خجول لا يجيد الحديثَ بطلاقة، لكنّه كان مخترعًا منذ عقده الأوّل، لم يكن منشغلًا باهتمامات الأطفال في عمره، كلّ ما كان يشغله هو تركُ أثره الخاصّ في الكون من حوله، بدأ ذلك الأثر بتطوير بعضِ الألعاب والبرامج الموجودة بالفعل، حتى حدّد لنفسه هدفًا وكرّس له بعضَ الوقت، أن يريح أباه من صعود السلم المتكرّر على مدار يومه وليلته، كان أبوه كلّما أراد شيئًا صعد بنفسه من عيادته بالدّور الأرضي من نفس المنزل ليأخذه فيعود لعمله من جديد، فكان والدُه هو أولَ مَن استخدم ذلك البرنامج (Zucknet) الذي

أسّسه «مارك» من أجل راحة والده بالأساس، ثمّ توالت براءاتُ الاختراع بعد ذلك حتى سجّل «مارك» خمسين براءة اختراع في البرْمجة باسمه، ليتحوّل في عمرٍ قصير من مجرّد شخص ميسورِ الحال إلَى رأس قائمة أغنى عشرةِ رجالٍ في العالم، ليصير «مارك» في وقتٍ وجيز حديث كلّ الصحف العالمية كأصغر ملياردير بالعالم!

بينما بعضُ نُظرائه في العمر في بلداننا العربية أقصى ما يشغلهم الحصولُ على امرأة!

وهل «عهد» امرأةٌ سهلةُ المنال وإنْ أصيبت بمسّ العشق؟!

مِن المستحيل على مثلها الانقيادُ خلف شعورها الذي لا علاقةَ له بكلمات «يوسف» المعسولة هذه في رسائله، ربّما هي قد عرفته لكنْ بقي عليه أن يعرفها هو أيضًا، وحتى يعرفها يجب أنْ تنزلق إلى بئره، وتتحسّس ريحه دون أن يشعر بها، صفحتُه على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" هي دليلها إليه، كانت هي أولَ خيطٍ رفيع ربط بينها وبينه، وستكون هي نقطة البداية لمعرفة من هو.. «يوسف عزيز»؟!

***

في الواقع، لا تخطئ المرأة امرأة أخرى علقت بها بعض روائح رجُلِها الذي تعشقه أو بعض قلبِه، ليس بالضرورة أن تعرفَها، يكفي أن تراها ولو مرّة واحدة تنظر فيها إلى عينيها، لترى صورة رجُلِها معكوسة فوق مقلتيْها وكأنّها جزءٌ منها، يكفي أنّها تعرفه هو لتراه فيها وتعرف روائحَه الخاصّة التي إنْ تسرّبت لأنفِ قطّة لميّزتها.

أمّا في عالم الافتراض، فكلّ شيء صار بالمتابعة يكفي للغرض، في عالم الافتراض من السّهل أنْ يعرف المرء ما يريد معرفتَه عن شخص بعينه لو أنّه يملك وقتَ الفراغ وتلك الرغبة في التتبّع والوصول، وقد كانت «زهرة» تمتلك تلك الأشياء وأكثر، حين يتعلّق الأمر بـ«يوسف» فإنّها تتفرّغ له حتى تصل إلى ما تريد معرفته عنه وليس منه، أربعة أشهر و«يوسف» لا يمنحها إلّا القليل من وقته فقط، اتّصال صباحي وآخر مسائي يملؤه عتبها وبعضُ حنقه وشيء من محاولاته لاسترضائِها، لكنْ كيف لـ«زهرته» أن ترضى بالبعض من كلّ شيء بعد أنْ كان يمنحها كلّه؟!

كلّما ظهرت على حائط «يوسف» أنثى جديدة كانت أحقادُ «زهرة» تصعد فورًا إلى حائطها الإلكتروني، فلا تنفكّ تنشر المنشور تلوَ الآخر فتخرج الكلماتُ مغموسةً بكلّ غضبها وحنقها وغيرتها وحاجتها كذلك، بينما «يوسف» كان يكتفي بوضع أعجبني وجُملة واحدة قلّما يَضعها كتعليق فوق منشوراتها جُملة مكرّرة على قلّتها، لكنّه كان يضعها كإثباتٍ على عدم تقصيره.

"ليس دائما"..

كان يكتفي بتلك الجُملة كنفيٍّ لما تكتبه من وصفٍ له ولفعله معها مؤخّرًا، قبل أن تذيل منشورها بهاشتاجيّ.. مقصودة.. وزوجتك.

مقصودة..

كلمةٌ صارت معتادةً على حوائط الكثيرين في مواقع التواصل الاجتماعي المتعددة، بينما الكلمة واحدة إلّا أنّها كانت تتأرجح بين معانٍ عديدة، فمنهم مَن يضعها في المطلق للسّخرية، ومنهم من يضعها ألمًا لا يملك صاحبه إلّا

هو لينفث به عن كبْت روحه، ومنهم مَن يضعها كبلاغ كيديّ لا يملك كاتبُه من المقصود به إلّا حائطه والكلمة لعلّ المقصود يقرأ فيتعاطَف، و«زهرة» كانت تتنقل بكلماتها بين كلّ معاني كلمة مقصودة وكأنّها تترنّح بما فيها ولا تملك البوح به إلّا فوق جدارها الافتراضي فقط.

كانت تعرف أنّ لـ«يوسف» نزواتٍ متكرّرة، لقد حفظت كلّ أسمائهنّ الافتراضية على موقع التواصل الاجتماعي "فيسبوك" عن ظهْر قلب، كلّ أنثى ظهرت فوق حائطه تابعتها، حتى تختفي بعدَها ببضعة أشهر فجأة كما ظهرت فجأة، لكنّ «يوسف» لم يهملها قطّ رغم تعدّد علاقاته التي كانت تعرفها جيدًا، لم تكنْ معرفتها لتلك النّزوات بالأمر الصعب عليها، فإنشاء حساب جديد لا يتطلّب منها سوى دقائق، ثمّ تُفعِّل فيه المتابَعة لـ«يوسف» فقط، قبل أن تُفعِّل بعد ذلك كلّ مميّزات فيسبوك التي تمكّنها من رؤية كلّ تحرّكاته داخل ذلك البئر الأزرق السحيق.

كلّ تعليق له كانت تراه، كلّ إعجاب، كلّ متابعة، وكلّ تتبّع!

لقد تابعَ «يوسف» خلال السنوات الأربعة التي عرفته فيها الكثيرَ والكثيرَ من النساء، كان هناك عاملٌ مشترك بينهنّ جميعًا، عاملٌ لم تخطئ «زهرة» ملاحظته منذ أوّل تغيير طرأ على «يوسف» بعد معرفتها ببضعة أشهر فقط، عندما قلّت اتّصالاته وقلّ اهتمامه، رغم أنّه لم يمرّر يومًا لم يحادثها أو يهاتفها فيه، إلّا أنّها استشعرت فتوره وأيقنت منذَها أنّ هناك دائمًا أخرى!

حينها قرّرت أن تنشئ حسابًا جديدًا وتتابعه منْه هو فقط، لتجد أنّ كلّ مَن يقوم بمتابعتِهنّ أو إرسال طلب صداقة لهنّ كُنّ مُنتقبات، الأمرُ الذي جعلها تتوجّس خِيفة كلّما ظهر تعليقٌ ما لمنتقبة جديدةٍ فوق حائطه.

– هذه المرأة مختلفة في كلّ شيء.

تمتمتْ «زهرة» بتلك الجُملة لنفسها بعد أنْ أدركت ذلك تمامًا، متابعتها له من حساب آخر أخبرتها بكلّ شيء عنها، تلك المرأة لم تسجّل حضورًا بعد على حائطه إلّا بالكثير من الإعجابات فوق منشوراته القديمة، هذه المرّة «يوسف عزيز» قد هجرها وأهملها تمامًا، وذهب كلّه إلى حائطها هي.. «عهد إبراهيم».

لقد امتلأت إشعارات حسابها الوهْمي الذي تتابعه منه باسمه مقرونًا باسمها، إذ امتلأت فجأة كلّ صفحتها الرئيسية بمنشوراتها مسبوقةً بسطرٍ قاتلٍ فوقها.. لقد علّق «يوسف» على هذا، فتحرّك «زهرة» مؤشّر الحاسبِ إلى المنشور لتجد تعليقَ حبيبها فوق منشورٍ لـ«عهد إبراهيم»!

– «يوسف» يعلق! إنّ عدد تعليقاته على كلّ منشوراتي منذ أربعة أعوام حتى الآن لو قمت بعَدّها لن تتعدّى أصابع اليدين! ثمّ إنّني أعرفه منذ سنوات لم أرَه يعلّق على كلّ منشور مرّة واثنيْن وثلاثة بهذا الشّكل؟! مَن «عهد» هذه يا تُرى حتى تنطق ذلك الشّحيح على حائطها؟!

متابعتُها لـ «عهد» أيقظت ماردًا مختلفًا بنفس الأخيرة، ماردٌ لا يحتاج إلى متابعتها لتعرفَ مَن هي وما علاقتها بيوسف؛ فإنّ لـ«يوسف» حلولًا لا يمكنها تجاوزه، وإن حلّ في امرأةٍ سواها سوف يخبرها حدسُها بأمر تلك المرأة دون جهدٍ منها، وإنّ اسم «زهرة» رغم أنّه قد تكرّر كثيرًا في التّعليقات لديه، الأمرُ الذي كان يعدْ عاديًّا في حال الناظر العاديّ، إلّا أنّ متابعتها الآن قد أكّدت لها ما سبق ووقرَ بنفسها تجاهها، والذي مِن المستحيل أن يكون محضَ ظنّ، فهناك الكثيراتُ بالفعل فوق حائطه إلّا أنّ هذا الشعور قد اعتراها تجاه «زهرة» تحديدًا من بينهن جميعًا.

– أمَا وقد دسّ نفسه في رحالك، وأمَا أنّها تراه صولجانَها، وأمّا أنّها قد فتّشت عنه فوَجَدته فيكِ، وأمّا وقد آنَ أوان التفاضل، فلا تكوني في كرم «العزيز»، ضعْ رأسيْهما معًا بمقصلة العشق، مَن يعترف اعْتقيه، ومَن يكابر اسْبيه، وأظنّ «يوسف» سيكابر.. وسيُسبى.

كلماتُ «أمّ عائشة» تلك جعلتْها ترفع ذاك الحظرَ عن هاتف «يوسف» النقّال، فقد سبق ووضعتْه في القائمة السوداء بهاتفها منذ حذرته بريديًّا، بألّا يتّصل بها دون إذنٍ مُسبق منها، قبل أن تتجاهل رسائله لمدّة أربعة أشهر كاملة، قائمتها السّوداء ممتلئة برقمِه الذي يسجّل اتصالًا كلّ ساعة تقريبًا، ومع أوّل رسالةٍ بريديّة منه تصلها منذ بضعة أشهر كتبت «عهد» له فورًا:

– اتّصل.

كادَ لا يصدّق أمرَها له بالاتصال الهاتفيّ؛ فهي لم تحادثه منذ تلك المحادثة الطويلة بينهما سوى مرّتين فقط، وفي كلّ مرّة كانت تُقدم على الحديث من أجل إخباره بألّا يتّصل عليها هاتفيًّا إلّا إذا سمحتْ له، وها هي الآن تأمرُه بكلمة واحدة (اتّصل)، ليتّصل فورًا تلبيةً لذلك الأمر.

أنهتْ «عهد» القطيعةَ التي طالت بينها وبينه لمدّة أربعة أشهر دونَ سبب سوى أنّها رغبت في ذلك، بتلك المكالمة القصيرة التي لم تتعدّ سوى بضع دقائق، أخبرته فيها عن حاجتها لصديق مقرّب تحكي له بعضَ ما يثقل كاهلها، دون قيودِ بقاءٍ أو عهود إخاء، أو إلزام يقيّد هو به حريّتها، فقط فضاء يحلّقا فيه متى اجتمعا، وإلّا فهي إلى عالمها وهو إلى عالمه، ثمّ أنْهت الاتّصال وعادت إلى الصّمت من جديد، لكنّ هذه المرّة لمدّةٍ أقصر من أربعة أشهر بكثير، بكثيرٍ جدًّا.

ليس أقسى على عاشقٍ إلّا أن يكون مجبورًا على القبض على بعض العقل في حضرةِ مَن يحبّ، وليسَ أعتى مِن امرأةٍ أبقت على عقلها في قبضةٍ وقلبِها في أخرى، وتركت روحَها تتأرجح بين بعضٍ مِن هذا وبعضٍ من ذاك دون إفلات، فتارةً تكبح جماحَ ميْلها حتى تكاد تنقسم، وتارة تودّ لَو يختفي اللجام مِن يمناها ساعة تلتحم فيها، وكلها، وتصبح مرّة واحدةً واحدًا صحيحًا.

و«يوسف» يجلس على الحافّة يلقي هونًا بمغرياتِه إلى «عهد» وهو ينتظر بلوغَها تلك الساعة، حتى يرفع سنّارته بصيده الثمين.

كلّ يومٍ يرسل لها على بريدها الإلكتروني الكثيرَ من الصور، كان أجملها تلك الصورة الصباحية التي تحوي فنجانًا من القهوة، وورقةً تجاور الفنجان فوقَها بضعةُ كلماتٍ بخطّ يده.. "صباح الخير يا ملكة الإحساس، أنا مَن أعددت لكِ قهوتَك، وأنا مَن أتمنّى أن ألقي بصوتي أحرفك، فاكتبي وتألّقي وحلّقي، واجعلي لي من حرفِك نصيبًا.. «يوسف»".

بينما كان «يوسف» يغزل مِن الكلمات هنا وهناك شِباكًا ليطوِّق بها خصرَ «عهد»، كانت «زهرة» فوق حائطها تسبّه تارة، وتارةً أخرى تستجديه، وتاراتٍ تستعيد ذكرياتها معه، حتى تلك الذّكريات بين زوجٍ وزوجه، والتي لا تصلح للكتابة ولا للتّدوين من رقيبٍ أو عتيد فيذهبان، كانت هي تسردها على حائطها ليكتبها عتيدٌ من جديد في صحيفتها مرّة أخرى وكأنّ مرّة واحدة لم تكفِها، فلم تكنْ «زهرة» زوجته كما تدّعي بمنشوراتها، أو كما أوْهمها هو في المحادثة بينهما فتوهّمت.

منشوراتُها ذاتُها التي تنشرها الآن فوقَ حائطها وهي قاصدته، هي ما قد سبق وشجّعته حين قرأها هو الآخر ضمنَ كثيرين على الحديث معها، ما زال

يتذكّر هو بدايته معها من منظوره، وما زالت هي تظنّ أنّها استطاعت أن تجعله البادئ دون أن يشعر، متناسيةً بأوْهامها تلك أنّه رجلٌ شرقيّ، ومن المستحيل أن يحترمَ مثله امرأةً تساهلت معه مثلما فعلتْ هي، وإن كانت تظهر له الكثيرَ والكثيرَ من التمنّع.

وفي النّساء شتّان بين الرّفض والتمنّع!

***

أوّلُ شيء جذبه لحسابها المقترح ضمنَ مقترحات الصّداقة بجانب حائطه الأيسر، كان تلك الصّورة التي وضعتها لنفسها بذلك الوشاح على حائطها، الشيء الذي يستنفر فضوله لدخول أي حساب مقترح مهْما كان اسمه، من أجل مثلها صورة ليلقي نظرة.. أو يطيل النظر.

لم تطلْ نظرتُه إلى صورتها إذْ لم تكن من ذلك النوع الجاذب له، لكنّه التقط في عينيها شيئًا آخر غير السّحر الذي يكتفي أحيانًا بتأمّله مع قليل الحديث، إنّ ما اكتشفه «يوسف» بعينيّ «زهرة» هو حاجتُها هي وكأنّ في عينَيها عطشًا يتراءى للناظرين وكأنّها قد كتبت بين عينيها.. "هَيْت لك".

حائطُها الممتلئ عن آخره بمنشورات الاسْتجداء والعواء لزوجها البعيدِ عنها كما هو ظاهر، جعله يدركُ حجم حاجتها العاطفيّة الجياشة، الأمرُ الذي جعله لا يرسل إليها طلبَ صداقة، بل راهن نفسَه أنّ مجرّد ظهوره ببعض الإعجابات على صفحتها كافٍ حتى ترسل هي ذلك الطلب إليه.

رسالةٌ تقليدية أرسلتها «زهرة» إليه تشكرُه فيها على قبول طلبها لصداقته..

"«زهرة صلاح» مخرجة بالتلفزيون المصري بصعيد مصر، متزوّجة من الدكتور «زايد غريب» مالك المستشفى الشّهير بمحافظة المنيا، والمعروف باسم مستشفى «زايد غريب» لجراحات القلب المفتوح، ولديّ منه ولدان وبنت.. أنرْتَ حسابي المتواضع يا سيادةَ الكاتب المُحترم".

"أهلًا وسهلًا أستاذة «زهرة»، الحساب مُضاء بعينيّ صاحبته الجميلة، جَمال عينيْكِ طاغٍ يا سيّدتي رغمَ ذلك الحزن الذي يسدل فوقهما ستائرَه، يبدو أنّك تتحمّلين عبئا ثقيلًا جدًّا، إنْ لم يكن لديكِ مانعٌ فلتعْتبريني أخًا لكِ متى أردتِ الحديثَ، فكلّي آذانٌ صاغية، وبالمناسبة فأنا صاحبُ باب (افتحي قلبك) بمجلّة «البيت السعيد» الأسبوعية، ولديّ خبرة جيدة في استيعاب المشكلات وطرح حلول لها كذلك".

لم يكنْ «يوسف» بحاجةٍ إلى تقديم نفسِه إليها بعد أن تركها تتعرّف عليه من حائطه قبل أن ترسل إليه طلبَ الصداقة، كما لم يكنْ بحاجةٍ كذلك إلى كلّ هذا الكلام الذي أرسله لتثق «زهرة» به، هي تريد الحديثَ غالبًا، لديها الكثيرُ والكثيرُ من الكلام تودّ قوله، ما أنْ أنهى هو كلماتِه تلك، حتى بدأتْ هي في سرد الكثيرِ عنها بالفعل.

أهمّ ما تصدّر حديثَها معه، كانت يوميّاتها مع أمّها التي كانت تغالبها الشكوى فيها، إذ كانت تشكو له كيف أنّ أمّها قد نازعتها السّيادة في منزلها بإقامتها الدّائمة معها فيه، قصّت له كيف تتدخل بينها وبين زوجها وبينها وبين أولادها فتفسد كلّ شيء، فلم يعدْ لردود أفعال «زهرة» تأثيرها المرْجوّ في نفس أسرتِها خاصّة زوجها، الذي توافق كثيرًا مع والدتها أكثر منها.

بماذا أبدأ حديثي معك.. هل أبْدأه بابني الأصغر الذي أدمنَ المخدّرات مؤخّرًا دون أن يشعر به أحد، أمّ بابني الآخر.. بكْرِ أولادي الذي يشبه أباه

كثيرًا؛ جافّ وعمليّ وصامت، وكلّ حياته لنفسِه ولدراسته فقط؟! أمْ أبْدؤه بأمّي التي أظنّها تكرهني منذ حملتْ بي؟!

لقد كبرت على تلك النّظرات منها وكأنّها ليست أمّي، لم ألجأ إليها في هواجسي تجاهها أو تجاه أيّ شيء بحياتي، كنت بعيدةً عنها تمامًا، كلّ علاقاتي كانت هشّة جدًّا بين المدرسة الابتدائية ثمّ الإعدادية والثانوية وحتّى الجامِعة، تزوّجت صغيرة بعد انتهاء دراستي مباشرة بعد خطبة عمرها ستّة أشهر فقط.

زوجي مختلفٌ كثيرًا عنّي، تربيتُه ونشأته أثّرا فيه فحوّلاه إلى صامت شغوف بالعلم، كلّ وقته وحياته لدراسته، لقد تربّى يتيمًا فقيرًا، وبعيدًا عن أسرته الكبيرة، لكنهم استيقظوا فجأة ليجدوا «زايد» أستاذ دكتور في الطبّ البشري، وفي تخصّص له ثقله وسط التخصّصات الطبية الأخرى.. جراحة القلب، والذي أنشأ من أجله مشفاه الخاصّ رغم تقلّده عدّة مناصب حكومية بمجال الطبّ جعلته يتنقّل طويلًا على خطّ الصعيد من بحْريه حتى قبلِيه.

اختياري لتخصّصي بمجال الإخراج بكلية الإعلام لم يكنْ من أجل العمل كمخرجةٍ بالتلفزيون المصري بصعيدِ مصر، كنت أتوقُ في صغري للعمل السّينمائي والدرامي بالقاهرة، لكنّ خطبتي إلى «زايد» التي تمّت سريعًا جدًّا، وإصراره فيما بعدُ على الزواج بالصعيد حالت بيني وبين حلْمي، فاضطررتُ للعمل كمخرجةِ برامج بالتلفزيون حرصًا على البقية الباقية من أحلامي.

وها أنذا قد بلغ عمرُ عملي في الإخراج التلفزيوني بالمنيا عامَه الثلاثين، ثمّ أردفت بجذل:

– وما زلت بعْدُ في الخامسة عشَرَ من عمري.

ثمّ أرسلت له أحدَ تلك الوجوه المبتسمة التي تعبّر عن الحالة في المحادثات البريدية، لوجهٍ يغمز بإحدى عينيه دليلًا على المشاكسة.

– أكْملي «زهرة» من فضلك.

جاء ردّه هكذا جادًّا ومختصرًا ممّا دلّ على أنّه كان يقرأ ما تكتبه بكلّ حواسه، وأنّه لا يريد أن يفقد تركيزه هذا بكلام جانبيّ، أو ربما كان يتعمّد أن يشعرها بذلك.

لا شيء مهمّ بعد؛ لقد مَنَّ الله عليّ بحفظ القرآن الكريم كاملًا، ومعي إجازة في (قراءة حفص)، وحاليًا أدرس (قراءة ورش) لكنّي متعثرة منذ مدّة لظروف طارئة، مدّة دراسة القراءة الواحدة أربعة أعوام ثمّ اختبار وإجازة، همّتي قلَّت قبل حملي بابنتي الوحيدة ببضعة أشهر، وبعد ولادتها تلاشتْ تمامًا، ظروف الوضع والرضاعة وانتقال والدتي للعيش معي، وابتعاد زو...

سكتتْ «زهرة» فجأة، وكأنّها تحاول أن تتدارك ما كانت ستقوله، لكنّ «يوسف» ظلّ يستحثّها على الحديث حتى أردفت جُملتها تلك، وكتبتها بتتمَّتها:

– وابتعاد زوجي عنّي فجأة دون أسباب.

– كيف ابتعدَ عنكِ زوجك فجأة؟! طلّقك.. تقصدين؟!

– يا ليتَه فعل، ما زال زوجي لكنّه هجرني منذ حمْلي بابنتي، أيْ منذ ثلاثة أعوام كاملة.

– اعْذريني «زهرة»، وأخبريني لماذا؟! أريد أن أساعدَك حقًّا، فساعديني بكلّ تفصيلة صغيرة، ربّما استطعت مساعدتك بالفعل.

– لا أدري أستاذ «يوسف»، هو فقط هجرني، وهذا الأمر يؤرّقني للغاية، لا يمكنك أن تعرفَ ما الذي قدْ يفعله الرّفض بامرأةٍ بشكل عام، ورفضُ زوجٍ لزوجته بشكلٍ خاص.

– ربّما أعرف؛ فأنا أيضًا أعاني الأمرَ ذاته مع زوجتي يا «زهرة»، منذ سنوات وهي بغرفة وأنا بأخرى، لا يمكنني البوْح بأكثر من ذلك الآن، أعتذر عن إقحام نفسي في الأمْر، ما كان ينبغي أن أفعل.

سكتَ «يوسف» لبعض الوقت مُظهرًا بصمتِه هذا التأثّر بإثارة تلك الوجيعة بقلبه، لتبادرَه «زهرة» باعتذارٍ قصير لم يردّ هو عليه، وظلّت تلك الدائرة الخضراء بجوار اسمه مضاءة لبعض الوقت قبل أن تتَعتّم إلى اللّون الرماديّ دون أن يجيبها. خرج «يوسف» بحنكةٍ في الوقت المناسب تمامًا تاركها خلفَه تنتظر أنْ تضاء تلك الدائرة الرمادية بضوئها الأخضر من جديد، وبينما هي تنتظرُ عودة «يوسف» إلى المحادثة مرّة أخرى، انتبهت فجأة أنّ هناك نافذة لمحادثة ثانيةٍ، غير ظاهر منها سوى مستطيلٍ ملاصق لشريط المهامّ السّفلي لمتصفّح فيسبوك الشهير، واسم يومضُ ويخفُتُ دلالةً على وصول رسائل جديدة منه إلى بريدها دون أن تنتبه، فتمتمت بحنق:

– يا إلهي، لقد نسيت «شوقي» لقرابةِ السّاعتين، تبًّا.. كيف لم أنتبهْ لبريده ورسائله؟!

***

«رسائلُ عائشة»

استطاعتْ ماما «أسيل» أن تكسبَ ثقة «ضياء»، ومِن ثمّ باشرته برغبتها في الاتّجار بأمواله في بيع الأجهزة الكهربائية بالتّقسيط، وبالطبع وافقَ «ضياء» على الفور فنِسبة الربح التي عرضتها عليه كانت عاليةً بالقدر الذي جعل لعابَ «ضياء» يسيل؛ فوافق على الفور على عرضها المُغْري.

بدأت هي عملَها معه بانتظام، كانت دقّتُها في المواعيد الشّهرية لاستحقاق الأقساط هي أكثرَ ما لفتَ انتباه «ضياء» في التّعامل معها، الأمر الذي فرض عليه احترامَه لها وثقتَه فيها كذلك.

كلّ يوم مرّ عليّ منذ عرفتها، كانت تسجّل هي فيه موقفًا إيجابيًّا يجعلني أصدّق أنّ الدنيا لا تزال بخير طالما أنّ هناك مَن هي كـ ماما «أسيل»، حتى إلحاحها مؤخّرًا في ضرورة أن أتصالح مع أهل «ضياء»، والذي كنت أقابله دومًا بالرفض قولًا واحدًا، كنت أراه جزءًا من طيبتها ونقاء سريرتها.

حتّى أنّني قد استجبت لإلحاحها ذاتَ مرّة، وتوجّهت- و«أنس»- إلى شقة عمّته التي تصغر أبيه بعامين، إثر دعوةٍ ملحّة منها أنْ آتي لشقتها التي ضمّت الجميع حتى «ضياء» من أجل وداعها قبل سفرها، فما كان مِن أبيها إلّا أنّه قد طردني ونهرني بشكلٍ مُهين، جعلني أخرج من بيتِ ابنته هرولةً واتّجهت إلى السلّم غير منتظرةٍ للمصعد لأطوي خلفي درجَ عشرةِ طوابق كاملة دون أن أنظرَ خلفي، رغم سقوطي الذي تكرّر من أثر انْدفاعي وطول عبراتي وجرح كرامتي.

لا أحد تلقّفني بكسرتي الجديدة تلك سوى «أسيل»، ستّة أشهر وأنا أحيا على التّغذية عبْر الأوردة، خرطوم رفيع بنهايته سائلٌ بلا لون، لكنه يمدّ

جسدي بعناصر التّغذية اللازمة للحياة، بينما نفسي بلا حياة، وروحي بشفاهٍ مطبقة وقلبٍ مطعون.

لم تدبّ فيّ الحياة؛ حتى عندما افْتعل «ضياء» تلك المشاجرةَ مع والدتي فخرجت الأخيرة من بيتي غاضبةً وهي تقسم أنّها أبدًا لن تعود إليه، لم أتحرّر من استسلامي للصمات بعد فأهروِّل خلفَها لأمنعها من الذّهاب، كنت أرى وأسمع لكنّي بلا إرادة تمكّنُني من إتيان فعلٍ أو اتّخاذ قرار.

لا شيء يحفظ لـ «ضياء» ماءَ وجهه أمامي إلّا افتعاله لتلك المواقف المُسيئة لأسرتي كلّما التقى بأحدٍ منهم، فيبتعد أفرادُها عنّي الواحدَ تلو الآخر؛ كردّ فعلٍ منهم على إهانته المتعمدة تلك، لقد سمعته ذلك اليوم وهو يقول لوالدتي إنّني لستُ بحاجة لتلك الزيارة منها، والتي لا تتعدى البضع ساعاتٍ في كلّ مرّة، سمعته وهو يقسم لها أنّ الحاجّة «أسيل» صارت أقرب إليّ منها، فخرجت والدتي بعدما ردّت إليه كلّ بضاعته، لأوّل مرّة تقول والدتي لـ «ضياء» حقيقته التي أبعدت الكلّ عنه وعنّي، كانت غاضبةً للحدّ الذي لم تبقِ فيه ولم تذر، ثمّ خرجت، وبالفعل لم تعدْ.

لقد صدقَ «ضياء» في بعض قوْله، فإما «أسيل» أثبتتْ بالفعل في تلك الفترة أنّها أقرب مَن في الكون لي، ظلّت «أسيل» شبه مقيمةٍ معي أثناء مرضي، لا تذهب إلى بيتها إلّا مرتين؛ مرّة نهارًا لتطعم زوجَها، وأخرى ليلًا للنوم، حتى تلك الرّسائل التهديدية وتلْك الاتصالات المزعجة كانت هي تستقبلهم عنّي، كنت أراها تنفعل حتى يتمعّر وجهُها من الغضب لأجلي دون مقابل إلّا الحبّ، أو هكذا كنتُ أظنّ.

إنّ ما حدث في صباح ذلك اليوم يا «عهد» لم أكنْ أبدًا أتوقّعه منها، عندما ظهرت علامة الكاميرا بجوار اسمها في محادثة برنامج التواصل الاجتماعي (ياهو)، الأمر الذي جعلني أضغط على تلك الكاميرا من باب أنْ أراها وهي تتحدّث معي، إذ كنا نتحدّث محادثة صوتية على نفس البرنامج، فداعبتها ببعض كلمات الثناء من واقع صورتها التي ظهرت أمامي في مربّع صغير أسفلَ شاشة الحاسب من جهة اليسار، بعد أنْ وافقت هي على طلبي للكاميرا من دون قصدٍ منها على ما يبدو، فقد قابلت دعابتي لها بالنّفي والاستنكار حين قالتْ لي بصوت خافت:

– عن أيّ جَمال تتحدّثين يا ابنتي، يكاد الصّداع يمزّق رأسي، لقد شددت على رأسي عصابتيْن من شدّة الصداع، وما زلت أشعر أنّه يتمزّق إربًا فوق كتفيّ.

يا الله على صدْمتي حينها يا «عهد»!

فلولا صورتها الحيّة التي كانت تبَثّ لها وهي تنطقُ بهذه الكلمات لكنت صدّقتها فورًا، وربّما كنتُ ذهبت إليها ببيتها لأوّل مرّة منذ عرفتها وأنا أحملُ إحدى المسكّنات القوية الأثر؛ لأخفّف عنها ما هي فيه، لكنّ صورتها وهي تحاول أن تتصنّع الألم قد نفتْ أنّ هناك أي ألمٍ فيها بالفعل وزرعت كلّ الألم فيّ حقًّا!

كانت «أسيل» تجلس أمام كاميرا حاسوبها وهي ترتدي قميصَ نوم يظهر مفاتنَ جسدها بامتياز، بينما تكتب في محادثةٍ أخرى وهي تحادثني عبرَ أثير البرنامج بنصفِ تركيز، كان من المُمكن أن يبرّر عدم تركيزها ذاك لو لمْ أكنْ أراها؛ حديثها عن ذلك الشّعور بألم الرأس الذي كانت تدّعيه، لولا صورتها

الحيّة التي كانت أمامي لصَدّقتها فيما كانت تقول، إلّا أنّني جلست مشدوهةً وأنا أشاهدُها وهي بين البرْهة والأخرى؛ تقفُ وهي تتحسّس بعض مواضع جسدها في دلال، ثمّ تجلس وابتسامتُها تفترش كلّ ملامحِها!

يا إلهي!

ما الذي تفعله تلك المرأةُ بنفسها يا تُرى؟! كنت أتساءل بحسرةٍ يا «عهد» إذ لم يكنْ لديها أية أسباب إلى هذا الكذب إلّا أنّها بالفعل كاذبة، وأنّها ليست واضحة لي، بينما كنت معها كتابًا مفتوحًا في كلّ شيء.

على الرّغم من خلوّ وجهها من التّجاعيد؛ لم تكن «أسيل» بالمرأةِ ذات الوجْه الفتّان، لكن جسدها كان ممشوقًا وكأنّها ذاتُ عشرين ربيعًا، حركتها الدّائمة وعدم إنجابها جعلا جسدَها محتفظًا بشبابه ولياقته، حتى أنّها لو توشّحت لظنّ كلّ ناظر إليها أنّها عشرينيّة في عقدها الثاني، حديثها الدّائم أنّ عدم الإنجاب لم يمثّل لها أيّة مشكلة بينها وبين نفسها، أو بينها وبين زوجها كان يثير حفيظتي قليلًا تجاهها، فالأمومةُ غريزة طبيعية لا يمكن لأقوى النّساء تجاهلها أو عدم الإشارة إليها، ولو على سبيل التمنّي، لكنّ «أسيل» بدت وكأنّ الأمر يروقُ لها.. يروق لها جدًّا.

دعتني «أسيل» كثيرًا إلى بيتها، لكنّي كنت أكتفي بلقائي بها ببيتي أو في أحد الأماكن العامة، حتى قرّرت فجأة أن تقوم بإعادةِ تشطيب شقّتها، الأمر الذي حتّم عليّ الوقوف إلى جوارها، فلطالما وقفتْ إلى جانبي، وساندتني في الكثير والعديدِ من المواقف، كنت أقوم بطهي الطعام لها ثمّ أحملُه إليها في كلّ يوم من أيّام تلك المدّة التي استغرقتها للانتهاء من تشطيب شقتها الصغيرة جدًّا، والمناسبة لها ولزوجها تمامًا.

تعرّفت في تلك المدّة على زوجها بحُكم أنّني كنت ألتقيها لديه بمحلّ البقالة الخاصّ به أسفل شقتها تمامًا، كان ذكرًا بسيطًا جدًّا، لكنّه لا يرقى لمهام الرّجال، هكذا شعرت حاله من واقعه مع زوجته «أسيل»، كان حديثُه في حضرتها عن أخواتها، وكيف أنهنّ يغرن منها لأنّها تمتلك الحرية المُطلقة، أمّا هنّ كقاطناتٍ للرّيف فلا يمنحهنّ أزواجُهنّ نصفَ الحرية التي يمنحها هو إليها عن طيبِ خاطر.

وما أنْ تصعد «أسيل» استجابةً لنداء أحدِ العمّال لها حتى يغيّر دفّة الحديث عن طبيعة خلافها مع بعض أخواتها وأبنائهن.

لأوّل مرّة يا «عهد» أجلسُ وكأنّ على رأسي طيرًا وأنا أستمع لشيء جدّيّ عن حياة «أسيل»، لأوّل مرّة ألحظ أنّها لم تكنْ تقصّ لي عن حياتها شيئًا، كان زوجها يقصّ عليّ في تلك اللحظات التي تغيب عنّا فيها بعضَ مشاكلها مع أخواتها، وكأنهنّ كنّ في حرب، كلّها كانت خلافات تخصّ المال وكأنّ «أسيل» كانت تستغلّهنّ ثمّ تستولي على أموالهنّ دون وجْه حقّ، ورغم أنّ زوجها كان يحاول أنْ ينفي هذا الأمرَ عن زوجته بشدّة، إلّا أنّني قد لمحتُ في عينيه صورةَ رجل غريق مَرْغم على ابتلاع ماءِ البحر وهو يتقلّب بين أمواجه.

وجدتْ «أسيل» نفسها مضطرّة للحديث معي عن الأمر، بعد تلك الجلسات المتكرّرة لي معها، حتى أنّها أجبرتني على مُهاتفة إحدى أخواتها في «كفر الشيخ» لتثبت لي أنّ بعض أخواتها يكْرَهْنها بالفعل من دون سببٍ ظاهر، وأنّها بريئة من ادّعاءاتهن عليها، لم أكنْ أرى الأمر يستحقّ كلّ هذه الجلبة، لكنّ شعورًا بالخوف منها اعْتراني بعد هذه الأمور التي اكتشفتها بمحْض القدر على تسلسل الأحْداث، والتي اهتمّت هي بنفيِها عن نفسي بشتّى الطرق.

ما زالت تلك الرّسائلُ النصية القصيرة تصلني كلّ يوم بتهديدٍ مختلف، وما زلت أصدّق تحليلات «أسيل» أنّ الرّاسل هو أحدُ اللصوص في عمل «ضياء»، كما سبق وأخبرنا هو قبل أن يقوم بتحرير محضرٍ بالقسم التّابع له عملُه مُرفقًا بالمحضر بعضَ الرّسائل التهديدية تلك، وكلّ الأرقام التي وردت منها كلّ تلك الرسائل.

ما زالت «أسيل» تصرّ على ضرورة التّصالح بيني وبين أهل «ضياء»، لكنّي لم أعدْ أستقبل منها أيّ مبادرة أو فعلٍ بالبراءة نفسها، لقد صار في قلبي ريبةٌ تجاهها جعلتني لا أقبل عليها بحُسنِ الظنّ نفسه كما كنت من وقتٍ قريب.

داهمتْ تلك الغيبوبة التي كانت تُغير على رأس «ضياء» كلّ عام رأسَه من جديد، بعد توقّف قد تخطّى الستة أعوام ببضعةِ أشهر، لتعاوده بعد انقطاعٍ عزّز سنوات قطيعتي لأهله كلّ تلك الأعوام الماضية، الأمرُ الذي جعل كلّ أسرته ببيتي من جديد، وكيف أذْهِب حيائي لساعة فقط فألقي في وجوههم بعضًا من كلّ كبائرِهم؟! لم أستطعِ إلّا فتح بابي في وجوههم وكظمتُ بي ما بي.

استقبالٌ فاترٌ من قبلي، كما تجنّبت الكثير من الحديث معهم، لكنّي شعرت بالوحدة فجأةً من جديد، الشّعور ذاته الذي طالما شعرتُ به في حضرتهم، الأمرُ الذي دفعني للاتصال بـ «أسيل» لأدعوها للحضور من أجلي، من أجل وجود شخصٍ أنتمي إليه بجانبي، على رغم من كلّ مخاوفي منها إلّا أنّني حين قارنتُها بهم وجدتُني أريدها الآن إلى جواري، وليكنْ بعدُ ما يكون.

لكنّها لأوّل مرّة تعتذر عن المجيء، لم تأتِ يا «عهد» وأخبرتني أنّه لا يصح أن تكون موجودة الآن، أخبرتني أنّه في ظرفٍ كهذا يفضّل أن يقتصر

الأمرُ على أفراد العائلة فقط، تعجبت في البداية كثيرًا كوْنها كانت تلحّ على ضرورة تدخّلها للصلح بيننا، لكنْ في النهاية استسلمت للفكرة خاصّة أنّ الوقت كان يمرّ وقد همّ الجميع بالرّحيل بالفعل.

تغيْبت «أسيل» عن زيارتي لبضعة أيّام بعد مرض «ضياء» وزيارة أهله له في بيتي، وكلما هاتفتُها لأسأل عن سرّ غيابها، كانت تخبرني أنّها منشغلة بمشكلة عائلية كبيرة، حتى وردني ذلك الاتّصال في صباح أحد أيّامي المتشابهة من أختها الصّغرى تستنجد بي، أخبرتني- في لهفٍ- أنّ جميع عائلتها بكفر الشيخ تتّصل بـ«أسيل» منذ بضعة أيّام والأخيرةُ لا تردّ، ثمّ طالبتني بتفقدها فقد قلقت عليها كثيرًا، أنهتْ أختها اتّصالها بي بعد أنْ وعدتها بالردّ عليها وطمْأنتها بعدما أتفقّد «أسيل» وأعرفُ ما بها.. قمتُ على الفور بالاتّصال بها لكنّها لم تردّ عليّ أيضًا، كرّرت الاتّصال بها عدّة مرّات من جديد لكنّ النتيجة كانت واحدة.. عدمَ الإجابة.

ارتديتُ ملابس الخروج على عجل، وذهبت في التوّ إلى بيتها، وهناك حدثت بيننا مشادة كلاميّة طويلة نفتْ «أسيل» فيها- بشدّة- أنّني قد اتّصلت بها، الأمر الذي حمل في طيّاته تكذيبها لي، ممّا أجبرني على التقاط هاتفِها الذكي وتصفّحت سجلّ المكالمات لديها، وبالفعل لم أجدْ به شيئًا.

كانت هي تقف بثقةٍ تاركة هاتفَها معي لأتفقده كما يحلو لي بعدما قامت بحذف اتّصالي المتكرّر بها واتّصالات كلّ أقاربها كذلك من وارد هاتفِها، لكنّي كنت أعلم أنّ هناك مكانًا آخر يحتفظ فيه الهاتفُ بكلّ الاتصالات الصّادرة والواردة والتي لم يردّ عليها، لا يميز هذا من ذاك من تلك سوى لونِ الأسهم الصغيرة واتّجاهها، والذي لا يمكن لـ «أسيل» أن تحذف منه

رقمًا دون آخر.. إمّا أن تحذف كلّ الأرقام من قوائم الهاتف الثلاث، أو تُبقي على الكلّ.

السجّل..

لقد قمت بفتح قائمة الاتصالات من قائمة الهاتف، ثمّ أدرت ذلك الزّر في منتصف الهاتف إلى اليسار، لتفتح لي قائمة واحدة بملفّ اسمه السجلّ، والذي يحتفظ الهاتف داخلَه بكلّ الأرقام التي اتّصلت هي بها أو وردتْ إليها أو تلك التي لم تجدْ منها ردًّا في مدّة أقصاها شهرٌ كامل، وأدناها يومٌ واحد، وليتني ما فعلتُ يا «عهد»؛ فما بدا لي من أرقام داخل سجلّ هاتفها قلبَ كلّ شيء بيني وبينها رأسًا على عقِب.

***

توطّدت الصداقةُ بين «يوسف» و«زهرة» سريعًا، اختفتِ الألقاب والأساليب الرسمية في الحديث، وحلّت أسماء الدّلع الرقيقة على لسانه، بينما هي كانت تناديه دائمًا باسم أبيه.. «عزيز»، صار يومُها ممتلئًا بوجوده، تستيقظ في الصباح على اتّصاله فلا ينهي الاتصال حتى يسمعها تلك الجُملة غالبا.. "لقد وصلت إلى المكتب، سأنهي الاتّصال وتعالي فيسبوك"، إلّا أنّه لم يكن ينهي اتّصاله معها إلّا وقد استقرّ بالفعل خلف مكتبه وفتحَ حاسبه المحمول، وأرسل لها تلك الجُملة.. "هيّا تعالي هنا، ولكنْ قبلًا لتعدّي لي كاسة شاي، وليكنِ النّعناع طازجًا".

الأيّام والأسابيع والأشهرُ تمرّ، وكلّ ساعة من عمر أحدهما لا تخلو من وجود الآخر، شهران ونصف مرَّا على تواصلهما، عرف «يوسف» في تلك المدّة القصيرة كلّ شيء عن «زهرة»، حتى أنّ الثّقة بينهما قد تأصّلت وامتدّت

إلى ما بعد حياتها إلى حياة صديقتها الوحيدة.. «عتاب»، ذاتَ صباح أخبرته أنّ لديها أمرًا ما تريدُ أن تأخذ رأيه فيه، كانت قصة قصيرة عنوانُها لدي مشكلة تخصّ صديقتي المقرّبة، وأريد لها حلًّا، ثمّ بدأت بسرْد القصّة عليه.

"لي صديقة متزوّجة، وزوجها يهملها تمامًا، وقد سقطت في حبّ أحدهم عن طريق الإنترنت، هي لم تلتقيه في الواقع قطّ، فهي في مصر وهو بالسعودية، لكنّ الأمر بينهما قد تطوّر، حتى أنّه قد تخطّى الحبّ بكثير، لقد صارت تمارس الجنسَ معه عن طريق مكالمات الفيديو، حتى أنها قد أدمنت هذا الأمرَ منه، ولا يمكنها التّراجع عن ذلك الآن، رغم عزمها عدّة مرّات على إنهاء هذا العبث، إلّا أنّها في كلّ مرّة كانت تعود إليه بشكل أقوى من السابق، لكنّ ضميرها يؤرقها تجاه زوجها طيلة الوقت، هي تريدُ الطلاق من زوجها حتى وإنْ لم تتمكّن من الزواج من ذلك الرجل الذي تعشقه، فهل أنتَ مع هذا القرار؟! أمّ بماذا تنصحها؟!".

قرأ «يوسف» رسالتَها عدّة مرّات دون أن يجيبها، وكأنه تعمّد أن تُكتَب لها (تمت الرؤية) أسفل رسالتها دون أن يأتيها منه إجابةٌ على الفور، ليست عادته معها، غالبًا ما يكتب لها "ثوانٍ" إن كان مشغولًا أو في منزله حتى يمكنه الحديث، هذه المرّة كان حديثه ليس إليها، بل إلى نفسه..

– ما الذي تظنّينني عليه يا «زهرة»؟! هل تريْنَني طفلًا ساذجًا لتقُصِّي عليّ هراءً كهذا فأصدّقه؟! لم أقرأ الآن إلّا تلك الجُملة التي سبق وقرأتها في عينيك وبين كلماتك على حائطك كلّ ساعة.. جملة (هيْتَ لك)، أعرف أنّها جملة عريضة لا يهمّك عند إلقائها مَن سيكون الملبّي، ذلك البطل المجهول في روايتك تلك عن نفسك في صورة صديقة، أمّ أنا من بعده أو ربّما من

بعدِ بعده.. لا يهمّ، ربّما لست بخبرتك ولكنّي لست ساذجًا إلى حدّ تصديق رواياتك تلك، هي مجرّد "طُعم" سألتقط طعمَك إذًا.. ولنرَ ماذا بعد.

أربعة أعوام ونصف العام هي عُمر حسابه على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، كانت علاقته بهذا الحساب سطحيةً جدًّا حتى عام ونصف العام فقط، منذ أقلّ من عامين كان يكتفي بصداقة معارفه وبعض زملائه من مهنة المحاماة وقلّة من جيرانه ومعظم عائلته، لا يدري متى ظهرت كلّ تلك الحسابات النّسائيّة التي تضع صويحباتها تلك الصّور بذلك الوشاح الأسود الذي يأسره، لا يتذكّر كمْ من الوقت أهدرَه في تصفّح تلك الصّفحات ومعرفة الحقيقي منها من الزائف.

ربّما لم تتّجه المرأة المحتشمة في بلاده إلى ذلك الموقع الإلكتروني بقوّة بعد، لكن هناك الكثير من النّساء الخليجيّات قد ولجنَ إلى هذا العالم بالفعل، إنهنّ يعانين الفراغَ في بلادهنّ، والإنترنت تسلية جديدةٌ تضاف إلى تسليتيّ التّسوق وإقامة الحفلات، في بيوتهنّ هنّ مرفّهات؛ تمرّ بعض أوقاتهنّ في توجيههنّ للخادمة وأوامرهِنّ للطاهي وتفقدهِنّ للمربية، الأمرُ الذي يجعل لهن كلّ ذلك الفائض من الوقت، ساقهُنّ فراغهنّ إلى ذلك الموقع أسرعَ من نظرائِهنّ من بلاد «يوسف»، فبتْنَ يستعرضنَ على صفحاتِهنّ كلّ جديد يطرأ عليهن.

امتلأت حوائِطهنّ الافتراضية بصورهنّ المتجدّدة في كلّ مناسبة، كما كنّ يستعرضن كيفية استعدادهنّ للمناسبات الخاصّة من رسم حنّاء أو وضع وشْم على الكفوف، ولم يكنّ يبخلنَ على أعينهنّ ببعض المساحيق التي كانت تبدو بها آسرةً لنفس «يوسف» من بين تجاويف تلك النّقُب.

في البداية، ظنّ «يوسف» أنّ ذلك الحساب لامرأةٍ خليجية، حتى وجد كلّ المنشورات فوقه بلهجةٍ مصريّة بلا منازع، وبدلًا من تصفّحه لبعض الصّور كما يكتفي عادة، أخذ يقرأ هذه المرّة للكثير والكثير من كلمات الشّوق القادرة أن تهيّج في نفسه ألفَ ألفِ رغبة نائمة.

كان أمرُ «يوسف» قاصرًا على اختلاس النظر إلى أبعاض امرأةٍ فوق حساب لا يلزمه مصادقة مالكتِه حتى يشبع في نفسه تلك الشّهوة، ساعاته جرداء ويومُه مقفرٌ إنْ لم يمرّ عليه صورة لتلك الجفون الهادِبة، التي تطلّ كنَجمين متلألئيْن يناديانه من خلف ستُرٍ سوداء، هو لا يريد إزاحة السّتُر، تعجبه طلّة العينين وتأمّل الأكفّ، يثيره القوام المغلف بالاحْتشام، وتغريه تلك الأنثى المسْتورة التي لم يحجب لباسُها أنوثتها، فطلّة الأنثى منها.. على هيئة نظرةٍ وبعض حركات الدّلال.

كلّ هذا لم يكن موجودًا في «زهرة»، لم تكنْ هي إلّا امرأةً ضلّت طريقها للأنوثة فجأة، فسقطت في بئر الافتراض، وما أكثر هوامّ ذلك البئر.

***

أغلقت «زهرة» حسابَها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، أغلقت هواتفها، تركت بيتها، وقصدت شقتَها التي كانت بالأصل لوالدتها قبل أن تدفع هي ثمنها وتؤول لها ملكيّتها، ما أعجب هذا الحال! «زهرة» بشقّة والدتها التي لم تعدْ ملكًا لها، ووالدتُها ببيتها الذي لم تعدْ «زهرة» تشعر أنّه ملكٌ لها كذلك!

– لماذا لم تبقَ والدتي في شقّتها؟! ولماذا لم أبقَ في بيتي؟! لماذا تزاحمني أمّي في كلّ شيء ولا يهدأ لها بالٌ إلّا بإزاحتي التي تصل إلى الصفرية؟! ما بالها

وخلافي مع ابني؟! وما شأنها وأسلوبي في تربية ابنتي؟! لماذا تصرّ على الظهور في دوري في كلّ الصور؟! لقد تعبت.. تعبت من كلّ هذا، ولا أدري ماذا أفعل؟!

ربتتْ «عتاب» صديقة «زهرة» المقرّبة على ظهرها، بينما تطلق زفرة حنق نارية من جوفها؛ تشاطر بها ضيقَ صديقتها الذي اعتمل به صدرُها حدّ كلَّ هذا الصراخ، ظلّت «عتاب» معها حتى المساء، ثمّ توسّلت إليها بضرورة تفعيل هاتفها النّقال حتى يمكنها الاطمئنان عليها من خلاله، أخذت على «زهرة» وعدًا بالردّ حالَ أن تُهاتفها.. ثمّ ودّعتها قربَ الباب بقبلة تقليدية وذهبت.

لم يكنْ كلّ هذا الغضب الهادر الذي يموج داخلَ نفس «زهرة» بسبب والدتها أو كلّ هذا الهراء الذي ذكرته أمام صديقتها كذلك، لا يمكنها إنكارَ أنّ ما ذكرته هو واقعها الذي تعيشه والذي تتمنّى الخلاص منه، لكنّها بالفعل قد اعتادت كلّ هذا، لقد اعتادتْ أسلوب والدتها السّلطوي الذي تزيده الأيام تعقيدًا وغلظة، كما اعتادت ذلك الجفاءَ من أكبر أبنائها حتى قبل أنْ يرى تلك الرسائل المُفجعة بينها وبين «شوقي»، لم يكن الأخيرُ إلّا ذئبًا جائعًا في صحراء الغربة، وكانت هي غنمةً شاردة مثّلت له على هزْلها وجباتٍ طويلةً من الجنس الحي.

لم يكنْ «شوقي» من هواة مشاهدة تلك النوعية من أفلام المتْعة الجنسيّة التي يمتلئ بها محرك البحث جوجل داخلَ مواقع كثيرة، لقد استهوته تلك الغرف التي وفّرها برنامج التواصل الاجتماعي (ياهو) والتي كان يملؤها الشّواذ في بداية إنشائها، حتى عرفت النساء طريقها إليها، تعرّف «شوقي»

داخل تلك الغرف المخبّئة داخل قائمة "Chat rooms" على الكثير والكثير من نساءِ المتعة مقابلَ مبلغٍ زهيد من المال، أو مقابل (أحد أكواد إعادة شحن رصيد الهاتف المحمولً) في أحايين كثيرة.

«أسيل» هي أغربُ امرأةٍ التقاها «شوقي» في تلك الغرف المعروفة باسم «غرف المحادثة» على موقع التواصل الاجتماعي ياهو، لم تكنْ «أسيل» من النوع الذي يريد الجنسَ مقابلَ المال أو أيّة هدية أخرى، كانت تريده لأنّها ممتلئة بالأنوثة رغم اقتراب عمرها من منتصف العقد الخامس، بعد أن ذاقَ «شوقي» شهدَ ذلك السنّ متمثّلًا في جسد الخمسينيّة «أسيل»؛ لم يعد يبحث في النّساء إلّا على امرأة شارفت على الخمسين أو بلغَتْه، فكيف يتجاوز بستاني مثله مَن هي مثل «زهرة» والتي مثّلت له نوعًا مختلفًا من المتعة.. والمتمثلة في مساحةٍ ضيقة منها.. (صوتها)!

كيف يمكن لامرأةٍ أن تحرّك جبلًا كـ «شوقي» في غربته عن طريق صوتها فقط، امرأة متوشّحة بينما يهاتفها مكالمةً مرئية ورغم ذلك فصوتُها يكفي أن يزلزلَ كلّ رجولته ويبعثرها تحت نبراته في ثوانٍ.

لم يملّ «شوقي» من جسد أسيل، ولم يرتوِ بعدُ من صوت «زهرة»، كلتاهما جزءٌ من حاجته التي لا يمكنه الاستغناء عنِ إحداهما والإبقاء على الأخرى، لكنّ «زهرة» هجرته منذ مدّة طويلة دون أن توضّح له أسبابها لهذا الهجر، حجبتْ عن هاتفها رقمَ جوّاله فجأة، وأغلقت حسابها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك دون أن تعلمه أنّها انْتَوت الرحيل.

كيف لا ترحل؟!

وقد وجدت مَن يمكنها كشف وجهها في حضرته دون خجل لأنّه دومًا يراها أجمل جميلة، دومًا يشعرها ألّا أنثى تضاهي أنوثتها في الوجود كلّه،

دومًا يخلق من يومه وقتًا لملامحها؛ يتغزل في كلّ ملمحٍ منها على حدةٍ بصوتٍ متهدّج حنونٍ معززٍ بنظرات عاشق، وما أروعَ غزلهً بتلك الأبيات الشّعرية التي لم تكن تعرفها أو تعرف كاتبها قبل أن تعرفه هو «يوسف عزيز».

«يوسف»، هو أروعُ مَن التقتْه «زهرة» من رجال، الجميع أجاد الغزلَ في حضرتها بشتى صوره، ووحدَه يوسف أجاد مدّها بالحياة، تلك العروق المغطّاة برقيق جلدها في سائر جسدها؛ صار «يوسف» هو مَن يسري بها، يمدّها بالرّوح، وبالفرح، وبالحياة، لقد تركته يستخدمها كقيثارةٍ مقابل أن يُسمعها جميلَ أنفاسه على هيئة كلمات، كان «يوسف» يجيد التعبيرَ، وكانت هي لا يرويها إلّا فيضُ أحرفه.

السّنون تمرّ بينهما سريعًا، «زهرة» تعطيه كلّ شيء تملكه، و«يوسف» يعطيها وقتَه ومعسول كلماته عبر أثيريّ الإنترنت والهاتف النّقال، كثيرًا ما طرأ عليه تغييرٌ لبعض الوقت، تغيير تلحظه هيَ في حلول أقلّ وحجج أكثر، لكنّه دائمًا ما يعدُها بعودةٍ سريعة، كما أنه لم يكن أبدًا يهجرها، لطالما أخبرها أنّ انشغاله عنها لبعض الوقت هو ظرفٌ طارئ وسينتهي، بينما هي كانت تعرف أنّه غارقٌ في نزوةٍ جديدة، سيتجاوزها ويعود، فمِن المستحيل أن يجد في امرأةٍ أخرى ما وجده فيها، لطالما أقسم لها على هذا، وهي تصدّقه.

ما لَها الآن تتجرّع مرارة غيابه الطويل وكأنّه لن يعود، فأغلقت بينها وبينه كلّ بابٍ يسمح له بذلك المجيء المُهين، ليضع على قبر حبّهما وردة، بينما قلبه يستغفرُ منها فيُهْرع إلى الاغتسال قبل أن يشبع غرورها الأنثوي الذي لم يشبعه أحدٌ من الذكور قبله، إنّ ظهوره الباهت كلّ فترة من خلف أشجار الغياب الجافّة، كان يحوله بناظريها إلى شيطان، شيطان يُذكّرها بحقيقةٍ مسمّاها عنده، المسمّى الذي طالما أنكر عليها التلفّظ به إلّا في لحظات سُكرهما معًا، يؤلمها

غيابه إلى حدّ الاحتراق حيّة، بينما هو يقطفُ من بستان النّساء زهرة جديدة يضيفها إلى قائمة سباياه!

فهلْ «عهد إبراهيم» التي أطال «يوسف» المكوثَ قرْب صدفتها الرّمادية هي الأخرى ستصبح له «سَبيَّة»؛ أمّ أنها ستنجح في إضافة ألفِ ولام التّعريف إلى الكلمة، فتصبح «السَّبيَّة» التي ينغلق بها حرملك سباياه عليهنّ، وتقف هي بينه وبين كلّ «هي» كـ «دُرّةٍ» غالية؛ أغنت الصياد عن كلّ صيد.. بصيدها قلبه؟!

***

«رسائلُ عائشة»

إنّ ما رأيته داخل سجلّ الهاتف المحمول لـ «أسيل» قد هوى على رأسي كهراوةٍ ثقيلة جعلتني أصرخ بوجْهها بجام ألمي: "ما هذا؟! ماذا تفعل هذه الأرقام داخل سجلّ هاتفك؟! إنّ هاتفك ممتلئ بكلّ أرقام الهواتف المجْهولة التي ما زالت ترسلُ لي رسائلَ التهديد ليلَ نهار؟! بهدوء وبدون كذبٍ أريد أن أعرف ما الذي يعنيه هذا؟!".

بوجهٍ شاحب وشفاه ترتجفُ، وصوتٍ متقطع يكاد لا يفهم من خضم الصّدمة، قالت أسيل لي: "إنّهم يتّصلون بي كما يفعلوا معكِ، لا أعرف مَن هُم أو ماذا يريدون، أظنّهم تتبعوني لأنني صديقتك، أقسم لكِ أنا لا أعرف عن تلك الأرقام أيّة شيء إلّا ما قلته لكِ".

ظلّت «أسيل» تكرّر أقسامها وكأنّها لا تريد لعقلي استنتاجَ شيء، كانت تريد أن ترسّخ بعقلي أنها مظلومة، وأنّها بالفعل لا تعرف مَن هُم أصحاب تلك الأرقام المشئومة، حالها أخبرني أنّها كاذبة وكلماتها القصيرة المكرّرة لا

تصلح لإقناع طفل صغير، كانت ترتجف برعب وكأنّها استيقظت لتجدَ نفسها في غابةٍ لا تعرف لها دليلًا ولا سبيلًا للنّجاة من وحوشها الكاسرة إلّا الجري السريع، فخرجت الكلمات من فمِها سريعة، متقطّعة، وباردة كأنفاسِها اللاهثة من الرعب، وكأني كنت أرى ما يدور برأسِها من أفكار، لكنّي لم أستطع الكلام لحظتَها من هوْل ما يدور برأسي أنا الأخرى.

أسبلت وكأنّي لا أريد أن أصدّق أنّني هناك، وأنّ كلّ هذا يحدث لي بالفعل، ليس أنتِ يا «أسيل»، إلّا أنتِ أرجوكِ، ليس أنتِ بالله عليكِ.

لا أدري هل كنت أصرخُ حقًّا بتلك الكلمات، أمّ أنني كنت أتوارى من الحقيقة خلف تلك الستارة البيضاء التي تسدلُ على البدن عند الصّدمة، فتحجب الرّوح لبعض الوقت في بقعة زمنية تشبه «مثلث برمودا»، كلّ شيء فيها أبيضُ وبارد، ثمّ نسقط في اللاشيء، قبل أن نعود بنظرة ثانية أو.. إلى يقين؛ أمّا بعد فقد منحني الله ذاك اليوم نظرةً ثانية يا «عهد»، وما اليقين على نفسي في القادم ببعيد.

سقطت مغشيًّا عليّ بشقّة «أسيل»، لا أدري كمْ من الوقت مرّ عليّ وأنا في تلك الحالة، لكنّني حين استيقظت كان بيتُ «أسيل» يكتظّ بالكثير من الوجوه التي لا أعرف أصحابها، لم أميّز من بينهم أحدًا مألوفًا سوى ذلك الطبيب الذي ابتسم في وجهي وهو يتمتمُ: "حمدًا لله على سلامتك".

كنت أتأبّط ذراع «ضياء» لأوّل مرّة منذ تزوّجته.. كنت متعبةً للمرّة المائة، وبدا خائفًا لأوّل مرّة.

حتى نصل إلى السيارة؛ كان علينا أن نقطع شارعًا طويلًا سيرًا على الأقدام، بالأحرى هو لم يكن شارعًا؛ كان أحدّ أزقة بلادي الذي يمتلئ

بالكثير والكثير من الوجوه الخالية من التعبير، فلا أحد يتعجّب من مرورنا بجواره أو من أمامه، وأنا في هذه الحالة المزْرية، وكأنهم اعتادوا على هذا المشهد، ويعرفون أحداثَه دون أن يخبرهم أحد، الجميع هناك مثل «أسيل» تمامًا.. الجميع يعرف ما تفعله، وبعضُهم شريكٌ لها فيه، عصابات في شتى المجالات أفرزها التجويع والبعد المُمَنهج عن الدّين، فامتلأت بها تلك المناطقُ التي تسمّيها حكومة بلادي بالعشوائيات.

لم تكنْ هذه المرّة الأولى التي أسير فيها داخلَ هذا الشارع، لكنّها المرّة الأولى التي ألحظ فيها هذه الوجوه الميّتة، وتلك البيوت الغريبة التي تطلّ عند كلّ تقاطع، قمامة متكدّسة في كلّ شبر، ورائحةُ المجاري تخترقُ وشاحي لتصل إلى أنفي بشكل مقزّز، جعلني أفلت كفَّ «ضياء» رغمًا عنه لأرفع وشاحي عن وجهي وأفرغ كلّ محتويات معدتي عند نصف جدار قريب، وكل تلك الأسئلة تدور في عقلي، ما الذي يحدث هنا؟! وكأنّني أخطو بين تفاصيل مكانٍ لم أطَأه من قبل، ما الذي حدث لي، أو ماذا حدث للمكان وأصحابه؟!.

وكأنّنا نرى بقلوبنا حين نحبّ، وكأنّ مكانة من سكنونا تجمل في أعيننا كلّ شيء يخصّهم!

هو المكان نفسه بفارق بعض الوقت، بضعة ساعاتٍ فقط هي الفيصل بين نظرتي الأولى له وبين نظرتي الثانية، لماذا لم أرَ أو أشمّ منذ ساعات ما أراه وأشمّه الآن؟!

كنتُ أمشي هذه المرّة على مهلٍ رغمًا عنّي، امتدّت نظرتي لأبعد من موضع قدمي، فوجدتني أهتمّ بتفاصيلٍ أوسعَ من وجه «أسيل» الذي كان يمتلئ

به ذهني وأنا قادمة إليها، أو من صدرها الذي ارتميت فيه كلّي منذ ساعات قليلة، كان صدرُ بيئتها المحيطة التي تحتضنها مخيفًا لمثلِي كحقيقتِها تمامًا، ساعتها فقط عرفت كلّ شيء.

عرفت أنّ الحقيقة ما هي إلّا نقطة زمنية فاصلة بين (منذ قليل كنت.. والآن أصبحت)، الحقيقة ليست في معطيات موقفٍ ونتيجة قرار، الحقيقة أحيانًا أن يكون لك معيارٌ تصنعه من حاجتك وافتقادك؛ فتستسلم لكلّ زيف تصنعه من حاجتك على أنه حقيقة.

الحقيقة؛ يوم طُرِد أبي من بيت صهره لمجرّد أنه قال الحقيقة، ثمّ طُرِدت ابنته وزوجها لمجرد أن الأخير لوّح لأبيه بجزءٍ من الحقيقة.

الحقيقة؛ يوم كتابة عقد شقّتي من حرّ مالي، فلوّح لي حماي غاضبًا إن شئت هدمتها فوق رأسك.

الحقيقة؛ يوم لفظ «ضياء» أمّي من بيتي، فأهانَها شرّ إهانة وهي الأبيّة عزيزة النفس، لمجرد أنه كان يشتري خاطرَ والدته حتى لا يقال خرج من أمّه وأبيه ورحّب بأمّ زوجته.

الحقيقة؛ يوم موتِ أخي وعزوف حماي عن تقديم العزاء فيه وغضبي الهادر لتلك الكبيرة التي اقترفت بحقّ أسرتي كلّها، والذي حاججني فيه كلّ نساء عائلة «ضياء»، ملقين اللّوم عليّ إذ اتّهمنَني بتفرقة الابن عن أبيه وكأنّ قولهن حقيقة.

الحقيقة؛ يوم استيقاظي على اتّهامي بالسّرقة على لسان عرّافة، وعلى يد كلّ نساء عائلة «ضياء» غير المنْصفات.

الحقيقة؛ يوم طردني حماي من بيت إحدى بناته شرّ طردة، بعد قطيعة استمرّت حتى أربع سنوات، بعدما ألحّت ابنته على أن تكون الخطوة الأولى منِّي؛ فاحتسبت، وأقدمت، وطُردت.

الحقيقة؛ يوم طرقت أخت «ضياء» الكبرى بابَ بيتي وهي تزعم أنّها قادمة لتعتذر، فلمّا لم تعتذر.. رفضت وجودها، فذهبت غاضبة بعد أن أشعلت النار ببيتي وكأنّها وحدها تحمل الحقيقة.

الحقيقة؛ يوم خطبة أخت «ضياء» الصّغرى ببيت حماتي، حين دخلت علينا أختها الكبرى وهي تمدّ يدها لأُصافحها على غير عادتها، فلمّا صافحتها بفتورٍ ثارت وهاجت وصرخت بين أغراب لا يعرفون الحقيقة.

الحقيقة يا «عهد»؛ يوم وجدت يدًا حانية كيَدِ «أسيل»، امتدّت لي على ما أرتني إيّاه منها فقبلت مصافحتها على عين طبْعي وكأنّ عين طبعي هو الحقيقة!

هذا كلّه هو الحقيقة؛ وليس كلّ الهراء الذي تفوّه به الجالس إلى جواري ساعتها، ليس في استنكاره.. كيف تعرف مثلي مَن هي مثل «أسيل»؟! كيف تدخل مثلي مثلَ هذا المكان؟! كيف تخبر مثلي مثلَها بحقيقة همومي وأوجاعي؟! وكيف أنه لم يكنْ موافقًا على تلك الصداقة! ثمّ ثار هنا إلى أقصى حدّ وهو يقول:

- "هل كنتُ أعرف أنّها تسكن هنا؟! هل لو كنت أعرف هذا كنت لأسْمح لكِ بتلك العلاقة مِن الأساس؟!".

جُملته الأخيرة أضحكتني كالمجانين، هيستيريا ضحك متواصلة اعْترتني لأوّل مرّة بحياتي، كنت لا أنظر إليه حتى لا يتحوّل ضحكي إلى بكاء، كيف

يصدّق «ضياء» نفسه وهو ينطق بمثله هراء على رغم معرفته التّامة بالحقيقة، ومعايشة معظمها كذلك؟!

لماذا يكابر بعضُ الرّجال عند المواجهة بالتنصّل وإظهار التجهيل عوضًا عن إقرار الحقائق؟!

ربّما لأنهم مسئولون.. والمسئول يحاسب على الإخفاق متى أخفق، فحتى رئيس البلاد أهون عليه أن يظهر جاهلًا أو مغفّلًا من قِبَل حاشيته، على أن يكون أمامَ شعبه مسئولًا معهم على نتيجة كلّ فعلٍ أو قرارٍ أو.. علاقة !

ما أنْ أغلق «ضياء» باب الشقة خلفنا، حتى تركني عند أقرب مقعدٍ بغضب، واتّجه إلى حيث يوضَع الهاتفُ الأرضيّ، التقط بيسراه سماعة الهاتف وقام بالاتصال بوالدته فورًا، أخذ «ضياء» يقصّ عليها كلّ شيء بإمعان، ثمّ أغلق الخطّ معها وخرج من الشقّة لأقلّ من ساعة، عاد بعدها ومعه «أنس» الذي مرّره على تلك الحضانة المسائية وهو في طريقه إلى بيت «أسيل» بعدما أرسلت له تلك الرسالة على هاتفه باستغاثةٍ مذيّلة بعنوان «أسيل».

عشرة أيّام يا «عهد» قد مرّت بلا حديث بيني وبين «ضياء»، كان هو الذي يتحدّث، وكنت لا أحتفظ بذاكرتي بشيء ممّا قاله لي، كنت في حالةٍ يرثى لها بالفعل، لم أكنْ أقوَ حتى على الانهيار أو ردّ القول بالقول، كنت منهكة، متعبة جدًّا إلى الحدّ الذي جعلني أترك الجميع يقولون كلّ شيء يودّون قوله.

«ضياء» كان مبتدأ الحديث، وخبره كان في تلك الاتّصالات التي توالت على الأخير من شريك «أسيل» كما سمعت، والذي اعترف لـ «ضياء» بما كان يدبّره مع «أسيل» من أمر سرقتنا، قبل أن يقرّر فضح أمرها بعدما أسمعه شريكهما الثالث تلك المكالمة بينه وبين «أسيل» والتي كشفت فيها لشريكه

عن رغبتها في تقديمه ككبش فداءٍ تغلق به صفحتنا إلى الأبد، كما أخبر «ضياء» أيضًا أنّه كان- وما زال- يسجّل لشريكته كلّ اتّصال بينهما، كما قال له- كذلك- أنّه يحتفظ لها بصورٍ فاضحة، فلم تكنْ «أسيل» بالنسبة إليه مجرّد شريكة.. كانت عشيقته كذلك.

لم يهتمّ «ضياء» إلّا بتلك الجزئية من حديث ذلك النصّاب المحترف، فتركه يسردُ عليه بعض تفاصيل تلك العلاقةِ المشوّهة بينه وبين امرأةٍ بعمر والدته كـ «أسيل».

"تعرّفت على «أسيل» عن طريق إحدى جاراتها، كان ابنُها سائق سيارة أجرة (تاكسي)، أقلّني ذاتَ مساءٍ من شرق مدينة الإسكندرية حتى غربها، وعلى الطريق السريع حيث لا أحد، قمت بإجباره على الترجّل من السيارة، ثمّ سرقت سيارته وكلَّ المال الذي معه وهاتفَه المحمول كذلك وهربت، من سوء حظّي أنّني قمت باتّصال هاتفي من جوّاله للمستأجر الذي كنت أؤجر منه تلك الشقّة في منطقة ميامي المعروفة هنا بالإسكندرية، حصل الشابّ على الرقم من شركة المحمول التّابع لها رقمه المسجّل لديهم باسمه ورقمه القومي، فذهب الشابّ وأمّه إلى حيث الشقة المُستأجرة واستولوا على كلّ شيء يخصّني بها حتى زوجتي أخذوها رهينة حتى يجبروني على الظّهور.

حين ذهبت إلى حيث أمروني بالمجيء، كان وجهُ «أسيل» هو أوّلَ وجهٍ رأيته بالمكان، نظرتها أخبرتني أنّها امرأة لعوب، ويبدو أنّني أعجبتها، قامت بتهْريبي وزوجتي من المكان دون أن يعرف أحد، تواصلنا هاتفيًّا بعدها طويلًا، ثمّ تطوّر كلّ شيء بيننا بسرعة لتصبح شريكتي في الفراش وفي عمليات النّصب كذلك، كانت تجيد التخطيط وكأنّها قد وُلِدت لصة، لقد

قمت بسرقة كلّ شخص تعرفه «أسيل» بتخطيطٍ منها، كلّ خططها السابقة سارت فيها الأمور على ما يرام حتى رأتْ زوجتك سجلّ هاتفها وكشفت كلّ شيء".

كلّ ما كان يهمّ «ضياء» وهو ينصتُ إليه بكلّ تركيزه أن يعرف منه ما هي بنود ذلك الاتفاق الذي دار بينه وبين «أسيل» عن كيفية سرقتنا، فأخبره اللّص بكلّ شيء يريده ثمّ أكّد على «ضياء» من جديد أنّ كلّ شيء مسجّل لديه، ماذا يسرقون وكيف ومتى، وكيف أقاموا خطّتهم على أساس أنّني من ستتّهم بتلك السرقة فقد سبق واتّهمني أهل «ضياء» بأمرٍ مماثل من قبل.

اتّصل «ضياء» بـ «أسيل» وأخبرها بفحْوى تلك الاتصالات كاملة مدعيًا أنّه لا يصدق شيئًا ممّا يسمعه بحقّها، لم يكن بوسعه فعلُ شيء غير هذا، فكلّ ما يؤرّقه طيلة عشرة أيّام مضت؛ كان ذلك المبلغ الذي سبق وسحبتْه منه «أسيل» للتجارة به في بيع وشراء الأجهزة الكهربائية، مقابل تلك النسبة البسيطة التي تحصل عليها من كلّ جهازٍ تقوم ببيعه، لا يريد «ضياء» خسارة أمواله أمّا «أسيل» فلتذهب إلى الجحيم بعد ذلك.

كان اتصالُه بها بمثابة قشّة نجاةٍ لها هي الأخرى، فقد حدث الكثيرُ والكثير لها في تلك الأيّام العشرة الماضية، اختلفت «أسيل» وشريكها بعد تلك المواجهة بيني وبينها، هو يريد المال الذي وعدته به من سرقتي، وهي ذهبت كلّ خططها أدراج الرياح، كانت تثبّطه بمعسول الوعود، وكان لا يفهم سوى لغةِ المال، وإلّا سيرسل لأسرتها كلّ ما يدينها ويثبت عليها بعض شكوكهنّ فيها.

اضطرّت «أسيل» أن تعطيه بعضَ مصوغاتها الذهبية بعد أن قام بتهديدها بتلك الصور والمكالمات المسجّلة، فكّرت أن تشيع أنّ هاتفها قد سرق،

وأنّ اللص الذي سرقه وجد لها صورًا خاصّة داخله، ومن ثمّ فهو يهدّدها بالاتصال بزوجها وأهلها، خاصّة وأنّ كلّ أرقام أسرتها مسجّلة لديه على الهاتف المسروق، حتى رقمي ورقم «ضياء» كذلك.

اتّصال «ضياء» بها أكّد لأسرتها التي هُرعت إليها من «كفر الشيخ» فوْر تلقّي أفرادها اتصالات مشابهة لتلك التي تلقّاها « ضياء» ولكنْ بأحداث مختلفة؛ صدق اختلاقها لواقعة سرقة هاتفها تلك، فقد قام شريكها الذي أصابه السّعار على المال بالاتصال بكلّ أخواتها وأولادهن، وأخذ يقصّ عليهم من واقع ما كانت تقصّه عليه كلّ يوم من أحداث يومها معهم، الأمر الذي جعله يعرف عنهم كلّ شيء، وبالتالي صار من السّهل عليه أن يعطي كلّ أختٍ لها الجزء الذي يخصّها ليثبت هو تمام كلامه.

لكنّ «ضياء» باتصاله ذاك جعل أسرتَها تضع نسبةً عالية لتكذيب ذلك الحقير في كلّ ما سَمِعنَه منه عنها، رغم أنهنّ يعرفن عنها الكثيرَ الذي يثبت أقوالَ ذلك السافر بحقّها، إلّا أن تبييض صحيفة أختهم أمام الغير أسمى من إثبات حقيقتها أمامهم وإن بلغت ظنونهم فيها حدّ اليقين.

زيارةٌ خاطفة قام بها ذلك النّصاب إلى بيتنا ذاتَ مساء رمضانيّ، كنت أنا فيها بالداخل مغيبة لا أقوى على استيعابِ كلّ تلك الحقائق بعد، «أنس» أخذه أبوه إلى والدته لتقوم برعايته حتى أستَعيد صحّتي، بينما أنا بشقتي مع زوجٍ لا يكترث لشيء سوى ماله، ونصّابٍ يجالس ذلك الزوج في صالون بيتي!

تركَ له ذلك النصاب قبل أن يذهب ذاكرة هاتفٍ نقلَ إليها بعض صور «أسيل» وبعض المكالماتِ بينه وبينها، ثمّ ذهب مسرعًا بعد أن طلب من «ضياء» كوبَ ماء وهو ينتظره عند بابِ الشقة.

لم يكن مجرّد كوبِ ماء، فعينا النّصاب لمحتا شيئًا بقرب الباب جعل فكرةً شيطانية تنبت داخلَ رأسِه في ثوان.

***

ليس من ظمأ أقسى من أن يتراءى لك السّراب، بينما الماء يحيط بك من كلّ جانب؛ حين يتجلى عذب الحنين فوق ملح الصّدق لا يميّز هذا من ذاك إلّا المذاق لمَن ذاق، و«عهد» لم تذقْ بعدُ أيًّا من مذاقي الخلود، عالقة هي كأوّل العالقين في برزخ العشق، جسدُها في أرض، وروحها في أخرى، ودقائق بعثها لا تطول، حين يلقي عليها «يوسف» السلام أو يطرح سؤالًا، ثمّ يخطف روحَها ويقذف بها بين حاجزَي اللّا موت واللّا حياة من جديد.

لم يكنْ يبدو عليه نيّة مشاركتها حياته إلّا في عالم الافتراض، يكفيه منها دوام الحلول عبر كلّ شيء ليس له صلة بالدّم والرحم.

ما زالت كلمة «أحبّك» في جوفها بكرًا، لم تنطقْ بها بعد، تصعد كلمتها والكاف ملصقة بنهايتها من أصغر أظفار قدمها كموجةٍ تبحث لدُرَرِها عن شاطئ، فلا تجد سوى إطباقِ شفتيْها كصخرة، تفتّت لملمتها وتجعل حاملتها في شتات.

كلّ ذكرياتها معه مصنوعةٌ من صور وقصيدة والكثيرِ من الكلام، كان يخبرها بكلّ تفاصيل يومه، يصف لها كلّ مكان تطأه قدماه وروّاده، يرسل لها كلّ ملابسه في صورة ولا يرتدي إلّا ما تختاره له، حتى صورته فوق حائطه كانت مِن اختيارها، وكم كان يسعده ذلك!

حين لاحظتْ «عهد» أنه لم يعدْ يقوم بنشر صوره بنفس الكثافة فوق حائطه الافتراضي، سألته:

– أين «يوسف»؟!

– تحت جلدِك يا «عهد»، أنا أشعر بي تحت جلدك تمامًا.

لم يرسلْ شيئًا لثوانٍ ثمّ استطرد بجدية:

– أعرف ما تقصدينه، تسألين عن صوري فوق جداري، أعرف أنّ هذا ما قصدته بسؤالك، أنا أفهمك من صمتك.. من نَفَسِك وأيْمُ الله.

ظهرَ أمامه أسفل إجابته أنّها تكتب فأرسل لها سريعًا:

– شششش.. لا تكتبي شيئًا الآن، تعالي.. ضعي رأسك فوق كتفي واشهدي على ميلاد هذه القصيدة كأوّل ملهمةٍ وأوّل قارئة كذلك.

ثمّ أرسل لها عدّة أبيات من قصيدة نثرية، اعتلى اسمها أوّل أبياتها كانت قصيدتها هي، قصيدة «عهد» رغم أنّ كاتبها هو.. «يوسف عزيز»، الذي قام بالاتصال بها فوْر انتهائه من آخر بيتٍ بالقصيدة، فلم يلقَ تحية أو ينتظر سلامًا، لقد أخذ يلقي أبياتِه الشعرية بدفء صوته، وكأنه أمواج دافئة في مساءٍ شتوي ممطر!

منكبان تجاورا وقلبان تماسّا، وروحٌ واحدة لنَفْسَيْن، كانت إحداهما تقرأ والأخرى تستمع، هكذا تآلفا قرب كتاب، وتوحّدا في قصيدة، صوته كان رجيفًا عند نطق بعض الكلمات، وعند أخرى هادرًا، وفي المنتصف أبعاض تتطلب صوتًا حالمًا وكأنّه يغازل القمر على ضوء شمعة!

كم هو آسرٌ وجاذبٌ عندما يلقي الشعر!

أبعاض بشرٍ وروحُ ملاك، لا يعرف للمهلِ سبيلًا، جواد بريّ لكنّه عَشِق لُجمه حين أصبح طرفها في قبضة امرأةٍ قوية..

«عهد».. تُسدل له شَعْرها لجامًا، فينثر لها شِعرَه شَرَكًا، لم تكن تحاول الإفلات من محيطه، هي تريد البقاءَ إلى جواره حتى يُبعَث، أسطورة المُهْرة وحيدة القرن ما زالت تراود خاطرها كلما بخيالها حَلَّقت، أن يأتيها ميت، فتمسّه، فيُبعث، لم يدرك هو ذلك بعد، ما زال عالقًا في أبعاض بشريّته، وما زالت هي تستدعي من داخله روحَ الملاك.

– «عهد».

– نعم.

– أريد أخْذَ رأيك في أمر يشغلني.

– قلْ ما يشغلك، وإيّاك أن يكون أمرًا تافهًا كبعض حكاياك.

– صديق لي زوجتُه تحفظ القرآن بالقراءات العشر، لكن حدثَ معها شيء غريب وصديقي محتارٌ بأمره، لأنّه لو منعها من الذهاب إلى شيخها ذاك، ستضطر أن تبدأ من جديد مع شيخ آخر، وقد مرّ من وقت إجازتها بقراءة ورش عامان، أي أنّها ستضطر أن تَبدأ من جديد مع شيخٍ جديد فلا يقبل شيخ أن يتمّم ما بدأه آخر.

– أنا لا أفهمُ منك شيئًا، تبدأ من نهاية الحكاية كعادتك، ارجع إلى البداية يا «يوسف» وقل لي لماذا تترك زوجةُ صديقك شيخَها بالأساس؟!

– هونًا يا «عهدي» سأقصّ عليكِ الأمر كلّه الآن، صلّي على النبي محمد.

– اللّهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ها.. احْكِ.

– زوجة صديقي أخبرته أنّ شيخها ذاك، يستغلّ وجودهما وحدهما في المقرأة، ويبدأ بقراءة بعض آيات القرآن عليها، فتغيب هي عن الإرادة وليس الوعي– أي أنها تشعر وترى وتسمع ولكنّها لا تملك من جسدها أيّة ردّة فعل ولو بكلمة تتفوّه بها، ثمّ يهمّ ذلك الشيخ أن يتحسّس بعض مواضع جسدها الحسّاسة، وهي بلا أدنى إرادة لتعترض على هذا، وما أن ينتهي حتى يعيد لها إرادتها بقراءة بعض الآيات الأخرى على مسامعها.

– ما هذا الهذيان الذي تقصّه عليّ يا «يوسف»؟! هل تصدّق شيئًا ممّا تفوّهت به الآن؟! لا أظنّك تصدق من هذا الافتراء حرفًا، ثمّ ما بال صديقك بلا نخوة! دعني أفترض أن ما تقوله الآن حقيقيّ وحدث بالفعل، مجرّد أنّ تلك المرأة تتذكّره بعد الانتهاء منها، ثمّ تتمسك بالذّهاب إلى ذلك المعتوه الذي تسمّيه شيخًا؛ فهي قد أعجبها فعله! القاعدة الشرعية تقول: "النيّة الصالحة لا تصلحُ العملَ الفاسد"، نيّتها الإجازة ولكنّها تريد بعد هذا أن تذهب إلى هذا الفُجْر! ثمّ يستفتي زوجها صديقه في هذا الدّنس! أيّ بلاء هذا يا الله!

صمتتْ «عهد» لبعض الوقت، وتركت «يوسف» يخرج كلّ ما في نفسه من شكوك وحيرة، قبل أن يقفز اسمُ «زهرة» في رأسها فجأة..

– «زهرة صلاح»؛ أليس كذلك!؟ صاحبة هذه الرّواية الباطلة هي «زهرة»، لا يمكنك الكذب عليّ يا «يوسف»، أقسم لك أنّها هي.

– أقول لكِ المسألة كلّها تخصّ صديقًا لي، وأنتِ تقولين لي «زهرة» وتقسمين، لو أنها هي لباشَرتك بالأمر ما الذي يجعلني أكذبُ عليكِ لأي سبب؟!

– قل لي يا «يوسف»، مِن أين صديقك هذا؟!

– مِن الصعيد.

– و«زهرة» مِن أين؟!

– مِن الصّع...

قطعَ «يوسف» كلمته فجأة، ثمّ استطرد حديثَه بلا وعي، وبغير تركيز، وهو يردّد الكثير من الأقسام ويلقي على مسامع «عهد» بتلالٍ من التبرير، تركته «عهد» حتى هدأ وصمت قبل أن يطالبها بحسمِ قولها تجاه هذا الأمر، فقال بنبرةٍ اجتهد أن تخرج منه حاسمة:

– هل تصدّقيني أمّ لا؟! أرجوكِ اصْدقيني القول الآن لأنّ هذا الأمر هامّ جدًّا بالنسبة لي وفاصلة كبيرة فيما بيننا.

– هل تدري يا «يوسف» ما المُعضلة؟ المعضلة ليست في وصولك إلى تلك المساحة من تلك المرأة، حتى تقصّ عليك أمرًا كهذا بهذه الأريحية وكأنّك زوجها الذي ادّعيت أنه صديقك الآن، بل الأزمةُ في إنكارك كلّ هذا بكلّ هذه الأقسام والتبريرات، والمعضلة أنك تحاول إتيانَ كبيرةٍ وأنت تكذّب إحساسي الآن، أعرف أنّها هي وأبرّك من كلّ قسم قد تقسمه في هذا الأمر مستقبلًا، بأن تطوي صفحتها إلى الأبد.. فهل تقدر على هذا؟!

– وضِّحي كلامك أكثر، ما الذي تريدينه بالضبط؟!

– إلغاء صداقةٍ، وحظر، ووعد منْك أنك لن تتواصل مع تلك المرأة من جديد، ما رأيك في هذا؟

– فورًا سأفعل كلّ ما أمرتِ به، من أجل إرضائك فقط، لكنْ صدقًا لم أتواصل مع تلك المرأة أبدًا، عليكِ أن تعلمي هذا جيدًا يا «عهد».

مِن وراء حجاب..

كُن زوجات رسول الله– صلى الله عليه وسلم– محرّمات على الرجال من بعده، ومع ذلك أمر الله– عزّ وجل– المؤمنين من عباده بعدم دخول بيوت رسوله من بعده إلّا أن يؤذن لهم بطعام قد دُعوا إليه، وإذا أرادوا شيئًا يطلبوه من وراء حجاب، لتظلّ القلوب طاهرة، وحتى لا يؤذى رسوله الكريم في مرقدِه، كلّ هذا وزوجاتُ رسول الله محرّمات من بعده! فماذا لو أنهنّ أمرُهنّ فُرُطا؟!

لم يقل الله– عزّ وجل– لا تزنوا، بل قال سبحانه: "ولا تقربوا الزنا"، وكأنّ كلّ قرب غواية والعافية في غض الرّغبة!

أفكار كثيرة تدور برأس «عهد» منذ سجّلت خروجًا من حسابها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، لقد حان وقت جلدِ الذات الذي كانت تجيده «عهد» جيدًا، ليس قديسًا كما كنتِ تتمنّين يا «عهد»، لكنه ليس مغامرًا كذلك! هو أكثر عوجًا عن ما تمنّيتِ يا بنت «إبراهيم»، إنّه صيادٌ محترفٌ، يملك أغلى أدوات الصيد، واجهة، اسم، موهبة، وجمال روح يستخدمه في غير موْضعه، فما بالك تتألّمين من الحقيقة وكأنّك لم تستدعِها بخيالك من قبْل؟! ها هو رجلكِ المنتظر وكافُكِ المفقودة أمام ناظريك متيّمٌ بسواكِ، فهل تكونين له الماء على دنَسِه أمّ تتركينه وقاربه في صحرائِهنّ متيّمًا بكلّ شاردة؟!

ما زالت دائرةُ المحادثة بجوار اسم «عهد» رماديّة، إلّا أنّ «يوسف» أرسل إليها دليلَ لفظه لـ«زهرة» من حياته الافتراضية كما طلبت منه، بينما ذهنه غارقٌ في تلك الذكرى..

من دون مقدّمات سألته «عائشة» فجأة:

– «يوسف»، مَن هي «زهرة صلاح»؟!

أطلق ضحكةً مجلجلة وهو يقول ببراءة:

– يا بنت المجنونة! بالله عليكِ أخبريني هل كان من بين عائلتك أحدٌ مجنون يا «عائشة» ها..؟!

– هل انتهيت؟

– نعم.

– حسنًا، مَن هي «زهرة صلاح»؟!

– إنّها صديقة مقرّبة لزوجتي.

– توقّعت هذا الردّ منك.

ثمّ أطلقت زفراتٍ حانقةً متتالية جعلته يردّد اسمها أكثر من مرّة حتى تتوقّف وتسمعه.

– «عائشة».

– نعم.

– لماذا «زهرة» تحديدًا؟! بينما كثيرات هنّ متابعات حائطي ويعلّقن عليه؟

– ستعرف فيما بعد، أو ربّما لن تعرف أبدًا.

أطلقَ «يوسف» ضحكة طويلة هذه المرّة قبل أن يقول:

– لا أعرف «زهرة» تلك صدّقيني، لو كنت أعرفها لن أنكرَ هذا منكِ تحديدًا، ثِقِي في هذا.

– لكنّها تابعتني اليوم، وهذا يؤكّد شعوري نحوها، لذا فأنا أكرّر عليك سؤالي كفرصة ثانية، ربّما تريد أن تجيب إجابة مختلفة هذه المرّة، مَن هي «زهرة صلاح» يا «يوسف»؟!

ضحكات متقطّعة بشكل مسرحي أطلقها من جديد قبل أن يقول:

– دعْكِ منها ودعيني أعدّ لكِ معي كاسة شاي بالنعناع الطازج، أعرف أنكِ من عشاق القهوة لكنّك ستفضّلين الشاي بعد أن تتذوّقيه من يدي.

***

«رسائلُ عائشة»

استيقظت في اليوم التالي بخافق كاد يتوقّف من إثر تلك الفاجعة التي حلّت فوق رأسي فجأة وكأنّني في كابوس!

أربعُ نساء متوشّحات ببنية ضخمة فوق رأسي، إحداهنّ تزجرني، وأخرى تناديني باسمي، وثالثة تسحبني من فوق فراشي فتُسقطني أرضًا، أفواههنّ الأربعة تفرز عن بذيء الألفاظ، وأطرافهنّ الثمانية ترتفع لتسقط على مواضع متفرّقة من جسدي، وأنا مبهوتة لا أقوى حتى على الألم، بضعةُ أوراق ألقتها إليهنّ خامسة، وعادت تقف مستقيمة وهي تتأبّط ذراعيها فوق صدرها لا يبدو من وجهها إلّا تلك العينان الثاقبتان تنظر بهما إليّ مِن خلف وشاحها الذي كان مثيله يسدلُ من غير هندمةٍ فوق وجوه الأربعِ نساء الأخريات.

لا أتذكّر كيف أنّني قمت بتوقيع كلّ الأوراق التي أجبرْنَني على توقيعها، وكأنّ تلك الهراوة التي سقطت فوق رأسي بعدما أجبرت على التوقيع لم تفقدني الوعي فقط، لقد أفقدتني الذاكرة كذلك!

استقبلني وجهُ «ضياء» عندما عدت إلى واقعي من جديد، كان «ضياء» يربتُ على وجهي في محاولة منه للتأكّد أنّني ما زلت على قيد الحياة، وما أسوأ أن تستيقظ على حياةٍ كلُّ الوجوه فيها كتلك الوجوه التي أحاطت بي بتلك اللحظة!

أسرة «ضياء» بأكملها كانت في بيتي، بينما والدتي ووالدي كانا ينتظران أن أستعيد وعيي حتى يذهبا، لم يستطيعا تحمّل الهمز واللّمز من البعض وبعض المجاهرة بما يَكرهان من آخرين، بينما «ضياء» ما زال يترك بلاغًا هاتفيًّا للنّجدة للمرّة العاشرة؛ كانت والدته تهمس في أذنه اليسرى:

- "المغرب أذّن منذ ساعة، ألن نفطر يا بنيّ؟".

محضرٌ في قسم شرطة باسمي لأوّل مرة بحياتي، أمين شرطة لا يريد بقاء أحدٍ معي فأخرِج الجميع، انتهى الأمين من كتابة المحضر، ثمّ أدخلني لرئيس مباحث القسم بمكتبه، أخرج الأخير سلاحَه ووضعه فوق مكتبه، ثمّ خلع حذاءه وهو ينظر إلى المحضر أمامه بجمود، وبصورة تمثيلية مدّد كلتا رجليه في وجهي، وأخذ يسألني وهو يرمقني بنظرات متفحّصة وأنا أجيب.

عدْنا إلى البيت؛ «ضياء» وأنا، الجميع ذهب ولم يبقَ سوى حماي وحماتي وابنتهما الصغرى، وكأنّني هبطت فجأة في بلاد غريبة كلّ سكانها بمقلٍ عند طرف أعينهم، تجاوزت تلك النظرات الجانبية من أبويه، ودلفت إلى غرفتي تاركة لهم بيتي يعيثون فيه عربدة كما يحلو لهم.

كان حماي يتعمّد فرض سيطرته بزهو المنتصر في أهمّ معاركه الأزلية، يلقي بأوامره بصوت عالٍ جدًّا على مسامع «ضياء»، بينما حماتي تقف أمام المبرّد في مطبخي، وهي تفرغ كلّ محتوياته في إناءٍ كبير لتوزّع الأطعمة على وجبات الطعام بحَسب الموجود، أما أخت «ضياء» الصّغرى فكانت تأتي لتفقّدي كلّ ساعة والدّموع تترقرقُ في عينيها.

بدا أنّ كلٍّ من حماي وحماتي قد تقلّد كلّ منهما منصبَه في بيتي بما كان يتمنّى، و«ضياء» بجانبهما طيلةَ النهار ولا يجمعني به سوى الفراشِ أو السيارة ونحن ذاهبان إلى قسم الشرطة لنتابع سير المحضر.

ما زال النّصاب يتّصل به ويطلب منه مقابلته ليعطيه الأدلّة التي تثبت أن «أسيل» هي مَن فعلت بي هذا، وأنّها كانت ضمن الخمس نساء التي أجهزنَ عليّ، هذه المرّة كان والده يشجّعه على دفع المال لهذا النّصَاب المُحترف، من أجل الحصول على تلك المكالمات الهاتفيّة المسجّلة لـ«أسيل»، والتي كانت تقوم الأخيرة في إحداها بإخباره عن كيفية توزيع إيصالات الأمانة التي أجبرْنني على توقيعها ضمْن أوراق أخرى كثيرة، على صويحباتها بالاسم وبعض أقاربها كذلك.

اتّهامات أسرته متجدّدة مع كلّ حدثٍ أنّني السبب في كلّ هذا، بينما «ضياء» يطلب اصطحابي إلى الشّهر العقاري لعمل توكيل عام له ينقل به كلّ شيء باسمي إليه تحسبًا لأي فعل قد تُقدِم «أسيل» عليه بما لديها من أوراق موقّعة بخطّ يدي، فلا أحد يدري ما هي طبيعة تلك الأوراق التي أجبرتني على توقيعها.

ما الضّير أن يأخذ «ضياء» ما تبقّى من إرثي الذي تركه لي عمّي الأكبر قبل موته؟!

ما الغريبُ في هذا وقد سبقه إلى نفس الفعل أبي من قبْل؟! حين طلب منّي عمل التوكيل نفسه إليه، فاستولى من خلاله على الكثير من أملاكي بحجّة الإدارة تارةً والمحافظة على المال تارةً أخرى، حتى أنّه لم يوافق على إعطائي من مالي الذي تحت يديه ما يغنيني عن بيع مصاغي حين قرّرنا تركَ منزل حماي بعد أن طردني و«ضياء» منه قبل سنوات من الآن، لم يعدْ هناك شيءٌ مخيفٌ بمخيلتي بعد هذا، فليأخذ «ضياء» كلّ ما تبقّى من معاركي مع والدي، ولتذهب الدنيا بهم جميعًا إلى حيث أرادوا.

أنا لا أريد شيئًا..

أنا لا أريد شيئًا، لا أريد أي شيء، أرجوكم خذوا كلّ شيء ودَعوني وشأني.. كان انهيارًا من النّوع الحادّ جدًّا، وقف فيه والدُ زوجي على باب غرفتي يقذفني بأقذع الألفاظ، بينما أمّ «ضياء» تمصمصُ شفتيها كعادتها وهي تلهو بشفتِها العلوية بأصْبعيها السّبابة والإبهام، ونظرُها زائغ بين الجميع، و«ضياء» يكبّلني بكلتا ذراعيه وهو يصرخ بي أنِ اهدأ، كلّ شيء بيني وبين حماي كان يطير باتجاهي، كان يقذفني بكلّ شيء دون رحمة، لو كان بين ما وصلني منه سكينًا ألقى به تجاهي بنفس الغضب الذي يعتريه الآن؛ فغُمد في قلبي وأرْداني في التوّ لكان أهون عليّ من كلّ هذه الإهانات.

استقبلتني تلك المساحةُ البيضاء من جديد فسقطت مغشيًّا عليّ، بينما الجميع يصطفّون حولي في انتظار طرفٍ يعاد، وعفوٍ يراد، وقلبٍ عليه احتمال كلّ هذا! وما زلت أسمع من بعيد ذلك الصوت الذي لا ينفكّ يصمت أبدًا.. يردّد ويردّد بلا انقطاع.. «عائشة».. «عائشة».. «عائشة».. «عائشة»..

***

أحبّك

أحبّك

أحبّك

بين كلّ دقيقةٍ وأخرى كان «يوسف» يرسل بثلاثيّة «أحبّك» إلى «عهد»، هذه المرّة قفزت ثلاثتهم في محادثةِ امرأة أخرى.. «أسيل»، إحدى نساء بلدته مولدًا إلّا أنّها تقطن بالإسكندرية منذ تزوّجت، يعرفها «يوسف» وأسرتها جيدًا، الحديث بينهما لا يتجاوز المجاملة، كانت هي من تبدأ الكلام في كلّ مرّة، وكان هو يردّ عليها بكلماتٍ مختصرة ورسمية، ليست «أسيل».. إنّها من النّوع الذي لا يفضّله، عوضًا عن أنّها سافرة الوجه وترتدي تلك النوعية من الملابس التي لا تجذبُه.

– «عهد»، أغيثيني.. لقد أرسلت «أحبّك» ثلاثَ مرّات لإحدى نساء بلدتي، انصحيني على الفوْر ماذا أفعل؟!

– اعتذرْ منها، وقلْ لها إنّك كنت ترسل الكلمة إلى زوجتك، بالوقت الذي ظهرت نافذة المحادثة بينكما دون أن تلحظَ أنت أنّ مؤشر الكتابة قد انتقل تلقائيًّا إلى نافذتها لأنك كنت تكتبُ على عجل، وهذا ما يحدث بالفعل يا «يوسف» في نظام المحادثات، إذ ينتقل المؤشّر لكلّ نافذة جديدة تنضمّ لنظيرتها أسفل متصفّح فيسبوك فوْر إرسال صاحبها رسالة.

– لن أكتبَ لها شيئًا، هي ستفهم وحدَها أنّ الرسالة وصلَتها بالخطأ.

– «يوسف»، لا تعرف ما الذي تفعله هذه الكلمة بقلب امرأة! من فضلك افعلْ ما قلته لك وفورًا.

وعدَها «يوسف» أن يفعل ثمّ غيّر دفّة الحديث إلى موضوعٍ آخر، مرّت أيام وأسابيع وكلّما سألته «عهد» ما الذي حدث بينكما في ذلك الصّدد، كان يجيبها بسرعة: "الأمرُ مرّ يا «عهد»، لم ترسل المرأة شيئًا لعدّة أيام ثمّ تحدّثنا وكأنّ شيئًا لم يكن".

شيءٌ من الفتور سرى بروحِها تجاهه، كلّ يوم يمرّ كما كان، ما زال هو يفعل كلّ طقوس الصلة كما هي، لكنّ شعورها تجاهه لم يعدْ ينساب كماءٍ في جدولٍ اعتاد كلّ الحجارة أسفله، كانت تشعر أنّ حجرًا جديدًا قد ألقي، حجرٌ غريب يجعل تدفّق شعورها نحوه يصطدم به، هي تشعر بغبار التيمم من جديد ينتشر في هوائه!

هل سلك «يوسف» بقاربه دربًا إلى الصحراء من جديد؟ هل أوحشه التيمم؟ يبدو أنّ الصياد قد عاد بغنمة شاردة وقعت في شراكه دون جهد!

أنفـاسٌ ثالثة..

كانت تشعرُ بأنفاسٍ ثالثة بينهما، لقد سبق ومنحته عفوًا عن كلّ مَن سبقوها إليه على ألّا يعودَ لسابق ما كان عليه أبدًا، ووعدها.

لماذا منحته هذا العفوَ المشروط بعدم العودة لما كان عليه وهي لم تداوه بالتي هي الداء؟! كيف لمدمنٍ مثله قد أدمن هذا النوع من المتعة أن يتعافى من دون ترياق؟! فحتّى جناحي الذبابة أحدهما يحمل الدّاء والآخر الدواء، والفارق بين المرض والتّعافي في نصف سقطة و.. غمسة كاملة!

نفسُ الفعل هناك قد يؤتى هنا في حلال الله، والأمر لا يتطلّب سوى قرار تصبح نتيجته ورقة وشاهدَيْن وكلّ ما كان عضالًا هناك يصير شفاءً هنا.

– ما بالك ترفض التعدّد يا «يوسف»؟!

– أنا ابنُ أب وُلد من زوجة جدّي الأولى التي ظُلمت وولديها على يد الثانية وأولادها، وقد عانيت وإخوتي من هذا الظلم كثيرًا، فكيف لَمن ذاق هذا الظلم أن يذيقه لأولاده من بعده، ثمّ إنّني مُكْتفٍ بزوجتي؛ لقد أعطتني تلك المرأة الكثيرَ، ومثلها لا يكون هذا جزاؤه أبدًا.

– لكنّك بلا أولاد، فلماذا تخشى الزّواج الثاني إذًا؟! ليس لديك مَن تخشى عليهم من ماضيك الآسن هذا، وأمّا زوجتك فهي في دارها كما هي، هذا حقّك الذي منحه الله لك.. "مثنى وثلاث ورباع".

– "وإنْ خفتم أن لا تعدلوا فواحدة" أكملي الآية يا «عهد»، وأنا أعرف وسع نفسي ولا أضمنُ في نفسي أنْ لا تميل وتظلم.

ودّت لو أحرقتْه حيًّا بسكب حقيقته التي تكاد تراها وتعرفُها فوق رأسه، لكنْ لا دليل على ما تشعر به إلّا أنّه يحدثها في الصباح فتكون بخير، ثمّ يعتريها الاختناق والنفور منه فجأة وكأنّ أنفاسًا ثالثة تسكن أذنيها وهو يحدّثها في الضّحى من جديد، ظلّت على هذا الحال فترة طويلة، مدّتها ثلاثة أشهر كاملة، كانت «أسيل» بطلة التّعليقات فوق حائطه في تلك الفترة.

ذِكْرٌ لاسمه من قبلها فوق منشور على صفحتها كان طرفَ الخيط لمباشرة «يوسف» بالسؤال عنها:

– «يوسف»، مَن «أسيل»؟!

– امرأةٌ من بلدك.

– أم هي المرأة من بلدك التي استقبلت ثلاثية أحبّك بالخطأ.

– ادخلي حائطَها يا «عهد»، هي من بلدك تستطيعين مقابلتها إن أردتِ.

– وما علاقة امرأةٍ من بلدي بك؟! ليست كاتبةً ولا شاعرة، ولا محامية كذلك.. فما الرابط بينكما؟!

– «عهد»، أنا شخصية عامّة، والجميع يقصد حائطي، هوّني عليكِ أرجوكِ، فلا شيء يستحقّ كلّ هذا الاستجواب.

– لكنّها ذكرتك فوق منشورٍ لها احتوى تلك الأنشودة التي تعشقها لمشاري راشد العفاسي (بنات الريح).

– «عهد»..

– نعم.

– أنا أحبّك.. ولم أعدْ أريد من النساء سواكِ، وارتباطي بكِ سيحدث، لكنْ متى لا أدري، هذا إنْ كان لديك نفس الشّعور تجاهي.

«عهد» لا يهمّها متى سيرتبط بها، لم يشغلها هذا الأمر حتى الآن، كلّ ما تريده ويشغلها أن يكتفي بها، وإنْ لم تعترف له أبدًا أنّها تعشقه منذ أوّل وهلة رأت فيها صورته فوق حائطه، لكنه ما زال يصلها كصلةِ صغيرٍ بأمّهِ كلّما كانت له حاجة يقصدها، بينما صلتُها به كصلاةِ عابدةٍ متنسّكة تقصد الفردوس؛ هذا هو الفارق بين حاجته منها وإيمانها به.

أيَا ظِلَّ الأرض اخْتفِ عن روحِ حِبِّي، أيَا ظُلمةَ الطين انقشعي، واجعلي الأرواح تشرق، أيا روحي التي معه دثّريه.. دثّريه.. دثريه، واتركي فوقه أثر حلول.. حتى «ينجو فأطمئن».

ليست كلمات تكتبها «عهد» فوق حائطها؛ هو عشقها في هيئة دعاء ورجاء، تخاطب بالأول خالقَ الأرض وترجو بالثاني ترابَها أن يبتعد عن روح «يوسف» فلا يؤذيه، تعويذة عشق مشبعةً بلؤلؤ مقلِها الذي لم يسِلْ بغزارةٍ إلّا عند دعائها له، ودعاؤها معتّق بمسك بكارتها التي تودّ لو تلقيها عليه من روحها التي معه، ألَا ليت لروحها تلك الإرادة فتضمّه ضمّةَ طهر لا يُدَنَّس بعدها أبدًا.

– «يوسف».

– قلب «يوسف».

– "أتدري شيئًا عن عطش القلوب وفزع الكواسر؟!".. أنا الآن أمزّقُ، والشوقُ وحشٌ لا يميتُه إلّا «عناق»!

كتبتها «عهد» إليه، وتركته يكتب ويكتب..، ورغم أنه لاحظَ فرارها بانطفاء تلك الدائرة الخضراء بجوار اسمها، إلّا أنّه لم يتوقف، استحضر بين أصابعه كلّ كلماته المكرّرة من ذاكرته الممتلئة باسطوانات خبرته في التّعامل مع النساء، وجعل أصابعه تنقر وتنقر فوق لوحة المفاتيح أمامه..

ألَا ليت قلبه يدقّ فوقها مرّة.

***

مرّ الشتاء ببرودته التي تشعل في القلوب شموعَ الحنين، وقارب الربيع أن ينتهي، وما زالت «زهرة» ذابلة؛ لا زخّات ديسمبر الذي تحبّه أنعشَتها، ولا نسيم أبريل ومايو أيقَظاها من سبات رحيله، ما زالت مغروسةً بجوار حائطه بهويّة أخرى تراقبه في صمت، لكنْ هيهات أن يرضيها إلّا أن يعرفها

ويُقبل عليها كما لو كان قد خلا هذا الكون من سواها، أليس هو مَن أخبرها أن شمسَه لا تشرق إلّا من طلّتها، فاحترقت انتظارًا من أجله مع كلّ صباح لتمنحه بركة بداية اليوم.

كم كان يهاتفها طويلًا؛ وما كان يغلق معها حتى يتّصل من جديد ويهمس: "أُحبّك".. فيتشَقق لها قلبُها أربعًا، وتبتلع أرْباع الكلمة، تستطْعمها قبل أن تسري منها موضع دماها.... ومع الوقت أدمنتها، كم أقسم لها أنّها أجمل جميلة، وأنّها الحياة بالنسبة إليه، وأنّ ساعة بدونها هي الحرمان من كلّ لذّة، وأنّ نظرة منها تميته وتحيِّه وتبعثه فتدخله الجنة، فأخذت تنادي مراياها أنها جنته.

بآخِر لقاءٍ جمعهما فوق محطة قطار مدِينته؛ اندفع نحوها وكأنّه العطش وهي الماء فإذا به يتوقف فيُوقفها، ثمّ يُهْرِع إليها من جديد في لقطةٍ مدروسة منه ومكرّرة، لكنّها أبدًا ما أيقظتها من غفلتها روائحُ كذبه، وذات سَكرة؛ أقسم لها أنّه يعبدها ولم يستغفر؛ فجعلت من نفسها صنمًا وتركته يترنّح تحت قدميها، ولم تستنكر كلّ ما سقط منهما بعد إذ.

وماذا بعد؟!

استيقظت «زهرة» ذاتَ صباح وذهبت تداعب نافذتَه، فهي شعاعه الصباحي الذي لا يستيقظ بدونه، وقفت طويلًا تطرق كلّ المنافذ المؤدّية إليه بلا مجيب، حتى صارت شمس الحقيقة فوق رأسها بعد أن انتصف اليوم والأسبوع والشهر والعام، وهي وحيدة خارجه تنتظر أن يعبدها!

ماذا!.. يعبدها؟!

تعرّقت من وقع الكلمة القاسي على نفسها، فتحسّست جبهتها تزيل قطرات العرق التي تقصد بها جبينها حتى التحمت من غزارته، فتعثّرت أصابعها في رحلتها بتلك الخطوط العرضية ففزعت.. تجاعيد!

أجمل جميلة بتجاعيد.. كيف!؟ إذًا فهو كاذب!

فجأة هو كاذب! وكلّ هذه الأيّام والشهور التي مرّت بدونها تقول إنّه كاذب، لقد مرّت أشهر كثيرة بدونها أين هي منها ومنه؟! الشّهر تلو الآخر يمرّ وهي بعيدة عنه وهو حي.. لم يمت!

شريطُ الكلمات الليلية قفز إلى ذاكرتها فجأة، كلّ ما تلفّظ به سُكرًا يتردّد في أذنيها لكن بلهجة مختلفة، وكأنّما هي سيناريو لدَوْرِ ممثلٍ محترف.

مادتْ بها الدنيا واضطربت السماء في عينيها حينما أدركت حقيقتها لديه؛ صرخت عندما لمحت نفسَها في مرآةٍ غير تلك التي صنعها لها من معسول الكلام، لقد انتهى منكِ ورحل.. أخذت تردّد وتردّد ولا مجيب لها سوى الصّدى وفزع اليمامات، فسقطت تنتحب.

إليها..

"قيمتك ليست في عينيه ونظرته ووجوده، قيمتك لا تكتسب منه ولا تنتظر معه ولن تفقد بعده؛ قيمتك هي ما آمنتِ به في نفسك هي بصيرتك على سريرتك، هي حقيقتك التي لا يزيفها حلول ولا يمحُها رحيل، قيمتك في ثقتك بنفسك دون مرايا، فيحدث أن شرخًا في مرآتك قد يشوهك لأنكِ آمنتِ بانْعكاسك أكثرَ من حقيقتك، تحسّسي حقيقتك وتجنَّحي بثقتك وإيمانك بنفسك وحلقي فإنك للحياة حياة".

أشعلت هذه الكلمات التي نشرتْها «عهد» فوق حائطها نارًا بجسدها، لا شيء أفسد عليها جنّتها سوى تلك اللعينة، غاب عنها «يوسف» منذ ظهر فوق حائطها، كلهنّ ولجن إلى حماه وحلِّقْن فوق رأسه، منهنّ مَن غادرت، ومنهنّ مَن بقيت مثل «زهرة».. مجرّد يمامة جاثمة قرب جداره، لكنها لم تجده يومًا بهذا الحلول فوق جُدرهنّ الافتراضية كما فعل «يوسف» بمكوثه فوق جدار هذه المرأة.

"إذا كنت على جديد العلاقة تريد تغيري بكلّ جدك، ترفضني على ما أنا عليه، وتحارب من أجل إيجاد حلمك فيّ، ثمّ تفشل فتقرّر أن تتغير أنت (فأنت خاسر)، هناك شخصٌ ما في مكان ما سيقبلني على ما أنا عليه، وهناك شخصٌ ما في مكان ما يريدني أن لا أتغيّر، عذرًا فقد أطلت الحديث عليك.. أقصد لقد (أطلت المكوث لديك).. لقد حان الوقت أن أذهب".

قامتْ «زهرة» بإرسالها إلى «يوسف»، بعد ثوانٍ من نشرها فوق حائطها الذي أعادت فتحه من جديد بعد غياب دام لبضعة أشهر، انتظرت عدّة ساعات لم يأتها فيها منه إجابة، فأتْبعت ذلك المنشور بمنشور آخر، طلبت فيه من أصدقائها الدّعاء لابنها الذي يموت بالمشفى، هنا طلّ «يوسف» برأسه من بين التعليقات وكتب: "لا بأس طهورٌ بإذن الله".

جُملة قصيرة جدًّا مقارنة بسواه من الغرباء فوق حائطها، لكنّها طويلة جدًّا على عيني «عهد» حين وصلت إليها كاملة ضمنَ الكثير من الإشعارات الأخرى من آخرين، لم يكن الإشعار باسم «زهرة صلاح» كما هو معتاد، لقد قامت «زهرة» بتغيير اسمها إلى أحد الأسماء الحركية التي لا تدلّ على شخصية مالك الحساب، قرّرت «عهد» في ثانية واحدة أن تلج إلى الحقيقة

بنفسها.. فأرسلت في التوّ طلب صداقةٍ إلى «زهرة» التي استترت باسمها الجديد لتعود إلى حائط «يوسف» مرّة أخرى.

– «عهد».

– نعم.

– هناك حساب أرسل لي طلب صداقة وأنا أشكّ أنه لـ«زهرة».

– «نانا عزيز» أليس هذا الحساب الذي أرسل إليك الطلب؟

– نعم هو، كيف عرفتِ أنه هو؟!

– ليس مهمًّا، الحساب لـ«زهرة» بالفعل، والقرار قرارك، أنا أُحلّك من وعدك لي، افعل ما تشاء يا «يوسف».

ككلّ مرّة سابقة يجد «يوسف» فيها نفسه عاريًا في حضرتها، أخذ يستتر ببعض الأقسام أنّه قد تفاجأ أنّ حسابها خارج الحظر لا يدري كيف.. وأنّ..

تركتْه «عهد» يكتب كالعادة وخرجت، لكن هذه المرّة من المحادثة فقط، أوقفت إشعار المحادثة وأغلقت النافذة التي يعتليها اسمه، وتركته محرومًا من الجملة التي تريحه أحيانًا وتؤرّقه أحايين أخرى.. (تمّت رؤيته).

ظلّت رسائله لا تُرى مدّة أسبوعين، رقم هاتفه ليس محجوبًا على هاتفها، لكنها أبدًا لا تجيب اتصالاته الملحّة، كانت ترى اسمه وهو يومض ويخفتُ دون أية رغبة في الإجابة، هي تؤمن بنفسها، تعرف قدرها، وتريده أن يعرفها كما ينبغي وإلّا.. فبعض النعم تدرَك بعد منعٍ، وكل فرحة دائمة يسبقها

حرمانٌ مؤقّت، بقي أن تصبر «عهد» على المنع ويتقي «يوسف» عند الحرمان وأن لا يبرحها حتى يبلغها.

كلّ هذا هو لا يأخذه على محملِ الجدّ بعد، ما زال «يوسف» يراها مهرةً برّية جامحة، سوداء بدرجة أدهمية.. تعجبه المُهُر التي ترتدي السواد وترفع هامتها لتسقط كلّ قاصد، نوع مختلف من الإناث كانت نفسه تتوقُ إليه ولم يجده إلّا في «عهد»، كلّ النساء التي استقبلَهن بذراعيه هُرعن إليه من إشارة، وحدها «عهد» لا تزال أبيّةً على نداءات ذراعيه كلّ ساعةَ طيلة عام بأكمله.

إنّ لها طيفًا يمرّ في القلب، ونسائم تلفح الروح، و«يوسف» قنديلٌ ينتظر على قارعة الحنين، ثابتٌ لا يرجفه إلّا هي، هكذا كانت تريده أن يراها وتريد أن تراه، أرادته أن يعلّق المسبحة وباسمها يجاهر، وليقال فيه بعدُ ما يقال.. لا يهمّ، لكنه ما زال ضالًّا بلا هدى، وإنّ ما هي فيه من جذب نحوه لأصعبُ من تعليق مسبحة المجاذيب في الجيد، والتّسبيح باسمه كما انتظرت منه، إنّ «يوسف» بها؛ يملؤها أحيانًا حدّ الغرق، ويحرقها حدّ العرق، ويصنع من قلبها "مبخَرَة" ويشعل حرفَها كعودِ طيبٍ يجذب الكون ريحه.

ثمّ يسألون عاشقًا كيف عرف؟! مَن ذاق عرف!

– عهد.

– نعم.

– أريد استئجار شقّة بالإسكندرية لقضاء أسبوع بها فما فوق ومعي زميلٌ لي.

– لست أفهم، قل لي كم من الوقت يلزمك قضاؤه بها؟! هل تريدها أسبوعًا.. أسبوعين، أمّ أكثر؟!

– شهر، أريدها لمدّة شهر شريطة أن يكون المكان قربَ أحد الشواطئ المميزة.

– يومان وأردّ عليك بإذن الله.

قبل مرور أربع وعشرين ساعة، كانت «عهد» ترسل إليه تفاصيل مجموعة من الشقق، كلهنَّ مناسبات لما طلبه تمامًا، لكنه أخبرها أنّ أحد معارفه قد عرض عليه شقة بمكان مميز بالإسكندرية، وأنه سيسافر إلى القاهرة ليحضر مفتاحها من مالكها خلال هذا الأسبوع.

***

«رسائلُ عائشة»

انتهى «ضياء» من وضع آخر قطعة أثاث في موضعها، ثمّ جلس منهكًا فوق أقرب مقعد إليه، أسبوعٌ بأكمله وهو يضبّ كلّ أغراضهم الشخصية في تلك الصناديق الكبيرة التي قام بشرائها من أجل الانتقال بشقّته النائية هذه، إنّها الغرض الوحيد الذي اشتراه من حرّ ماله بتلك المساكن التي سبق وأنشأتها الشركة التي يعمل بها بغرب الإسكندرية، استقبال مكوّن من قطعتين وغُرفتان ومطبخ وحمّام، تعديلات شاملة أجراها «ضياء» على الشقّة من أجل تباهيه أن شقّته أفضل من شقتي، وكنت أتعجّب أمره؛ فكلّ ما يفعله لن يضيف للشقّة ما أريد ولن يجعلني عنها راضية، كيف أرضى وهذه نصفُ مساحة شقتي التي أجبرني هو على تركها مستغلًّا ما حدث لي من «أسيل»، وحالة الاكتئاب التي كانت تعتريني.

سبق وطلبَ منّي كثيرًا أن نترك شرق الإسكندرية قاصدين هذا الغرب الكئيب، هكذا كنت أراه دومًا لذلك كنت دائمةَ الرفض لهذا العرض

بالانتقال إليه كلّما قام «ضياء» بتجديده، لم أحبّ تلك المنطقة قطّ بحياتي كلّها، أقارب والدي يملكون ڤيلّا بها ولكنّي لم أكن أحبّ لا رمالها ولا هواها.

"ربّما غرب الإسكندرية يصلح لَمن ولِد وتربّى فيه، أو لمغتربي الإسكندرية أصحاب الإقامات المؤقتة بها، وليس لي"، بهذه الكلمات كنت أصيح دائمًا بوجه «ضياء»، كلّما عبرت له عن بغضي للمكان، فيقوم بتذكيري أنّني مجرّد فلاحة من قرية عبرت إلى الإسكندرية من خلاله فقط.. حين تزوّجني.

ما زلت في حالة اكتئاب تجزّ أوصالي، ما زلت أجد في الصمت ملاذًا أفضل من كلّ حوار عقيم يدور بيني وبين «ضياء»، حملي بهذين التوأمين زاد من حدّة أوجاعي النفسية والبدنية، لا أدري كيف حدث ذلك؟! لكنّه حدث. تسعة أشهر وأنا أنام جالسة فوق مِقعد الصالون من شدّة ما بي من آلام، حتى وضعت أخيرًا صغيرَيّ، الولد وافته المنيّة فور ولادته، وبقيت هذه الصّغيرة بخير.

«ضياء» الذي استراح أخيرًا من زحمة وسط المدينة التي كان يبغض القيادة في شوارعها كلّ يوم، أقعدته شركته وكلّ طاقمه ببيوتهم بعد اندلاع ثورة يناير الشّهيرة حتى تستقرّ الأوضاع، فلم يعدْ له سبيلٌ إلى الشارع أبدًا، وبقي بالبيت ليلًا ونهارًا.

أتعبتني صغيرتي كثيرًا في فترة الرضاعة، كنت أعاني من نقص فيتامين "د" وبعض الفيتامينات والمعادن الأخرى، آلام متفرّقة بسائر جسدي مع اعتلال توسّعيّ بعضلة قلبي، والذي جعلني أعاني من الاستسقاء والوذمة، وكلاهما يجبرني على إجراء عملية بذل كلّ فترة من الزمن.

زاد وجود «ضياء» بالبيت من ضغوطي النفسية والبدنية وتدهور حالتي الصحية كذلك، إذ أنه ليس من النوع الذي يمكنه بذل أيّة مساعدة بيديه، طلباته كثيرة ومتتالية، يدسّ أنفه في كلّ شيء حتى في مزاحي مع «أنس»، ولا يخرج من البيت أبدًا إلّا لأداء بعض الفروض في المسجد أسفل العقار، حسنتُه الوحيدة أنه كان يأخذ الصغيرة ليلًا إلى جواره، ويطعمها أحيانًا وجبتها الإضافية من اللّبن الصناعي الذي كتبه لها طبيبها بعدما قرّر طبيبي أنّ لبن ثدييّ لا يكفيها.

لم يكنْ لي نافذة أطلّ منها برأسي إلى العالم خارجي سوى جهاز الحاسب الآلي الذي أراسلك منه الآن، كنت أتابع بشغفٍ تداعيات ثورة يناير عن طريق رئيسية حسابي على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، والذي انتشرت فوقه الصّفحات العامة كواجهات إعلامية تنافي ما تعرضه من واقع الميادين ما يطرحه إعلام الدولة، والتي حقّقت صدى واسعًا، الأمر الذي أغضب الدولة لعدة أعوام بعد ثورة يناير المجيدة.

كلّ فترة كان «ضياء» يقوم باستضافة والده ووالدته لعدّة أيام، فكانت حماتي بدورها تجري اتصالاتها ببَناتها وتقوم بدعوتهنّ لتناول وجبة الغداء ببيتي دون إذني، شيء من الجنون كان يطيح برأسي لحظتها، كيف تجرؤ على إجباري في استقبال ابنتها الكبرى، وهي التي اتّهمتني بسرقتهم دون دليلٍ على اتهامها ذاك أو شهود، ولم تتراجع عن ذلك الادّعاء قط طيلة سنواتٍ طوال مرّت، إلى متى سأظلّ أتحمّل ما لا أريده منهم، أنا لست بخير وهُمُ الشرّ الذي تسبب في نزع كلّ خيري من نفسي، إنْ صمتُّ يتمادون بتبجّح في اقتحام حياتي وسلب راحتي، وإن تحدّثت قالوا لا تحمدي الله على النعم الّتي بحياتك أبدًا.

نَعَمْ.. إنّني في نِعَم، وإنّي أريد أن أحافظ على هذه النِّعم بقدْر وسعي، وإني قد صبرت حتى قارب طولُ ابني كتفي، فهل يمكنني الآن الحصول على نوعٍ آخر من كبد الحياة "هؤلاء القساة" ليسوا أبطاله؟!

معركتي الأخيرة صارت تتلخّص في جملةٍ واحدة «لا بدّ لزوجي أن يتزوّج من أخرى لأجل أهله وذويه، وبأسرع وقت»؛ وقد فتحتْ هذه الجُملة عليّ طاقةً من طاقات جهنم يا «عهد»، سأقصّ عليكِ جزءًا منها في الرسالة القادمة إن بقيت على قيد الكبد أقصد "إن بقي في العمر بقية".

***

لقد تمّت الموافقة على طلب الصّداقة من قبل «نانا عزيز»، لم يمرّ ثوانٍ على هذا الإشعار بأيقونة الإشعارات أسفل اسم «عهد» برئيسيّة صفحتها، حتى ظهرت نافذة محادثة أسفل برواز المتصفّح تحمل نفس الاسم، داخلها رسالةُ ترحيب وشكرٍ على إرسال «عهد» لطلب الصداقة.

– ليس الأمر بهذه السرعة! أمعقول أنها أرسلت لي رسالة بريدية بهذه البساطة! أمعقول أنه يمكنني الآن إدارة دفّة حوار معها هي بهذه الرسالة أصبحت مبتدأه!

«عهد» لا تصدّق أنها أمام باب «زهرة» والأخيرة تقوم بدعوتها إلى الدخول لبيتها الافتراضيّ بترحاب وودّ، إنّ أقصى ما تطلّعت «عهد» إليه من وراء هذه الصداقة، أن تتمكّن من رؤية منشورات «زهرة» التي كانت تخصّصها للأصدقاء فقط، توقيت تعليقات «يوسف» الأخيرة أسفل بعض المنشورات فوق حائطها، قد أخبرها أنه كان موجودًا بالفعل في الصداقة عند «زهرة» قبل أن يرسل إليها بتلك الاستغاثة الزائفة.

بنصفِ عين..

منشورات «زهرة» فوق حائطها تنمّ عن ألم كبير يعتمل به قلبها، وحلول «يوسف» كان باهتًا كورقةٍ نقدية من فئة المائتين جنيه مخبّأة في جيب بنطالٍ خفيّ قد زارا معًا غسالة الملابس ألف مرّة قبل أن يكتشف وجودَها أحد!

رغم حنقه لوعدٍ قطعه على نفسه أمام «عهد»؛ أنه لن يعود إلى هذه المرأة مرّة أخرى مهما حدث، مقابل عفْوها الذي لم تدرِ بعدُ أهو ذو قيمةٍ عنده أمّ أنه والعدمُ سواء، إلّا أنها شعرت بتعاطفٍ كبير تجاه «زهرة» وأحقاد هزيمة تجاه «يوسف».

استجداء غريق، توسّلات مدمن، واحتضارُ عليل، كلّ حرفٍ فوق حائطها تتقاطر منه حسراتٌ مجتمعة وألمٌ بلا حدود، أسئلة كثيرة نازفة تغرق حائطها، وكأنّ أحدهم قد تسلل ليلًا إلى وريدها فلمّا ارتوى منه مزّقه وفرّ هاربًا... وتركها بأوردةٍ عانِدة.

سامحيني..

ردّدتها «عهد» عدّة مرّات بصوت باكٍ دون أن تشعر، لقد أرادت هذا العفوَ منها على سبيل إنهاء شراكة..

هي شريكةٌ لـ«يوسف» في كلّ هذا العذاب الذي يعتري هذه المسكينة، ولو من دون قصد منها ولا نيّة، مجرّد ظهورها كصيدٍ أثمن أمامه؛ هو ما جرّها إلى هذه الشراكة غير المتكافئة بينها وبينه، ودّت لو أنّها اتّحدت مع ذلك العرق النازف في «زهرة» ومدّتها ببعض القوة لتتخلص من كلّ هذا الألم، تمنّت لو يعود العمر عامًا فقط فلا يرى «يوسف» حائطها ولا يعرفها ولا تعرفه.

فتحتْ «عهد» رسالة «زهرة» المعلّقة داخل رسائلها الواردة، وكتبت رسالة رحّبت فيها بردٍّ تقليديّ على رسالة ترحيب تقليدية، لكنْ يبدو أنّ «زهرة» كانت تودّ الحديث، عبرت بكلمات منمّقة عن مدى امتنانها لطلب الصّداقة، وأخبرت «عهد» أنها تتابعها منذ فترة حين علقت إحدى أصدقائها على منشورٍ لها فظهرت صفحتها على حائطها، شعرت «عهد» بميلها إلى الحديث، فأخذت تداعبها مازحة وهي تطلبُ منها معرفتها أكثر إن لم يكنْ لديها مانع في هذا.

تجاوبت «زهرة» مع «عهد» سريعًا، الكلام انْساب منها بلا توقّف، منذ السادسة مساء وحتى فجر اليوم التالي، و«زهرة» تتنقل بين الكتابة وثلاثةِ اتصالات صوتية، لا يفصل إحداهنّ عن الأخرى إلّا دقائق تتركها فيها «عهد» من أجل أداء الصّلوات، ثمّ تعود فتعود «زهرة» إلى الحديث مرّة أخرى، أخبرتها «زهرة» أنها فكّرت كثيرًا في إرسال رسالة إليها من أجل الاستشارةِ وطلب النصيحة في الكثير من مشاكلها الحياتية، لكنّها انشغلت بمرض ابنها الأوسط الذي أنهكها وقد أوشك أن يضيع مستقبله.

انتقلت سريعًا إلى صراعها مع والدتها، ثمّ قفزت إلى حالها مع زوجها، وهنا أطالت الكلام، كانت «زهرة» تتنفّس بشكل منتظم وهي تقصّ على «عهد» مآسيها مع زوجها الدكتور «غريب»، هادئة هي ونبرتُها موزونة تمامًا وهي تستحضر كلّ أفعاله على أنها كبائر، وكأنها تجعل من أوزاره دربًا قادَها إلى الهاوية، لم تسمعها «عهد» تختنق وهي تقصّ عن جحوده وإهماله لها؛ بل وجدتها متشفّية وهي تستهلّ الرواية مبتسمة وكأنّها تخدّر ضمير «عهد» بتلك الكلمات، قبل أن تلقي على آذانها بالفاجعة.

من دون تحفّظ أمام «عهد» كوْنها أوّل محادثة بينهما، كانت تسرد «زهرة» تفاصيل حياتها مع زوجها، وكأنّها حفظت تسلسل القصّة من كثرة ما ترويها لكلّ وافدٍ جديد، هنا استأذنت «زهرة» في اتّصال صوتي حتى يمكنها إيصال ما تودّ قوله دون لبس، أثنت أولًا على صوت «عهد» ورقّته وعذوبته، ثمّ عادت للحكاية.

"منذ وضعتُ ابنتي الصغرى قبيل ستّ سنوات، وزوجي لا يطلبني للفراش دون سبب، ورغم أنه لم يهتمّ أبدًا أن يرضي أنوثتي التي تؤرّقني دومًا في حضرته، إذ كان جامدًا تقليديًّا وكأنّه آلة مُبرمجة على أداء العلاقة من غير تغيير أو ابتكار، صامت من البداية حتى النهاية، وكلّ مرّة ينتهي منّي دون أن يتفقّد إشباعي، وكأنّ دوري أنْ أكون مفعولًا به لا حقّ له في أكثر ممّا يُمنَح من وقتٍ أو أداء، إلّا أنّه حين عزف عن رغبته فيّ ولم يعدْ يقربني جنّ جنوني.

كلّ يوم أبكي إليه حاجتي، ولا أحصد منه إلّا نظرات اشمْئزازه وبعض كلمات الموت: "عن أي حاجة تتحدّثين وقد شارفتِ على عقدك السّادس، وقارب وزنك المائة والخمسين كيلو، وأكبر أبنائك قد أنهى دراسته الجامعية؟! لماذا لا تحترمين كلّ هذا وتنامين في صمتٍ يليق بك وبواقعك وتنفضين عن رأسك تلك الأفكار التي لا تليق بعمرك أو مظهرك؟!".

لم أحتملْ منه كلّ هذه الإهانات، فقمتُ بهجرّه في الفراش، لكن بعد أنْ كانت الأنثى داخلي جائعة فقط؛ أصبحت بعد هذا الرّفض الصريح جائعة وغاضبة جدًّا.

والدتي تزيد من غضبي عند كلّ حديث يدور بيننا في أي أمر، مثلها مثل «غريب» لا يعجبها منّي رأي ولا تعيرُ لي وزنًا، شعرت بالغربة في بيتي وعندما قصصت ما بي إلى «عتاب»، صديقتي الوحيدة وزميلتي بالعمل كذلك، شجّعتني على إجراء عملية جراحيّة معروفة باسم تكميم المَعدة.

بعدما أقنعتني على كراهة دخولي إلى غرفة العمليات طوعًا أنّ هذا من طاعة الزوج وحقّه، طالما أنّ بدانتي تمثّل له عائقًا فلا بدّ من محْو هذا العائق قبل أن ألقي باللّوم عليه، وبالفعل قمت بإجراء العملية وفقدت نصفَ وزني في وقتٍ قصير، وحاولت أن أعود إلى فراش زوجي لكنّه أبَى أن يقبلني أبدًا.

انطويت كثيرًا وتقوقعت على ذاتي.. لقد كرهت كلّ شيء، تركت حفظ القرآن رغمًا عنّي لكني لم أهجر القرآن كليًّا، ثمّ عدت إليه مرّة أخرى منذ عامين، عشت مؤرّقة برغبتي وكأنها مارد يسيطر عليّ، ظهرت سطوتُه حتى على كلماتي التي كنت أنشرها فوق حائطي على مواقع التواصل الاجتماعي فيسبوك.

كنت أجد في الكتابة على جداري شيئًا من الرّاحة، حتى قابلته، ظلّ يحدثني كلّ يوم، يهتمّ لأمري، يشاركني حالتي ويُشاطرني همّي وفرحي. في البداية اعتدت وجوده وسؤاله واهتمامه، حتى اعترف لي أنّه يحبّني، تنصّلت من شعوره وحاولت وضعه أمام المرآة معي، وقلت له انظر أنا أمّك، نفى وقال بل أجْمل أنثى وأشهى امرأة.

ظلّ يضع الطُّعم كلّ يوم وينتظر، كنت أحوم في بادئ الأمر من بعيد، كنت أحاول أنْ أبدو غير مهتمّة لكنّني كنت بالفعل مهتمّة، كنت مُخمصةَ

الرّوح، وكان في بادئ الأمر يضع لي الطعام ثمّ يتولّى إلى الظلّ، قبل أن يقترب مني الهوينى، وأنا كنت أحلّق تحليقات التمنّع الذي لا تنمّ إلّا على كامل الرغبة في البقاء، لكني لم أكنْ أستأمنه بعد.

ظللت أحوم قربَه، ألتقط القليل ممّا أعدّته لي يداه، ثمّ أحلق إلى وجهتي، ومن ثمّ كلّ يوم أفعل، وذات صباح استيقظ ليجدني أنتظره فوق حائطه، إذْ لم أحلّق بعد أن انتهى خماصي عند ما يقدمه لي من "حبّ"، استأْنست كيمامةٍ أنهكها التّحليق فجثَمت فوق جداره يوم استأنست اليد التي ترفع وتضع لي ما تشتهيه روحي الجائعة، كان يحدّثني كثيرًا لأطمئنّ له وأستكين، وذات أمسيةٍ ليلية وضعت رأسي على كتفه دون أدنى خوفٍ حتى نمت ولم أستيقظ بعدها!

لقد اعتبرني رزقَه يا أستاذة؛ فكان اللّحم له والرّيش للمزبلة والعظام للكلاب".

«عهد»:

– "كلٌّ يحبّ الحمام بعين طبعه يا أخيّة، وإنّ مَن أحبّك حقًّا لن يصنع من قلبه لكِ غِيَّة إلّا بعد عقدٍ وشهود تسْبقهما نيّة خير"، لكن؛ دعكِ من هذا الحديث الآن يا «زهرة» فلي معكِ فيه شأنٌ عظيم بإذن الله، وحدّثيني عن القرآن، كيف حفظتِ القرآن؟ ومتى؟! وهل معكِ إجازة أمّ لا؟!

تعمدت «عهد» هذا الخروجَ المقصود من سياق حديث «زهرة» عن «يوسف»، من جهة لتُبقي على شغفها في الحديث عنه كما هو دون إطفاء، ومن جهةٍ أخرى هي تريد أن تستمع إلى تلك القصّة على لسان «زهرة»؛ قصّة الشيخ الذي كان يخدّرها بالقرآن ويفعل بها ما كان يفعله.

أخذت «زهرة» تقصّ عليها كيف قصدت مقرأة شهيرةً بالمنيا كطالبةِ علم، وكيف أنها تمكّنت من تقلد إدارتها في مدّة لم تتخطّ الستّة أعوام.

– حدّثيني عن شيخك قليلًا، فإنّ سيرة المشايخ هنا بالإسكندرية عطنة بسبب أفعالهم المنافية لقيمة بعضهم كعلماء.

– لماذا تقولين هذا أستاذة «عهد»؟! هل حدث معكِ لا قدّر الله مكروهٌ على يدِ أحدٍ منهم؟!

– لست أنا، صديقة قصّت لي قصة عجيبة جدًّا، حتى أنني يشوبُني عدم التصديق حتى الآن، لكنّ الحذر واجبٌ على أية حال.

أنهت «عهد» هذه الجُملة، ثمّ قصّت على «زهرة» حكاية مشابهة لتلك التي سبق وقصّها «يوسف» عليها وكأنّها على لسان صديقٍ له، ثمّ أنهت القصّة بجُملة: (هل من المعقول أن يأتي شيخٌ يعلّم القرآن مثلَه فعلًا، ومع طالبة لديه! أنا لا أصدّق هذه الرواية)، كان من الأولى به إن كان فاعلًا فعلَه هذا لا محالة أن يفعله مع غريبةٍ وفي الخفاء، وليس مع طالبته التي لا يأمن ردّ فعلها.

– لأ.. صدّقي يا أستاذة، فهذا الأمر قد حدثَ معي بالفعل.

قالتها «زهرة» وأردفت بنصّ الرواية التي سبق وقصّها «يوسف» على عينيّ «عهد» من قبل داخل المحادثة بينهما، رغم توقّعها المُسبق وشعورِها الذي لم يخطئ في حقيقة قطّ، إلّا أن ما ترويه «زهرة» على مسامعها كان أشبه بمقصلة، فصلت بها «زهرة» عن عمدٍ رأس «يوسف» من فوق أكتافه بدم بارد، يبدو أنّها ليست بالسّذاجة التي تبدو عليها، طريقتها في الحديث بها

الكثير من اللّمز والإشارة، وكيف لـ «عهد» أن تصمت وهي التي اعتادت المواجهة وحسم الأمور!

حاولت «عهد» أن تحافظ على رباطة جأشها رغم ما تلاحظه وما تعمّدت «زهرة» إيصاله بوضوح، وكأنّها تقول لـ «عهد» نعمْ أنا هي حبيبته القديمة فأريني ما لديكِ؟! إلّا أنّ «زهرة» لم تمهلها وقتًا لذلك التصبّر حين قالت بصوتٍ بريء يشبه براءةَ صوت «يوسف» في أحايين كثيرة:

– عذرًا يا أستاذة، لكن بما أنّ حضرتك من أهل الإسكندرية الكرام، هل تعرفين عامل محارة جيد، لديّ شقة بالمعمورة الشاطئ لكنّ بها بعض المشاكل في الدهان والمحارة بسببِ رطوبة ماءِ البحر كما تعلمين، ولي أقاربٌ ينتظروني بالقاهرة لأعطيهم مفتاحها من أجل عطلة الصّيف، وفكّرت لو أصلح ما بها من عيوب قبل أن أعطيهم المفتاح، وأعتذر مرّة أخرى على هذا العشم في حضرتك.

عشم! عن أيّة عشم تتحدّث هذه المرأة الآن؟!

هل بعد هذا الذي يحدث بينها وبين «يوسف» عشمٌ آخر يمكنها حتى الإشارة إليه! إذًا فـ«زهرة» هي مالكة الشّقة التي ستعطي مفتاحها لـ«يوسف» بالقاهرة كما سبق وأخبرها من قبل! غير أنّه قال لها إنّ الشقة لقريبٍ له وليست لـ «زهرة صلاح»!

***

– أشعرُ أن بحياته امرأةً أخرى.

– وما الذي تعنيه كلمة أخرى هنا حين تصدر من امرأة أخرى بالفعل؟!

– ماذا تقصدين يا أستاذة؟

– أليس ذلك الشابّ الذي تتعذّبين من هجره لكِ الآن متزوجًا بالفعل؟ إذًا فكلّ امرأة غيرها في حياته هي أخرى.

– نعم. لكنّه قادر أن يساويني بها.. هو له الحقّ في أن يُعدّد لو أنه صادق، لقد أخذت منه موعدًا سيلتقيني فيه، ويجب أن نضع النقاط فوق الحروف.

– ماذا قال لكِ عن زوجته؟

– قال عنها إنّها زوجة باردة، لم تحتمل أبدًا دفئه ولم تكترثْ لإشباع رومانسيّته، يخرجا معًا كلٌّ إلى عمله، ويعود هو ليجدها نائمة، لم تتزيّن له مرّة، وتنتظره كما تفعل الزوجات، ولم تُشعِرْه قطّ برغبتها في العلاقة، وإنْ طلبها ولبّت فكأنّه يجامع قتيلة!

– هل تظنّين أنّ كلماته هذه بحقّ زوجته صحيحة؟! بنسبة كم في المائة تعتقدين ذلك؟ وهل تعتبرين أنّ ما يقوله لكِ بحقّ زوجته شيء كافٍ حتى يتزوّجك أو يتزوّج أية أخرى عليها؟!

– نعم أظنّ كلماته بحقّها كلّها صحيحة، وإلّا لماذا يترك شابّة مثلها ويحبّ امرأة بعمري!؟ كلامُه عنها صحيح بنسبة مائةٍ في المائة، وأظنّ أنه له الحقّ في الزواج إن لم يكن مرتاحًا مع زوجته.

سرحت «عهد» بذاكرتها للحظةٍ تاركةً «زهرة» تزعم صدق ما قاله «يوسف» لها بحقّ زوجته، حين طفت على نهر ذكرياتها معه كلمات أخرى قالها «يوسف» لها بحقّها:

– "أنا أحبّ زوجتي، زوجتي ساندتني كثيرًا في بداية زواجنا، وإن كان هناك تقصيرٌ يجب أن يُتّهم به أحد فهو تقصيري أنا بحقّها وليس العكس،

زوجتي لا تعرف مِن الرجال إلّا أباها وأنا، لو تزوّجت عليها لأي سبب من الأسباب من المُمكن أن تموت فيها".

– أستاذة «عهد»، أين ذهبتِ يا أستاذة.. ألووو.. ألووو

– عذرًا منْكِ يا «زهرة».. منذ متى وأنتِ تعرفينه؟ ومتى توطّدت علاقتك به؟

– أربع سنوات أو أقلّ قليلًا، توطّدت علاقتي به خلال شهرين، كنّا نتحدّث تقريبًا كلّ يوم، حتى صار لا يمرّ أي يومٍ بدونه وأنا كذلك، هو لم يتغيّر أو يغير عاداته معي إلّا منذ عام فقط.

– ألم يُعْرب لكِ أبدًا عن ندمه على تلك العلاقة قطّ؟! مثال ألم يقلْ لكِ لنعود تجمعنا الأخوة وجميلُ الصداقة ولنترك كلّ هذا؛ فنحن لسنا أهله؟

– قال ولكنّي كنت أهجره كليةً حين يقول ذلك، وكان بعد فترة يجدني فوق حائطي الجديد فيرسل لي طلب صداقةٍ ثمّ يعود يتوسّل.

– هل مارستِ الجنسَ معه؟

– لأ.

– ما الذي تتوقّعينه كنتيجة بعد أن تلتقيه وتضعين النّقاط فوق الحروف كما تريدين؟

– إمّا أنّه يتزوّجني، وإمّا أن نفترق.

– ماذا لو قال لكِ لنفترق؟!

– سأغلق كلّ الأبواب بيني وبينه وأذهب بلا رجعة.

– كم مرّة قلتِ له أو لنفسك هذه الجُملة؟!

– قلتها كثيرًا وابتعدت بالفعل كثيرًا، كنت أغلق حسابي وأُنشئ آخرَ فيقوم بإيجَادي بسرعة وإرسال رسالة وهو يقسمُ أنّه لا يمكنه العيش من دوني.

– «زهرة».. أربعة أعوام وأنتِ على تواصل معه، وكلّما ابتعدتِ عنه بحث عنكِ وأعادك.. فعلى أيّ أساس تريدين وضعَ النقاط فوق الحروف؟! لماذا لم تُقبلي على هذا القرار قبل عام من الآن مثلًا؟!

– لأنّه هجرني دون أنْ يهجرني، لم يعدْ معي؛ لكنّه ليس ببعيد، يحادثني بلا روح، اتصاله بي أصبح كأداء واجبٍ مدرسي لطالب ثانوية عامة، ثمّ غياب يطول ووجودٌ بارد، وكلما تذمّرتُ ثار وغضب وأنهى الاتصال سريعًا وكأنّه يفرّ من وحش كاسر يعْدو خلفه.. باختصار يا أستاذة لم يعدْ هو نفس الشخص الذي عرفتُه أبدًا، بل صار كـ....

– بل صار كماذا يا «زهرة» أو قولي كمَن؟ بل صار كزوجك.. «غريب».. سبحان الله العظيم!

قاطعتها «عهد» وأتمّت جملتها بالحقيقة وليس بالهراء الذي أرادت «زهرة» قوله لتسدل بعض الأمل على أحلامها غير المنطقية التي تحملها بناءً على علاقتها غير المشروعة بـ «يوسف»، قبل أن تستأنف «عهد» حديثها سريعًا:

– اسمعيني يا «زهرة» وأرجو من صدرك رحابة..

"عندما صارت كلّ البدائل مُتاحة كبرت الفجوات بين أصحاب المواثيق الغليظة وتقطّعت من بعد بين البعض تلك المواثيق، عندما اشتهتِ

النفوس ما ليس لها؛ فحال الله بين الأرواح وسكنها، ولم يعدْ للصبر مكان، كثرتِ الشكاوى وصارت الفضفضات سبيلًا لكلّ شاردة، واختلف المتلقي كنوع بحسب ميْلِ وفكْرِ كلّ خاضعة قولًا تُطمع بخضوعها كلّ مريضِ قلب، أو كلّ صاحب شباك يلقي بالحبّ طُعمًا لكلّ شاردة.

فهناك منهم مَن يختار منهنّ ليُسْمِعها، وهناك منهنّ مَن تختار منهم لتُسْمِعه، فيحدث رغمًا عن هذا أو تلك أنّ الحال يتضخّم، الحال الذي هو في الأصل حياة.

حياة عادية من المُمكن أن تكون متكرّرة خلف كلّ باب مغلق، جدرانه حالت بين اختلافات كثيرة ومحاولات لمْحوها أكثر، لكنْ مهلًا.. فهذا زمنٌ كانت الجدران فيه ما زالت قائمة، قبل أن يصبح كلّهم في بيوتهنّ وكلهنّ في بيوتهم، وهُم وهنّ لم يبرحنَ الأماكن، وحولهم غلافٌ من جدر وأبواب مغلقة ونفوس جُبلت على الميل، وأفقٍ ما عاد صالحًا للتخيّلات المنفردة.

فما الضّير من عالم افتراضي يعوّض كلاهما به نقصانَ واقعه بدلًا من أن يبذل جهدًا في إصلاح نفسه وأهله بالمعروف؟! ما الضّير من رجلٍ لن يلمسك وربّما لن يراكِ لكنّه صار أقرب لكِ من زوجك وأخيك وأبيك؟! والمثال هنا يا «زهرة» قابلٌ للعكس تمامًا.

الأمرُ يبدأ بتعارفٍ بسيط؛ ثمّ تفقُّد يوميّ، ومن ثمّ عادة صباحيّة ومسائية، صار بها يستشف الحال فيكثر السّؤال، وعلى مضض في البداية تأتي الإجابة، ثمّ يأتي معلوم حال يهطل فيه العتب من باب لم تهتمّ!

نعم، لقد تطوّر الأمر سريعًا بشكل مُخيف للغاية.

بينما ظاهرُ الحوار بين معظم الأزواج الآن راحة في غير محلّها، ومحلّها فارغ منه أو منها، فلم يعدْ هناك حوار ولا عتب ولا اكتراث، مجرّد «هي» مُهملة أو «هو» منقوص، ومع الوقت يصير لكلٍّ منهما دوائرُه الافتراضية، وتتّسع بينهما فجواتُ الواقع، الأمرُ جلل يا «زهرة» وقد لمسته بنفسي للأسف، كلّ ساعة بريدي يئنّ برسائل مماثلة، فتنة كبيرة وقعت دون أن يشير إليها أحدٌ، فتنة.. جعلت من نساء ذوات طيب خُلق وخِلقة وكأنهنّ مائلات مميلات لمَن يستمع أو يلحظ أو يُكوى خاطره بما يُحكى!

إنّ هذا الانفتاح الافتراضي المسمّى بـ (مواقع التواصل الاجتماعية) في بيوتنا؛ جعلنا نميل إلى الحلول السّهلة، جعلنا نكره الودّ، ونُقبل على الزّيف في عالم ليس بحَقيقي، عالمٌ الكلُّ فيه إلّا من رحم ربي يظهر وكأنّه قدّيس!

فصارت البيوتُ خَربة كبيوت العناكب؛ لا حياة فيها إلّا من الصدام كلّ لحظة أو الصمت الذي يعني أنّ لكلٍّ دوائرَ تغنيه وتكفيه حتى مِن نقاشٍ سيجلب عليه لدقائق تعكيرَ الصفو كما يظنّ أو تَظنّ.

والمصيبة الكبرى يا «زهرة» في الرّافضات للازدواجية، وأخصّ هنا النساء من دون الرجال برفض الازدواجية؛ حيث جُبلت المرأة على ملكيّتها المنفردة لقوّام أوحد من الرّجال، تحيى في كنفه في تنقّل شرعي من أب أو أخ لزوج أو ابنٍ وهكذا، فنجدها تقبل على قطع الميثاق الغليظ وبين يديها مائة ألف إدانة عليه، ومن دون أية حجّة عليها.

على الرّغم أنّ من واقع الحياة فإنّ صبر النساء عادة هو ما يجعل البيوت عامرة، فماذا لو مِلْن عن الصّبر والاستقرار واخترنَ الميل والخلاص وهنّ في هذا الحال أقرب إلى الانتحار لا البدء من جديد، فتصبح النتيجة أنّ.. رُكنًا

يُهدم، وأطفال تبتلى بالنقصان والفقد، وامرأة مخدوعة تستفيق لتجد نفسَها على قارعة طريق الضياع وحيدة، ومسئولة، ومعاقبة بنفس الوقت عن قرارٍ اتّخذته من موضع مفتونة آمنت بسراب!

أو هي مترنّحة بخطيئتها بين وهْمها وواقعها الذي ما زالت لا تفضّله، ولا تستطيع الفرار منه.

أمّا هو، فهو لكِ ما دمتِ به ثملة؛ أو.. فداخِل دُرجه الإجابات لكلّ حالة وليس لحالتك معه فقط، حتى لتلك الصّادقة منها حين تريد حلًّا فعليًّا، فيشير لها إلى بيته الذي يجب أن يحافظ عليه هذا إن أثقلته بها، أمّا في حال أنّها موجوعة به فسيتقنَّع بعجز الرجال وهو يقذف في الهواء ببعض آهات الوجع المزيّفة!

فأين كان بيته وهو حولكِ وحول سواكِ يحوم؟!

وأين كان عجزه وهو فارسك في عالم الافتراض؟!

وأين هو عقلك يا «زهرة» وأنتِ تبحثين في كلّ مرّة بين كلماته عن عذرٍ لم تمْنحيه قطّ لصاحب الميثاق الغليظ.. الدكتور «زايد غريب»؟!".

***

«رسائلُ عائشة»

لم أعدْ أقوى على دفع تلك الضريبة من دمي، كلّما دعا «ضياء» والديه إلى بيتي أو قمنا نحن بزيارتهما في منزلهما، كلّما اجتمعنا تحت سقفٍ واحد تحدث المواقف السلبية التي لا تطاق، وبعضها من تلك النوعية التي لا تُغتفر، صوت «ضياء» الجَهْوري لا يُنهي مشكلة ولا يُغير حالًا، هو فقط يجلب

المزيدَ من أحقاد أخواته عليّ ونفورهنّ منّي، إنهنّ يتدخلنّ في تفاصيل حياتنا بشكلٍ كبير، «ضياء» ما زال يسمح لهنّ بذلك رغم كلّ كبائِرهنّ بحقنا.

اتّخذن ممّا حدث لي على أيدي «أسيل» وعصابتها ذريعةَ شماتةٍ، ومازلت أركن إلى الصمت بلا أدنى رغبةٍ في الحديث، يقابل «ضياء» كلّ أفعال أسرته بحقّنا بافتعالِ مشكلة مع كلّ مَن يحضر إلى زيارتي من أفراد أسرتي، فيذهب زائري ولا يعود.

قرّرت مباشرة «ضياء» بوجوب زواجه من امرأة أخرى كحلٍّ ينهي كلّ هذا اللّغط، من جانبه لم يعترضْ على الفكرة ولكنّ كلّ أسرته اعترضت حتى أنّ أخته التي تصغره بعامين اتّهمتني بأنني أريد إزاحته من البيت ليخلو لي، وجزمت أنّني أخطّط للاستيلاء على شقة والده إذ أخبرهم «ضياء» برغبته في الزّواج مع والديه بمحلّ سكنهما دون إخباري بذلك.

كانت حجّته أنّ والديه بحاجةٍ لمن تقوم بخدمتهم، وكان رفضهم أنّهم ظنّوا أنني مَن خطّط لهذا التفكير، وبدأت ظنونهنّ في الاشتعال، فتارة يقلنَ إنّني أطمع بشقّة أبيهن، وتارة أخرى يقلن إنّني أريد إثبات فشلهم هُم بوجود أخرى بحياة «ضياء»، قد لا تتحمّل تلك الأخرى بعض المشكلات العادية التي قد تحدث كناموسِ حياة؛ فيقول الناس بعد أن يعدّد «ضياء» إنّ العيب قد ظهر الآن في أخرى غيري، وأنّه بالتأكيد فيهم وليس فيّ، وتارات يقسمنَ أنّني أريد الاستقلال بلا رقابة من أحد، فإنهنّ يرون «ضياء» فاشلًا في مراقبتي!

هل تصدقين أنّني و«أنس» وصغيرتي قد طُردنَ من بيت حماتي مرّة بسبب هراءٍ كهذا، حين أجلستني أخته التي طالما ظننت أنّها أكثرهنّ طيبة لتحاسبني

على كلّ ما سبق، بل وعيّرتني أن أبي هو مَن سعى لهذه الزّيجة بالأساس، وأنني قمت بتحويل أخيها إلى كارهٍ لهنّ، وأنّ أبي قد باعني لأنّه لم يحاسبهم قطّ على أفعالهم الشّنعاء بحقّي، وزجّت باسم «أسيل» بشكل إيحائي شامتة فيّ، ومؤكّدة أنّ ما حدث صار وصمة عارٍ في تاريخي لن يمحُها وقت.

فلمّا لم تجد منّي ما تريده كردّةِ فعلٍ على كلّ تَرّهاتها هذه، ولمّا لم يعجب الأمر فلذة كبدي الذي يحمل دماهم.. «أنس»؛ فثار عليها وهو يصمها وكلَّ أسرتها بالظلم والافتراء، فما كان منها إلّا أنّها سبّته بأقذع الألفاظ، وأمرت إحدى الجالسات بتصويره وهو منفعلٌ عليها من أجلي، ثمّ طُردنا من جديد على يدِ حماتي ولكن تلك المرّة دون رجعة.

«أنس» والصغيرة هما كلّ ما أفكّر فيه طيلة الوقت، ساءت الأحوال بين «أنس» و«ضياء» بعد تلك الواقعة، لقد نجحت أسرةُ «ضياء» في هدم هرم الاحترام بين الابن وأبيه، فبقي «ضياء» بعينيّ ولده الزّوجَ الذي دمّر زوجته ولم يأتِ بحقّ ابنه الذي أُهدِر على أيدي حفنة من النساء.. كما يقول لأبيه دومًا، مُسمّياتهن التي لن تُمحِها مجرّد قطيعة كعمّاتٍ له أو كجدّة لم تكنْ كافية عنده حتى يغفر لهنّ ما فعلنَه ورآه منهنّ بأمّ عينيه.

كلّما فتح «ضياء» مع «أنس» أمرَ زيارة الأخير لجدّه وجدّته يقول ولدي لأبيه: "لنْ أفعل؛ بعدما تأتي لي بحقّي وحقّ أمّي منهم.. بعدها أذهبُ إليهم".

ما يؤلم «أنس» الصغير الذي كبّرته المواقف، هو وجود ثلاثُ رجال بالبيت.. جده وزوْجا عمّتيْه؛ ثلاثتهم لم يتحرّك لهم ساكن رغم علوّ الصوت وفداحة الألفاظ التي سبَّته عمّته بها، حالٌ مزرٍ الذي آلتْ إليه كلّ العلاقات

ببيتي، حالٌ يدمي قلبي وروحي كلّ ساعة دون سندٍ ولا معين، حتى ظهر أمامي ذلك المنشور فوق رئيسيّة حسابي على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك.

كان المنشور عبارةً عن إعلان مموّل لصفحة عامّة باسم (افتحي قلبك)، الاسم عبارة عن باب لاستقبال المشكلات النسائية في مجلّة اجتماعية شهيرة، والمنشور به تفاصيل وسائل التواصل مع القائمين على الباب، كان من بينها بريدٌ إلكتروني ورقمُ هاتف محمول، فورًا ودون أدنى تفكير قمتُ بتدوين كلّ تفاصيل المنشور داخل ملف word، وقمت بحفظه داخل ملفّ باسمي فوق حاسوبي.

وعندما أسدل الليلُ ستائره وسافرَ كلّ من «ضياء»، و«أنس»، والصغيرة إلى عالم الأحلام، كنت أنا قد اتّخذت قرارًا بإرسال أوّل رسالة إلى ذلك البريد الخاص بتلك المجلة، والذي سبق وخزّنته نهارًا لأعود إليه في الليل، حيث الهدوء الذي يستجلب أُنسي وصفاء ذهني، قمت بكتابة رسالة طويلة وأرسلتها بالفعل على بريد (افتحي قلبك) الذي على ما يبدو أنّه له روادٌ كُثر كما هو جليّ من ذلك التّفاعل الفياض فوق ذلك المنشور بحائطهم.

لم أتوقّع منهم ردًّا سريعًا هكذا، لكنّ وميض ذلك الإشعار أخبرني باستقبال رسالة، كلمات تريح القلب بالفعل تلك التي أُرسِلَت إليّ وكأنّ كاتبها كتبها بحروفٍ من نور، كانت الرسالة عبارة عن مستهلّ طويل بتفهّم المرسل إليه لما أرسلتُه، ثمّ عدّة نصائح طويلة، متبوعة ببعض الفروض اليومية، ثمّ طلب أن أرسل تقريرًا بما أنجزته وما لم أنجزه، وأخيرًا بعض الأسئلة المطلوب الإجابة عليها، قمت في التوّ بالإجابة على كلّ الأسئلة

وقمت بإرسالها، وكلّما أرسلت لهم الإجابة كانوا يرسلون مجموعةً جديدة من الأسئلة.

بضعةُ أشهرٍ انقضتْ ومازلت على تواصلٍ مع بريد (افتحي قلبك) بشكل مُنتظم، أتلقى بريدهم في الموعد المحدّد وكأنّ طبيبًا نفسيًّا يعودني وليست مجرّد رسالة أسبوعية تردُ عبْر بريدي مقابل تقرير أرسله قبل موعد استقبال رسالتهم بأربع وعشرين ساعة، تغيّرت في تلك الشهور كثيرًا، صرتُ أكثر إشراقًا وتألقًا، بدأت مشاركة أنس والصغيرة الحياة، ربما لم أتمكّن بعد من تجاوز تلك الفجوة بيني وبين «ضياء»، لكنّ شيئًا من التعايش طفا فوقَ علاقتنا، وجعلت ما بيننا راكدًا في قاع داخلي.

المساء المحدّد أتى؛ العاشرة مساءً من كلّ خميس هو موعدُ تقريري الذي أكتبه بما فعلته وما لم أفعله من قائمة الطّلبات الأسبوعية التي ترسَل لي، هذه المرّة شملت الأسئلة بعض الأسئلة الشخصية مثل ما هو اسمي؟! ما هو عنوان حائطي على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك؟! ما هو رقم هاتفي؟! ما اسم محافظتي؟! وما هي حالتي الاجتماعية؟!

ظللت أفكّر لأسبوع بأكمله في هذه الأسئلة، ما هي أهمية معرفتهم ببيانات كهذه؟! نعم أعرفهم منذ ما يقارب العام، لكنْ لا شيء يفيدهم إنْ أجبت على مثلها أسئلة، بينما الكثير من الضّرر قد يحدث لي إن أرسلتها لجهةٍ غير أمينة، بعد تفكير التَهَم الأيام الستّ الفارقة بين كلّ تقرير منّي ورسالة منهم؛ قررتُ الإجابة على بعض الأسئلة دون بعض، اسمي وحالتي الاجتماعية وعنوان حائطي على موقع فيسبوك.

فوجئت بطلب صداقة من رجلٍ لا أعرفه.. اسمه «يوسف»، وعندما ألغيت الطلب مرّتين ترك لي تعليقًا على أحد منشوراتي كتب فيه: "افتحي

قلبك" إلغاء واحد أخير لطلبي وتقوم إدارة فيسبوك بحظري فلو سمحتِ أرسلي طلبًا لي"، تحيّرت كثيرًا وتسمّرت عاجزة لا أدري ما الذي يجب أن أفعله؟! أنا لا أقبل إضافة رجالٍ غرباء، وهو بذكره لاسْم ذلك الباب الذي أُراسله منذ أقلّ من عام جعلني أقفُ منه موضعَ حرج، فكيف أرفض الصّداقة لأي سبب وكلّ تغيير إيجابيّ طرأ عليّ هم وراءه؟!

وأخيرًا قرّرت إرسال رسالة له على بريد حسابه بموقع فيسبوك، أعتذر منه لأنّني لا أضيف الرجالَ الغرباء، وهو رغم أنّه يعمل بتلك المجلة إلّا أنّه يظلّ غريبًا، فوْر إرسالي للرسالة ظهر لي أسفلها.. تمّت رؤيته.

وجاءني ردّ منه في التّو: "أنا «يوسف عزيز» كاتبٌ وشاعر، وأعمل بالمحاماة كعملٍ رئيس، متزوّج ولم أنجب بعد، هل تسمحين لي بالتّواصل معك بشكل يومي من باب الاطمئنان لأنّ بريد باب (افتحي قلبك) صار مزدحمًا بالرّسائل في الفترة الأخيرة، الأمر الذي اضطرني إلى تكوين فريق عملٍ أوكلت إليه التعامل مع بعض مشكلات الباب والمُعضل منها يرسلونه إليّ، والأمر كلّه في النّهاية يتمّ تحت إشرافي، ولكن من باب الأمانة وبعد كلّ تلك الأشهر التي استقبلت فيها رسائلك وحدي؛ رأيت أنّه من الأفضل التواصلُ معكِ بعيدًا عن المجلة، والقرار قرارك".

لم أجدْ ضيرًا في الأمر، فقبلت عرضَه، وانطلقت منذَها رحلة يومياتي مع «يوسف»، والتي ظلت الرّسائل بيننا فيها عادية حتى غاب عدّة أسابيع دون سبب بعد أن قاد يومي إلى منعطف الاعتياد والمعايشة.

***

لماذا لَسْتَ بجانبي؟! لا أحد يوجّه لأحدٍ غاب قصدًا، أو رحل طوعًا، أو أفل رُغمًا مثله سؤال، ربما نُصيغ السؤال الذي يحمل لآخر "قوةِ بيانٍ" أوجاع فقدنا لشخص بعينه قد غاب أو رحل، إلى شخص آخر الآن يشاركنا المكان عينه وليس المكانة فنصرُخ لنذيب جليدَ ملامحنا أن.. "لماذا لَيْسَ بجانبي؟!".

ألقت «زهرة» بهذا المنشور الحزين فوق جدارها في المساء، ثمّ أتْبعته باتصال ليليّ من هاتفها النقّال، أجابته «عهد» كعادتها بترحاب وودّ، هذه المرّة لم تكن «زهرة»، كانت صديقتها «عتاب» تصرخ بلهفٍ مستنجدة بـ«عهد» وتحاول بنفس الوقت أن تهدئ من روْع «زهرة»، والأخيرة ترسل بآهاتٍ متتالية عبرَ أثير الهاتف تارة، ثمّ لا تنفكّ تتحدّث بكلماتٍ غير مفهومة تارةً أخرى، لم تستطعْ «عهد» استنباط كلمةٍ واحدة ممّا يصلها منها؛ يمكنها بناءُ استنتاج علّها تصل به إلى أيّة إفادة، حتى سقط الهاتف من كفّ «عتاب» أو أُلقي بشكلٍ ما.. «عهد» لا تدري، و«زهرة» ما زالت تصرخ بصوتٍ عالٍ ولكنْ بكلماتٍ واضحة هذه المرّة:

– لماذا ليس بجانبي؟! أين ذهب «عزيز»؟! «عزيز».. أين أنت يا «يوسف»!؟ أريد «يوسف عزيز».. يا «يوسف»... يا..

و... انقطع الاتّصال فجأة!

عدّة اتّصالات مختلفة الأرقام وردتْ إلى هاتف «زهرة» دون مجيب، وعدّة اتصالات ترد إلى هاتف «عهد» النقّال كذلك دون ردّ، رسالة نصيّة حملت اسم «الكافَ» قد وردت إلى رسائل هاتفها، "أجيبي لأمرٍ هام؛ هناك مصيبة".

لم تنتظرْ «عهد» الاتّصال التالي من «يوسف» حتى تجيبه، لقد قامت بالاتصال على الفور، وقبل أن يقصّ عليها شيئًا ممّا لديه بادَرته هي قائلة:

– «زهرة» أليس كذلك؟! لقد قامت بالاتّصال بك وهي تنهار وتردّد اسمك بشكل هستيريّ، قل لي يا «يوسف» هل قامتْ صديقتها بإغلاق الهاتف بعدَ هذه التمثيلية المحكمة كما حدث معي، أمْ أنّ الأخيرة قد منحتك بعضَ الحلوِ فوق وجبتك الدّسمة كبطلٍ رئيس وليس ثانويًّا مثلي؟!

– «عهد» أنا لا أفهم شيئًا، أرجوكِ أخبريني ما الذي يحدث معنا؟! وما الذي فعلته صديقة «زهرة» معك، أو فعلتِه معها؟!

– لا شيء، «زهرة» تتواصل معي منذ بضعة أسابيع، عرفت منها عنك الكثيرَ والكثير، أمر الشّقة التي قلت إنّ صديقًا لك قد عرضها عليك وزميلك، الخمسة آلاف جنيه التي أقرضتها إيّاك، كلّ الهدايا التي أغرَقتك بها منذ عرفتك حتى مولد ميلادك الأخير، وكلّ تفاصيل لقاءاتك بها بين القاهرة ومحطّة قطار دسوق، وأخبرتني بطريقتك التمثيلية التي تلقاها وتفارقها بها، لكنّها لم تخبرني باسمك حتى قبيل دقائق من الآن، فنفس الاتصال الذي وردك قد وردني مثله، الآن صار اسمُك في النور، هي تعمّدت فعل ذلك من أجل اسمك وماء وجهها، بالتأكيد هي خدعة ذكيّة جدًّا ومشهد تمثيليّ محْبوك، أعلنت لي فيه بشكلٍ بريء عن هويّة الرجل الذي تحبّه وهي تعرف أنني أعرفه، وبنفس الوقتِ أرادت اسْتجداءك واستعطافك بذلك الانهيار الذي عمدت أن يكون عليه شاهد آخر غير صديقتها أمامك.. أنا.. أنا يا «يوسف».

– وهل صدّقتِها فيما تقوله بحقّي يا «عهد»؟!

– للأسف هي كلّ قوْلها حقّ أُريد به باطل، وبعد قذف اسمك بوجهي الآن قد تأكّدت كلّ ظنوني بحقّها، لكنّي مضطرّة لاستكمال ما بدأته حتى لا تظنّ أنني فررْت بعد معرفة البطل الهُمام الذي يؤرّقها عشقًا.

– افعلي ما يحلو لكِ، ولكن أخبريني ماذا أفعل الآن؟!

– افعلْ ما يحلو لك أنت الآخر.. ولنَرَ على أيّة ضفاف سنلتقي من جديد.

الحبّ فيه من سرّ الرّوح، لا يُسأل مسكونٌ به لمَ أو كيف، حامله حيّ وواضعه ميت، وكم من أمواتٍ ينكرون على الأحياءَ دفقهم، و«عهد» تحبّ «يوسف» كما لم يحبّ عاشق من قبل، رغم كلّ طعنات الحقيقة التي تستقرّ بوَتين روحها الآن الطّعنة تلو الأخرى، إلّا أنّها أحيانًا تمتلئ به؛ حتى يكاد يصنع شقوقًا في روحها ينفذ منها من فرْط زَحمها به، وأحايين تفرغ منه؛ حتى تكاد تلملمُ خطاه وتتيمّم بها من فرط التّوق، وأحيانًا تسكن من فرط الرّهق.. ومن جديد تعاود.

معركتها أكبرُ من الحصول عليه، أكبرُ من غيرة النساء التي تحرق وتدمّر وتهدم دون تحقيق غاية وترْكِ أثر، ربما يظنّها الآن بطريقها للانتقام وشقّ الصدور والقضم من الأكباد، لا يهمّ.. ستكتب الليلة أولى رسائلها الطويلة إليه وليس له خيار إلّا أن يقرأ بنفسه عن نفسه.. قبل أن يُقرأ عليه.

ذلك الوعاءُ الذي لا تريد له بريقًا..

تلك السّجينة التي لا علاقة لها بكلّ الحياة خارجك، تلك الخام التي لا تودّ أن تفسد فِطرتها بمتُطلباتك الحميميّة، فأخذت منها ما تريده هي فقط

وتركتها "مغلّفة" بطين البراءة ظنًّا منك أنك بهذا ستكون تجاهها مطمئنًّا، إنّها التعسة المطوّقة باهتمامك الظاهري فقط، إنها المتوجسة التي تربّت على الإخفاء، إخفاء كلّ شيء يمكن أن يجعل نظرةَ الرّجل تنتقص خُلقها، حتى أنّها في ليلة "عرسها" يقولون لها لا تندفعي فيظنّ زوجك بك السوءَ فكوني ثقيلة وكما يريد هو.. كوني أنتِ!

إنّها الفقيرة التي لم تحظَ منك إلّا على الاحترام المزيّف، فقابلت هذا الاحترام منك بالْكبت الشّعوري، وقابلت رغبتك- التي على استحياء- بالرّفض والنفور حتى لا تقول عنها ليست محترمة، فعِشتما كلاكما بعيديْن عن جوهر بعضكما البعض، فلا هي تستطيع البوحَ بهواجسها التي تمليها عليها أنوثتُها في حضرتك، ولا أنت تحتاج منها لأكثر ممّا تأخذه منها، أما بقية ما تفتقده من احتياج فصار الحصول عليه اليوم سهلًا بعيدًا عن هذا الملاك الذي يدور في فلكك فقط، والذي تنتشي وأنت توصمها بالبرود في حضرة أخرى وكأنّ برودها هو سرُّ ثقتك فيها!

لا.. ليست باردة يا سيدَ ذكور الكون، هي فقط- ورغم كلّ سنواتها في حضرتك- ما زالت بكرًا، ولأنّك تمتلك من الأنانية ما تمتلك، فأنت أردتها كما هي الباردة كما تصفها بأرض «زهرة»، و"القطة البريئة" التي تمصمص شفاهك عند ذكْرها لـ«عهد» قبل أن تقول عنها إنّها.. "خام ولا تعرفُ في هذه الدنيا شيئًا".

هي فقط جُبلت على مفاهيمَ تطبيقُها ينتجُ عن ازدواجية النتائج، فلمّا كانت الأمّ تخاف المجازفة أوكلتها فقط إلى الحياء المبالَغ فيه، فما كان منك إلّا مقابلة كلّ هذا الحياء بترحاب أراحك، لأنك تريدها هكذا ولا تريد منها

أكثرَ ممّا تنله منها، بينما أنت على كلّ الموائد تمارس طقوس المغالاة في المشاعر الورديّة؛ والحيوانية كذلك.. فتهدي الاهتمام لزوجةِ رجلٍ آخر، رجل مثلك ترك زوجتَه تعاني الفقد ولهثَ خلفَ أخريات ليمْنحهنّ الزّيف، وكأنّ الحيوات الزوجيّة قد تحوّلت إلى ثالوث أنفاس؛ الزّوج والزّوجة.. وأنفاسٌ ثالثة بينهما تجلب التعاسةَ إلى النفوس والقلوب وتهدي الأبدان شيئًا من اللذّة الوقتية والكثيرَ من الدّنس الذي لا يُمحى بغسلٍ أو وضوء.

أمَا وقد أثبت لنفسك رجولتك، أمَا وقد مارست طقوسك المنحرفة كلّها فوق تلك الأنفاس الدخيلة على قويم الفطرة، فتنهي هذه الكبيرة بوصيةٍ تهمس بها في أذنها قبل أن تستفيق من السّكرة: "لا تُغضبِي زوجك وكوني له متى أراد كما يريد".

ما الذي تريد أن تُثبته لنفسِك بذلك؟! هل تعجبك ثوراتُ الزّهور، وهنّ يقسمن لك أنّ اللمسة من أكفّ أزواجهنّ صارت حارقةً وقاتلة ومميتة في أحايين كثيرة؟!

كلّ هذا الجهد الذي تبذله مع ضحاياك حتى يتخلّين عن حيائهنّ في غير موضعه، وكلّ ذلك العطاء الذي تنفقه سباياك لتجعل منك خيرَ سيّدٍ لهنّ، ماذا لو أنك بذلت مع زوجتك نصف ما تبذله معهنّ، وهنّ بذلنَ كلَّ وسعهنّ لإسعاد سيدهنّ الحقيقي؟!

وماذا لو كان التّكليف على قدر الوسع، ولإن صبرتم زادكم اللهُ من فضله، أو فسبيلُ الحلال بيِّن وكلام الناس لن ينقطع في كلّ حال.

التّوبة تعيد المذنبَ كيوم ولدته أمّه، وإن كانت الفتنة لا تصيب إلّا أصحاب النعم، لا أحد من عباد الله فوق أرضه بعيدٌ عن الفتن، تعدّدت

صنوف الافتتان، وتفاوتت في القلوب درجاتُ الإيمان.. لكنْ تنحصر الفتن على كلّ حال بين (زلّة واسْتفاقة.. وزلّة واسْتساغة)، فأما وقد اسْتساغ المرءُ زلّاته فهو أبعد ما يكون عن ضحية، والعافية لَمن استفاق.

عُدِ الآن إليها.. ارجعْ إلى زوجتك التي يقتلها صمتك؛ لكن يحييها أنّها تراك في كلّ حال بعين المُتملّكة، امنحها وقتَك وذاتك وروحك، واتركها تتنهّد مطمئنة أنّ الأرض قد خلتْ إلّا منها وآدَمِها الأوْحد.. فتلْتحف بأكْتافك في سكنٍ وتنام".

انتهتِ الرّسالة.

***

ثلاثةُ أيّام مرّت على غياب «زهرة» المريب، هواتفها النقالة ظلّت خلالهنّ تستقبل الاتصالات من غير إجابة، حتى أُغلقت أرقامها كلّها دفعة واحدة، لم تجد «عهد» بدًّا إلّا أن تفتش في سجل هاتفها عن ذلك الرّقم المنزلي الذي كانت «زهرة» تُهاتفها منه أحيانًا، أخيرًا وجدته فقامت بالاتّصال به فورًا، شابّ عشريني أجاب اتصالها بشكلٍ روتينيّ، ثمّ قام بترك سماعة الهاتف إلى جدّته، بتوجّس أجابت والدة «زهرة» على سؤالها عن الأخيرة ثمّ استدركت بسرعة إجابتها وهي تسأل «عهد» بترقّب:

– مَن حضرتك أولًا؟!

– أنا «عهد إبراهيم»، أعرف ابنتك من على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، منذ مدّة قادني القدر إلى حائطها، وهناك هالني ما قرأت ففكّرت لو أساعدها حتى تتعافى من كلّ ما بها بإذن الله، فهل هي لا تزال بالمستشفى بعد؟!

– أيّة مستشفى! «زهرة» لم تدخل أيّة مستشفى منذ مدّة طويلة.

– كيف هذا!؟ لقد اتّصلت بي صديقتها المقرّبة «عتاب» منذ ثلاثة أيام وأخبرتني أن «زهرة» قد أصيبت بانهيارٍ عصبي دخلت على إثْره إلى المستشفى.

– تبًّا لصديقتها تلك؛ هي وراء كلّ ما يحدث من البداية، يا ابنتي أقول لكِ.. «زهرة» بالبيت لم تبرحْه في الفترة الأخيرة قط، وهي الآن في درس السّباحة مع صغيرتها.

يا الله ! لقد تعمّدت ما فعلته كلّه! لقد تعمدت ذكر اسمه أمامي بتلك الطريقة، وغابت عمدًا ما الذي تخطّط له تلك المرأة؟! وما الذي تنتظره بعد إقدامها على هذه الكذبة؟!

– لا أدري ما الذي أرادته بفعلها هذا يا أمّي، لكني كنت أودّ تقديم المساعدة على أيّة حال.

– إيْ والله يا ابنتي، بالله عليكِ ساعديها على ترويض نفسها التي أتعبتنا كلنا هذه.

– هي تقول غيرَ هذا يا أمّي، تكتب أشياء كثيرة عن حياتها التعيسة فوق جدار صفحتها الخاصّة بمواقع التواصل الاجتماعي، مثل هجر زوجها لها في الفراش، خصام ابنها الأكبر لها منذ سنوات، إدمانِ ابنها الآخر منذ عام، كلّ خلافاتها مع حضَرتك وأشياء أخرى.

– وأشياء أخرى..

وأشياء أخرى.. قالتها العجوز بتمعّنٍ شديد وهي تتمتم مؤكّدة:

– هو السرّ كلّه في تلك الأشياء الأخرى.

ثمّ أخذت تسرد على «عهد» بهدوءٍ ردّها على افتراءات ابنتها تلك كشاهدة عيانٍ من داخل الحدث.

– يا ابنتي، «زهرة» كانت قبل ستّ سنوات غير ما هي عليه الآن بالمرّة، ابنتي كانت مريضةَ سمنة، جسدها كان ممتلئًا إلى حدّ كبير، لكنّها كانت جميلة ورائعة، حتى أجرت عملية تكميم المعدة، والتي أفقدتها نصفَ وزنها في ستّة أشهر فقط، مهما وصفت لك البشاعة التي تحوّلت إليها «زهرة» لن تصدقيني، جلد ذراعيها قد تدلى بشكل مقزّز ومثله جلد فخذيْها وسائر جسدها ولكن بنسب متفاوتة، زاد الطين بلّة إصابتُها بمرض الصدفية الذي أسقط معظم شعْرِ رأسها، ثمّ حوّلها مرض الذئبة الحمراء الذي أثر على مناعة جسدها إلى هدفٍ لكلّ الأمراض الطارئة، صدّقيني لا أدري ما الذي تفعله ابنتي على مواقع التواصل الاجتماعية تلك وهي بهذه الحالة، أنا والدتها التي أنجبتها من رحمي صرتُ أخاف أن أنظر إليها لو أنّها قامت بتبديل ملابسها أمامي.

صمتتِ المرأة تلتقط أنفاسَها قليلًا، قبل أن تزفر بتلك التّنهيدة الحارة واستطردت حديثها من جديد:

– وأمّا زوجها فهو زوجٌ مريض ليس لديه قدرة جنسية فماذا يفعل لها؟!

– ليس لديه قدرة! كيف يا أمّي؟! لقد قالت لي ابنتك أنّه هجرها رغم قدرته!

– غير صحيح ما أخبرتْك به، هذه هي عادتها دائمًا في قلب الحقائق، هي التي أهانته كثيرًا جدًّا، وهو الذي صبر على جنونها هذا طويلًا، وكلّما

وجدت نفسها مدانةً تهدّد بالانتحار، كلّ هذا وأكثر صبرَ «زايد» عليها فيه، وفي النهاية قامت بطرده من غرفتها وهو رجل كبير السنّ والمقام كذلك، ثمّ بعد هذا بفترةٍ بسيطة تفاجئنا بإجرائها عملية تكميم المعدة تلك، وبعد بضعة أشهر أرادت أن تعيدَه إلى فراشها لكنّه رفض، وقال لها: "لست طفلًا صغيرًا لتحوّليني إلى لعبة تمزقِيني متى أردتِ وتبقي عليّ وقتما يحلو لكِ".. وكان «زايد» لديه كلّ الحقّ فيما يقوله، الإهانات التي كالتها إليه لا يستطيع أحدٌ نسيانها أو تجاوزَها، وهو كان عاجزًا نفسيًّا وبدنيًّا، لكنّها لم ترحم عجزَه أبدًا.

– وابنها المُدمن.. هل هو حقًّا مدمنٌ أمّ أنّ به مرضًا ما؟!

– لم يتحوّل حفيدي إلى مدمنٍ بين يوم وليلة؛ فهي مَن أفسدته بفرط تدليلها له وعدم متابعته منذ البداية، حتى أنّه انشغل بفتاةٍ وهو ما زال بالمرحلة الثانوية بعد، وكلّ ما كان يشغله أنّه يريد أن يتقدّم لخطبتها، الخلاف بين أمّه وأبيه في هذا وفي كلّ شيء هو مَن حوّله إلى شخص هشّ، فارتمى في أحضان المخدرات بينما أمّه تمدّه بكلّ المال الذي يطلبه دون سقفٍ أو حساب.

– وماذا عن خصام ابنها لها.. ما السبب فيه؟! ولماذا طال بينهما هذا الخصام هكذا؟!

– هي دمّرته أيضًا لكن بفاجعة وليس بفرْط تدليل، لقد حوّلته إلى شاب معقّد بأفعالها الهوجاء وهي بتلك السنّ، ما الذي تنتظره منه بعدما يرى نصَّ محادثة بريدية بين أمّه وأحدهم على الإنترنت تحتوي على ألفاظ جنسيّة فاضحة؟! لم يستطعْ حفيدي تحمّل الأمر بالطبع وثارَ عليها، وبجاحَتُها عند مواجهته لها بما قرأه قضتْ على تلك الشعرة التي بينه وبين كلّ النساء وليس

هي فقط، لقد انتهى من دراسته منذ عامين وكلّما فاتحه أبوه بأمر الزواج يثورُ ويغضب ويقسم أنه لن يتزوّج أبدًا، فما الذي تقوله عليه بعدَ هذا فوق تلك المواقع التي دمّرته ودمّرتها؟!

– هل كانت المحادثة التي قرأها ولدُها على حاسبها المحمول بينها وبين رجلٍ يدعى «يوسف»؟!

– لأ؛ كان اسمه «شوقي» مغتربٌ أظنّ، وكانت تحدّثه مكالمات صوتية طويلة كذلك، بعضها كنت أسمعه بنفسي فهي لا تنفكّ تضع سماعات هاتفها بأذنيها طول الوقت.

– و«يوسف».. هل سمعتِ «زهرة» وهي تتحدّث مع رجل بهذا الاسم؟!

– نعمْ أعرف الاسم فقط «يوسف عزيز» كاتب أظنّ، هل قصّت هي عليكِ قصة «يوسف» أو مِن أين أتيتِ باسمه؟

روتْ «عهد» لوالدة «زهرة» كلّ ما حدث بينها وبين ابنتها من الألف إلى الياء كما يقولون، والعجوز تسمعها بحيرةِ أمٍّ تسمع عن فلذةٍ من فلذات كبدها ما تكره أن تسمعه، ما أن انتهت «عهد» من الحكاية حتى قالت لها والدة «زهرة» بشرود:

– أعرف «يوسف» هذا اسمًا كاسم «شوقي» الذي كان يسبقه في الحديث مع ابنتي، هو الآخر كان يتواصل مع «زهرة» ليلَ نهار، لكنّي لم أكن أعرف أنها تسافر معه أو إليه وأنّها أقرضته ذلك المبلغ الذي ذكرته الآن.

يبدو أنّ الحكايات الناقصة أكثرُ راحة لابن آدم من التتمّة، ويبدو أنّ الحقيقة كاملة لا يقوى على حملها إلّا الله– عزّ وجل–؛ لذلك فإنّ الله يحاسب

عبادَه على السرائر والنوايا وما يعلمه ولا يعلمه سواه، وهو سبحانه مَن يغفر ويعفو ويبدّل المصائر، وهو الستّار الذي يُظِلُّ العابد المتنسك والمجرم المتجبّر بسماءٍ واحدة حتى يلقاه كلّ بسريرته وما خُتِم له به.

إنّ معظم أوجاعنا تأتي من تتبّع أسرار الناس وخفاياهم، وكلّ راحتنا في ترك ما لا يعنينا وأخذ ما يُغنينا، فإن قصد الخلاص من نفسٍ واحدة أمَّارة أعظم من إماطة ألف أذى عن الطريق، فليس أكثر إيذاءً من نفسٍ تقبل بحملِ الأمانة ثمّ تضيّعها عن قصدٍ وهي لا تبغي بذلك إلّا افتراءً وكذبًا.

طلبت والدة «زهرة» من «عهد» الإبقاءَ على هذه المكالمة الهاتفية سرًّا بينهما، على أن تعْطيها رقمَ هاتفها الشخصيّ، وتوسّلتها متى تمكّنت من التواصل معها أن تفعل فورًا، ومن لديه جديد يصبّ في صالح «زهرة» لا يبخلْ به على الآخر، قطعًا العهود وأنهت «عهد» الاتصال مع العجوز على وعدٍ بمعاودة الاتصال بها من جديد.

جلست «عهد» لعدّة أيام فوق جدار «زهرة» الافتراضي تعيد القراءة من جديد لكنْ هذه المرّة بكلتا عينيْها.. هي تقرأ وتقرأ.. وكلّ شبر كان معتمًا في رأسها يضيء ويضيء.

***

«رسائلُ عائشة»

من دون مقدّمات سألته ذاتَ صباح فجأة:

– «يوسف»، مَن هي «زهرة صلاح»؟!

فأطلق ضحكة مجلجلة وهو يقول ببراءة:

– يا بنت المجنونة! بالله عليكِ أخبريني هل كان من بين عائلتك أحدٌ مَجنون، ها..؟!

– هل انتهيت؟

– نعم.

– حسنًا، مَن هي «زهرة صلاح»؟!

– إنّها صديقة مقرّبة لزوجتي؟!

– توقّعت هذا الردّ منك.

ثمّ أطلقت زفراتٍ حانقةً متتالية جعلته يردّد اسمي أكثر من مرّة حتى أتوقّف وأسمعه فأجبته:

– نعم.

– لماذا «زهرة» تحديدًا؟! بينما كثيرات هنّ متابعات حائطي ويعلقنَ عليه.

– ستعرف فيما بعد أو ربّما لن تعرف أبدًا.

أطلق «يوسف» هذه المرّة ضحكة طويلة قبل أن يقول:

– لا أعرف «زهرة» تلك، صدّقيني، لو كنت أعرفها لن أنكرَ هذا منكِ تحديدًا، ثقي في هذا.

– لكنّها تابعتني اليوم، وهذا يؤكّد شعوري نحوها، لذا فأنا أكرّر عليك سؤالي كفرصة ثانية، ربّما تريد أن تجيب إجابة مختلفة هذه المرّة، مَن هي «زهرة صلاح» يا «يوسف»؟!

ضحكات متقطّعة بشكلٍ مسرحي أطلقها من جديد قبل أن يقول:

– دعكِ منها ودعيني أعدّ لكِ معي كاسة شاي بالنّعناع الطازج، أعرف أنكِ من عشاق القهوة لكنّك ستفضِّلين الشاي بعد أن تتذوقينه من يدي.

إنّ زقزقة العصافير في الصباح ليست إلّا قليلٌ من المشاكسة استعدادًا لحرب لقمة العيش؛ غير أنّ آذان الأرواح الشفيفة تلتقطها عزفًا، فسلامٌ على مَن يرى الواقع على حقيقته ولا يستنكر على الحالمين رُقِيَّهم.. كَأنتَ تمامًا يا «يوسف».

«يوسف عزيز».. واقعيّ وحالِم.

واقعيّ إلى حدّ تقمّص دور المصلح، المعلم، والنّاصح بامتياز، وبنفس الوقت هو حالمٌ بروح محلّقة تجاور عصافيرَ الصباح وربّما تشاركها زقزقتها فيرسل شيئًا من شدوه لي في الصباح يحوِّل بقيّة يومي إلى طفلٍ راقصٍ وعازفٍ ومنشد.

ثمّة شعور ينمو في القلب الخالِ من دون معطيات منطقيّة، كما تنبت صبّارة وحيدة في شاسع رملِ الصّحراء الأصفر، يتساءل كلّ مارٍّ قربَها وهو يتعجّب وحدتها وخضارها.. أيّ ريح حملت بذرتك إلى هنا؟! وبنانُ مَن التي قامت بَغرسِك؟! وكيف ترتوين؟ ومتى؟!

إنّهم يعبثون..

مَن قال لهم إنّ الحبّ فيه أي، ومن، وكيف، ومتى؟!

إنّ الحبّ رزقٌ كالمطر؛ يومضُ فيُرعد فيملأ الكونَ بالأثر، وأنا مبلّلة به كلي، وما زلت أردّد بعدُ أنّ الكثيرَ منه لا يرويني، وإنْ جاء كلّه؛ فإنّي في عطشٍ

لا رواءَ منْه إلّا أن يتنفسَ الصّبارُ من رفاتِنا معًا، فوالله كلّ حياةٍ لا تُختَزل في اثنين من «نفس النفس» عدم، فـ لله درّ البنان التي ضمّت قبلَ القلم «شيء منه ودثرَته بشيء منّي» ثمّ وضعته حرفًا من غير رحم ولا مسّ بشر.

لقد أحببته، نعمْ لقد سقطتُ كلّي في محبّة «يوسف».. لا أدري كيف؟!

كان يتواصل معي عن طريق محادثات فيسبوك كلّ لحظة، حتى أنّنا قد تبادلنا المواضع، بعد أن كان هو يسأل وأنا أجيب، ثمّ يقوم بنصحي هنا أو نهْري هناك، صار يحكي لي هو الآخر عن حياتِه، كلّ ذكرى راكدةٌ في نفسه التي لا يعرفها أحدٌ صار يسرّني بها، انتهى من الحديث عن ماضيه لكنّه لم يتوقّف عند الماضي فقط، يومه المليء بالحركة والنشاط ممتلئ بالكثير من الأحداث كذلك، تفاصيل يومه الكثيرة والجميلة هي ما حرّكت راكد يومي مع ذلك النمطيّ الذي يجاورني في هذا البيت المظلم.

ربّما لم أحدّثك عن «ضياء» الزّوج وعن حالي معه كزوجة، من كثرة ما ابتليت في أهله من مصائبَ كنت لا ألتفتُ إلى الاختلاف الذي بيني وبينه، فالمسَافة النفسيّة بيننا كبيرة بالفعل، وكلّ ما يقعُ منه لا يُرى منّي من فرط بعد العين عن الفعل بفعالٍ أكبر.

«ضياء» الإنسان شخصٌ ليس له صديق ولا صاحب، تواصله مع الغير ضعيفٌ جدًّا والجيد منه قائمٌ على وجود مصلحة، لا يحبّ الخروج من المنزل إلّا مكرًها، فاقد لثقافة التجديد ومؤمن بأن كلّ ما يُقتنى أو يُشترى للضرورة، وأحيانًا للضرورة القصوى، كلّ ما ينفقه من جيبه كثير، وكلّ ما يُهدى إليه قليل، يقوم بحساب كلّ شيء حتى وقت الفسحة والمبلغ الذي ينفقه فيها، وكثيرًا ما تنتهي فسحتُنا بصحبته بقليلٍ من الكدر والكثيرِ من الأثر النفسي السيئ.

كنت أتفنّن في اختلاق الأعذار له في كلّ مرّة يتعمّد فيها التأسُّد عليّ أمام الجموع، كنت أبتسم وأرفرفُ كحمامةٍ ليست مطعونة في كبريائها، أجتثّ نظرات الشماتة وألقي بها بعيدًا قبل أن يُظهرها المتربّصون بي، وكنت لا أسمحُ له أن يجعلني موضعَ شفقة كذلك من الأقربين لي، بل أختلقُ عذرًا له يليق بكبريائي وأنا مبتسمة ابتسامة شهيدٍ رأى مقعده في الفردوس؛ فاطمئنّ.

إنّ وجود «يوسف» بحياتي جعلني أرى اختلافي عن «ضياء» جليًّا على طول المسافة بيننا، كلّ شيء أُعايشه اليوم في «يوسف» هو ما كنت أتمنّى أنْ أرى «ضياء» عليه.

«يوسف» بائع العرقسوس يحبّه، كلّ يوم يمرّ عليه العجوز فيعطيه كأسة عرقسوس محلّاة بالحبّ، قهْقهته على نفس المقولة المتكرّرة التي يداعبه بها «يوسف» كلّ يوم تقول إنّه يحبّه.

– كم تريد يا عمّ «محمد»؟!

– ثلاثة جنيهات يا ابنَ الكرام.

– هل تريدهم "فكّة" أمّ ورقة واحدة؟!

هنا، يضحك العمّ «محمد» حتى أكاد أراه بأذنيّ، وعيناه تدمعان من شدّة الضحك، حياة بسيطة وسريعة لكنّها على ثوابتها متجدّدة، وبها حياة، يشاركني «يوسف» بعضها عبر اتصال هاتفيّ قصير، وكأنّه لا يمكنه العيش من دون إهداءِ قطعةٍ من روحه إلى أحد.

دفء مسائيّ يسري حولي كلّ ليلة حتى في تلك الليالي الينايريّة القارسة، عندما ينتهي يومه وأنا معه على الهاتف، فيلقي السلام هنا وهناك حتى على

شجر الطريق وحصاه، ثمّ يبدأ بتفقّد كلّ من يمرّ عليه طرفه بحميميّة مهتمّ وليس بسلام عابر سبيل، حتى أنه يلبي نداء كلّ قاصد، فأحيانًا يغيّر مساره من أجلِ هذاَ أو تلك، فينسى في أوقاتٍ كثيرة أنه كان جائعًا جدًّا قبل قليل، وربما يستمرّ جوعه حتى فجر اليوم التالي وهو في حوائج الناس.

كيف لا أحبّه!

وهو الرّوح التي طالما تراءت لي في أحلام يقظتي، في البيت هو طفلي المشاكس الذي لا يكفّ عن المشاكسة وصُنع الشّراك لي ليلَ نهار، وفي الشّارع لا يلتزم هو بجمود وجهٍ كوجوه الناس مِن حولنا، لا يهمّه إن لم يجده النّاظرون إليه وقورًا، هو ينطلق كعصفورٍ حرّ بين الناس؛ يلقي على هذا جُملةً تُضحكه، ويقوم بحركةٍ تمثيلية هزليّةٍ تحوّل أشدّ الوجوه العابسة إلى مدينة فرح.

إنّي أعشقه حين يخطف من أمام بائع التّرمس بضع حبّات وهو يهمس له بجذل ومرح بينما يهزّ كتفيه:

– حفنة فقط من أجل حبيبتي.. أمّ تريدها تقول عليّ بخيلًا!!

ثمّ يخرج له أحدَ جيوبه وهو يمثّل البكاء بشكل طفوليّ لأنّه لا يملك النقود، فيجعل بائع الحبّات الصّفراء في ثانية يهديه قرطاسًا ممتلئًا عن آخره بالتّرمس وهو يقول له:

– ربّ يبارك لك فيها.

فيضحك «يوسف» وهو يغمزُ لي، قبل أن يخرج من جيب بنطاله الآخر ورقةً نقديّة من الفئة الكبيرة، ويعطيها للرجل قائلًا بسعادة:

– كنت أداعبك فقط يا صديقي.. احتفظ بهذه الورقة لنفسك، لكن إن مرّ عليك عاشقان ووجدت فيهما ضيق اليد؛ فأعطهم القليلَ من (الحبّ) باسم.. «يوسف عزيز».. ها لا تنسَ «يوسف» مَن؟!

– «عزيز».. «عزيز» من المستحيل أنْ أنسى الاسم؛ لا تقلق.

***

– وأخيرًا خرجت يا «عهد» من المشفى.. الحمد لله نفسيّتي الآن صارت أفضل كثيرًا.. ها أخبريني هل أوحشتك يا صديقتي؟!

– بالطبع يا غالية.. حمدًا لله على سلامتك يا «زهرة»، دمتِ بخير يا جميلة.

– هيّا أخبريني ما الذي كنتِ تفعلينه طيلة العشرة أيام التي غبت عنكِ فيها، غير تصفحك منشورات حائِطي والتعليق على كلّ منشور مرّ تحت يديكِ؟!

– ما كنت سأفعل لولا ذكرك لذلك الاسم.. «يوسف عزيز».

مثلت «زهرة» الارتباك فابتلعت ريقَها بشكلٍ مدروس وهي تضغط على أحبالها الصوتية بشكلٍ ما حتى تخرج كلماتها مُرتجفة:

– عن أيّ يوسف تتحدّثين يا أستاذة؟! قلت لكِ إنّ اسمه «عليّ» وليس يو...

– نعمْ صحيح، هذا ما قلتِه لي منذ بضعة أشهر، لكنّك منذ عشرة أيام يوم أصابك ذلك الانْهيار الحادّ كنتِ تصرخين بهذا الاسم دون وعي، وأنا أعرف شخصًا بالفعل يحمل نفس الاسم وأتمنّى أن لا يكون هو..

– لكنّ صديقتي «عتاب» كانت معي لحظة انهياري وهي لم تخبرني قطّ عن هذا الأمر شيئًا!

– اصدقيني القولَ يا «زهرة».. فأنا لن يمكنني تجاوز هذا الاسم بهذه البساطة، هذا الرجل يهمّني جدًّا وكلّ ما ستخبرِيني به عنه سينقذ بيوتًا كثيرة وأنفس أكثر.. أنا وأنتِ إحدى تلك النّفوس.

صمتتْ «زهرة» قليلا مدّعيةً أنها تفكّر قبل أن تجيب، دقيقة حسمت فيها أمرها، أو هكذا أرادت أن يصلَ حالها لـ«عهد» قبل أن تقول بتوجّس:

– لكنّه أخبرني أنّكِ صديقة زوجته، وحذّرني من أيّ تعامل معك.

– ليس صحيحًا، وأنتِ تعرفين ذلك، لو كنت من طرف زوجته وأتقصى أمرك لصالحها فقد عرفت كلّ شيء بالفعل من خلال منشورات حائطِك الالكتروني، وإليكِ بعض من تلك الدّلائل.

أنهتْ «عهد» جُملتها ثمّ قامت بإرسال عدّة لقطات للشاشة بها منشورات متنوعة من فوق حائط «زهرة» على موقع التّواصل الاجتماعي فيسبوك، ثمّ أخبرتها بعدّة حقائق تعرفها «زهرة» جيدًا؛ كم مرّة التقت به، وأين، وما أنواع الهدايا التي أهدتْها له، ومتى، ومتى أهملها، ولماذا؟!!

– لقد سبق وسألتِني في بداية تعارفي بكِ.. هل مارستِ الجنسَ معه، فأجبتُك بـ لا، نعم.. لقد مارستُ الجنسَ معه.

لم تستطعْ «عهد» تمالك نفسِها فأطلقت شهقة ألم أودعتها صدمتها كلّها من دون قصد، لم تكنْ تدري أنّ اعتراف «زهرة» بهذا سيكون مؤلمًا جدًّا هكذا، نعم لقد سبق أنْ سألتها، وكانت تنتظر إجابتها بنعم وليس لا، فما الفارق بين سابق سؤالها وبين اعترافها الآن؟

التّهيئة هي الفارقُ الوحيد بين هذا وذاك، لم تكنْ «عهد» تهيئ نفسَها لتلقي اعترافًا كهذا من «زهرة» الآن.

– أعرف أنّكِ ستكرهينني، وربّما تقطعين صلتك بي، لكِ كلّ الحقّ إن فعلتِ، لكن حقّي عليكِ أن تسمعيني لمرّة أخيرة على الأقلّ أوضح لكِ فيها الكثير من الحقيقة فما قلته ليس إلّا مجرّد عنوان، وفي التفاصيل الكثيرُ من الوجع والكثيرُ من التوضيح أيضًا، إنْ لم تسمعيني– ولو لمرّة أخيرة– سأنتحر وأتخلّص من كلّ حياتي، وأريحكم منّي كذلك.

لم تتلقّ «زهرة» جوابًا من «عهد»، لكنّ الاتصال ما زال قيدَ التّشغيل، فاعتبرت «زهرة» هذا قبولًا مِن قِبَل «عهد».. فأخذت تسردُ على مسامع «عهد» ما تريد سردَه.

"«يوسف» هو مَن عرض الحبّ عليّ بإلحاح وكنت ضعيفة، مُنهكة، أريد بعض الاهتمام فقط، لكنّه أوْلاني الكثيرَ من الاهتمام والحبّ والحياة، لقد سقا ظمأ الأنثى الجميلة التي فيّ؛ فأينعت كما لو أنّه بروحه سحر، وقد ألقى عليّ بكلّ روحه، هربت منه كثيرًا لكنّه كان يحاصرني، وكان يجيد الحِصار، وكنت بحاجةٍ لقبضةٍ كقَبضتِه تكبح عليّ لجامي ولا تفْلتني، استسلمت له؛ فسقاني الحبّ حتى ارتويت مقابلَ بعض لحظات المُتعة، أقسم لكِ أنّني كنت أرضيه هو، لكنّه كان كثيرَ الطلب، أنتِ لا تعرفين «يوسف» في هذا الجانب كما أعرفه، أغدقت عليه بالهدايا حبًّا وأهداني هو خاتمَ زواج، ثمّ ألقى على مسامعي طقوسَ الزّواج وترنيمات القبول والولاء.. والبقاء.

وقد قبلتُه زوجًا، منذ تلك الساعة وهو يعاملني كأنّي زوجته بالفعل، لا ينفكّ يعرف كلّ تفاصيلي، عشرات الاتصالات على مدار اليوم والليلة، لقد كنت أعيش معه بالفعل وليس في الافتراض كما قد تظنّين.

كلّ مرّة كنت ألقاه فيها كان يتعمّد التخفي، ثمّ يظهر أمامي فجأة وأجدني بين ذراعيه، قابلته بالقاهرة كثيرًا، لي معه بها ذكرياتٌ طوال، بعدما بهت حضوره ونضبَ اتصاله، وجفّت أحباره؛ طلبت منه أنْ ألقاه بالقاهرة لمعرفتي بتأثيرها على نفسه.

لكنّه كان لقاءً كلّ ما فيه منقوص، حتى أنّه انتهى سريعًا، شعرت بالاختناق بعد وداعنا فأخذت أجري باتّجاه المكان الذي افترقنا عنده لأجده واقفًا ما زال فاتحًا لي كلتا ذراعيه بحنان، فارتميت بأحضانه وأخذت أبكي وهو بكى معي.. كيف ملك لحظتها عينيْه!! لا أدري.

كثيرًا ما سقط تحت أقدامي يقبّلها، كان ينعتني بوجْه الخير، ويطالبني أن أتفقَده دائمًا، هدايا يوم مولدِه الأخير لم يكن يريد قبولها، فكان لقائي الأخير به فوق محطّة قطار محافظته، كان يجري نحوي وأجري نحوه، فإذا به يتوقّف فجأة ويجبرني على التوقّف معه، ثمّ نظر إلى عينيّ نظرة طويلة قبل أن يخطفني كلّي بداخله، لحظات وافترقنا؛ أنا في قطاري وهو إلى بلدته، وهداياي بيده اليُسرى بينما يدُه اليمنى تلوح لي تلويحات عاشقٍ وليس خائن ينوي الرحيل.

فجأة، أخبرني أنّ زوجته سألته عني، وطلبت منه إلغاء صداقتي وحجب حائطي عن حسابه الشّخصي بموقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، توسّل لي أن أسامحه وطلب منّي أن أقوم بإنشاء حساب جديد باسم آخر، وأرسل منه طلب صداقة إليه، وبالفعل أنشأت ذلك الحساب في التّوّ، وظللنا نتواصل من خلاله مدّة ثلاثة أشهر، لكنّ «يوسف» كان موجودًا معي فيه بنصف روح، كان لا يطرق بابَ محادثتي إلّا في تلك اللحظات التي يطلب فيها

الجنس، ثمّ يختفي بعدها تمامًا وكلّما حاصرته بأسئلتي ولوعتي، كان يتفلّت من أصابعي كسمكةٍ انزلقت في وسط محيط دون عودة.

لم أستطع البقاءَ في ذلك الحساب وحيدة أنتظره، بينما هو على حائطٍ سواي جاثمٌ بلا حراك، أخبرته أنّني سأعود إلى حسابي وإلى أصدقائي فأنت لست هنا على أيّة حال، وافق على الفور لكنْ طلب منّي تغيير اسم الحساب أولًا، وبالفعل قمت بتغييره مِن «زهرة صلاح».. إلى «نانا عزيز»، قام بحذف اسمي من قائمة الحظر على حسابه وأرسلت إليه طلب صداقة من جديد، لكنّي كنت أتألم من حالته التي آلَ إليها.. هو موجود لكنّه ليس موجودًا.

كنت أشعرُ بالمهانة كلّما طلب مني الجنس، بعد أن كنت أعطيه إيّاه عن طيب قلب، حينما كان معي كلّه، لكنّي بنفس الوقت كنت أشعر أنّه لا يستطيع الحياة بعيدًا عنّي، ففضّلت الصبر ربما هو في نزوةٍ من نزواته المتكرّرة كلّ فترة وسيعود.

ولا أخفيك قولًا يا «عهد»، عندما ظهر «يوسف» فوق حائطك فدخلت خلفه لأرى أيضًا من تلك المتوشّحة الجديدة، خفتُ.. خفتُ بشدّة، قلت إنّكِ قوية وإنّني لن أستطيع الصمود أمامك أبدًا. بالمناسبة.. هل تعرفين أنّ «يوسف» يعشق المنتقبات، لقد لاحظت ذلك من ظهوره الدائم فوق صفحات بعض المنتقبات على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، لا أعرف ما الذي يستهويه فيهنّ؟! إن كان راغبًا في نساء جميلات فما أكثرهنّ هنا وهناك، لماذا المتوشّحات فقط يثرن ميلَه إلى هذا الحدّ؟!

قبل أن أتحدّث معكِ بأسبوع كنت اتّفقت معه على لقاء لنضع معًا النقاط فوق الحروف، لكنه تنصّل من تحديد موعد للقاء بعد أن طلبت منه ذلك أكثرَ من مرّة".

– ما رأيكِ في مواجهة؛ أنا وأنتِ.. و«يوسف»؟!

– مستحيل أن أمنحه هذا الشّرف بعد الذي كان منه.

– إذًا.. أنتِ تريدين الذّهاب على أمل لقاءٍ ثانٍ يا «زهرة».

– ربّما..

– إنّ «يوسف» يتّصل على هاتفي الآن هل تريدين سماع قولِه فيكِ؟!

– وماذا سيقول مثله في مثلي، هو أقلّ منّي في كلّ شيء، ربما لم تسمعيه وهو يقصّ عن فقْر أسرته، كان يحاول أن يبدو راضيًا لكنّه من داخله شخصٌ حاقدٌ جدًّا، هل تعرفين أنني كنت دائمة الحوادث المرورية بسبب كلامه عنّي وعن سيارتي، صدقيني لقد ارتحت منه كثيرًا، رغم أنّني أحبّه أكثر.

صمتتْ كلتاهما لبعض الوقت، ثمّ عاودت «زهرة» الحديث مرّة أخرى.

"كنتُ أرى في بعض معارفي مَن يتزوّجا بفارق عمر كبير بين المرأة والرجل من دون أدنى مشكلة، وهناك نموذجٌ ناجحٌ جدًّا أعرف بطليْه شخصيًّا؛ تكبر الزوجة فيه عن زوجها بخمسة عشر عامًا، ويعيشان في منتهى السعادة، منذ متى كان السنّ عائقًا أمام الحبّ وأمام امرأة تعرف من داخلها أنّها أنثى، الجميع ينكر عليّ ذلك؛ زوجي، أمّي، ابني.. و«يوسف»، كلّما قلت له تزوّجني يقول لي: "كيف أتزوّجك وأنتِ زوجتي بالفعل؟!".. ثمّ أين هو مِن قوله هذا؟! هل يجرؤ بعد هذا أن يقول فيّ شيئًا؟!".

عادت «زهرة» للصمت ثوانٍ، ثمّ تساءلت:

– هل لا زال يتّصل بكِ حتى الآن؟!

– نعم.

– قومي بالردّ عليه، ودعيني أسمعه من فضلك يا «عهد».

كانت مهاتفةً طويلة، أنكر فيها «يوسف» كلّ شيء، واتّهم «زهرة» بكلّ شيء، كان يردّد– بألم– أنّه ضحية، وأنّها هي التي أرادت منه هذا.

"لقد قصّت لي الكثير عن علاقاتها السابقة، لست الأوّل بحياة «زهرة» يا «عهد»، لكني كنت أرحَمهم بها، لم أعدها قطّ بالزواج، ولكنّي كذلك لم أستغلّها، أعطيتها ما ينقصها وأعطتني ما ينقصني، مقايضة عادلة، لكنّها مَن بدأتني بكلّ هذا، والله شاهد أنّني كنت متلقٍّ في البداية وكلّما أنهيت معها الأمر كانت تهدّدني بالانتحار، لستُ سيئًا يا «عهد» سلي نفسَك لماذا أنكرتها؟! هَبي أنّني رجلٌ لعوب، فلماذا أنْكرها أو أخشاكِ؟! إنْ كنت لعوبًا لحدّثتك عنها منذ أوّل سؤال، فاللعُوب لا يفرق معه ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، إلّا أنّني حفظت عرضَها حتى عنكِ، صدقيني يا «عهد» أنا لست سيئًا أو زيرَ نساء؛ أنا فقط أقبلت على قضمةٍ من التّفاحة التي أغرتني، وها أنتِ قد شققتِ حنجرتي وأخرَجتِها بسلام".

كاذب، منافق، خائن، وحقير..

«عهد» أنهتِ الاتصال و«زهرة» ما زالت تكيل له السّباب وتردّد.. وتردد.. خائن.. خائن.. خائن.

***

خدعةٌ ثانية..

ثلاثةُ اتصالات قصيرة ومُتتالية من رقم والدة «زهرة» على هاتف «عهد» النّقال، فعاودت «عهد» الاتّصال بها فورًا، قصّت الأخيرة عليها كلّ ما دار

بينها وبين «زهرة»، حتى ذلك الاتّصال الذي دار بينها وبين «يوسف» في حضور ابنتها عبر أثيرِ الإنترنت، ثمّ سألتها عن جديدِ ما لديها.

أجابت العجوز بحسرةٍ أنّها تريد الرحيل عن البيت، وأنها لا تقوى على النّظر بوجه ابنتها بعد هذا، في الوقت ذاته كانت «زهرة» ترسل برسالةٍ بريدية إلى بريد «عهد» على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، تتوَسّلها فيها أنّ كلّ ما دار بينهما يظلّ بينهما، وأن لا تخبر أحدًا أيًّا كان بما أسرتها به من أسرار، ثمّ أتبعت شلال الرّسائل المتدفّق منها بأن لا تقوم بإرسال كلام مجتزئ من رسائلها إلى «يوسف».

ابتسمت «عهد» في مرارةٍ في وجْه هذه الخدعة الجديدة من قبل «زهرة»، والتي تُشرك فيها هذه المرّة عجوزها التي تجاوزت السبعين عامًا بشكلٍ مخزٍ، وبنفس الوقت تزرع بعض الشكّ في قلب «عهد» تجاه «يوسف» بذكرها له بلسان الحريصة عليه ما زالت.

تجاوزت «عهد» سريعًا ما استقبلته بصيرتها من تمام الأمور، وأخبرت والدة «زهرة» برسائل ابنتها اللّحظية إليها، ثمّ أردفت:

– ترى.. أين «زهرة» الآن يا أمّي؟!

– هي ليست بالبيت، ربّما مع صديقتها «عتاب» في مكانٍ ما أو في شقتها، أو في أي مكان آخر.

– خيرًا بإذن الله، على أيّة يا حال، فأنا أُحلِّك يا «أمّ زهرة» ونفسي من أية وعودٍ قطعناها معًا، إنْ أردتِ فأخبري «زهرة» بأمر اتّصالي القديم والحالي كذلك، أنا ما أخفيت الأمر إلّا تلبية لطلبك، وأنّ الأمر قد تمّ من أجل

مصلحتها، لكنّي أظنّ أنّ ابنتك كبيرة بما يكفي لأن تعرف ماذا تريد؟ وماذا تفعل؟ وماذا تنتظر؟

ثمّ أنهت «عهد» الاتّصال..

لم تعدْ «زهرة» ترسلُ إلى «عهد» رسالة، أو تجري عليها اتّصالًا، هي موجودة في قائمة الصّداقة لكنْ كالعدم، كانت «عهد» تتفقَدها كلّ فترة فترسل إليها «زهرة» ببعض كلمات المحبة قبل أن تبرّر صمتها بأنّها لا تريد أن تشغل «عهد» بأمرها بعد، كما أنها لم تعدْ تريد الحديث عن «يوسف» مرّة أخرى، ثمّ لا تلبث أن تلقي بمنشورٍ لاذعٍ فوق حائطها.

أحدُ منشوراتها اللّاذعة أخبر «عهد» أنّ «يوسف» قد سدّد لها الخمسة آلاف جنيه التي سبق وأقرضته إيّاهم، ومنشور آخر كان كيديًّا جدًّا وضعت أعلاه حالة أنّها تشعر بالراحة في دسوق- كفر الشيخ.

عذرًا يا أختاه، فليس لكِ بعدَ هذا عذر!

فمتى كانت أفعال الأمّهات، أو الأزواج، أو الأبناء وكلّ ما دونهم.. حجّة للانعطاف عن درب الاسْتقامة؟! ومتى كانت الأنوثة بهذا السّوء الذي تظهرينه الآن؟!

لو كان الأصلُ في الأنوثة الشّغف؛ لما كان ما جاء على لسان الصّادق الأمين محمد- صلّى الله عليه وسلّم-: "قدّموا لأنفسكم"، فالمرأة يا أختاه تتبع الوميض عادةً لأنّها قد تربّت في الشّرانق، فمتى حقّ لها باسم الأنوثة أن لا تفرّق بين النور والنار؟! كلاهما ضوء ودفء وإغراء؛ لكن خفوت الأوّل لن يقتلك، بينما لهثك باتّجاه الآخر سينهيكِ.

وإنّي أغار على نوعي..

وإنّي أمانة في رقبتك يا رفيقةَ النون؛ فإنّ مرضى المضغة التي خلتْ من الصلاح سيجعلونك قاعدة، وسيُمارسون الصيد بحرفيّة بعد اعترافاتك التي أتتْ على هيئة تباهي أنكِ تلقيتِ كلّ إشارة وتجاهلتِها تمنّعًا، وإنّي أغار على نوعي.. على نون كلّ أنثى، كيف أنكِ لم تتقّ الله فيمن ستأتي بعدك، فلستِ سوى بدايةٍ له وإنِ استقمتِ على الدّرب من جديد؛ كيف قبلتِ أن تكوني الأبجدية التي يقرؤها مريضُ المضغة كتعويذةٍ على الفرائس قبلَ أن يردّد في نفسه: "كلهنّ سواء"!.. كلا؛ لسنا سواء يا «زهرة» ولن نكون.

إلغاء صداقة متبوعًا بحظر متتابع لكلّ صلةٍ بينها وبين «عهد»؛ هكذا جاء ردّ «زهرة» سريعًا عندما أرسلتْ «عهد» إليها بهذه الرّسالة، لم تتقبّلها «زهرة» عندما وضعت بوجهها المرايا لأوّل مرّة.. ففضلت المنعَ والحجبَ بعد أن انتهت من مهمّتها بنجاح.

***

كلّ شيء سهلٌ وسريع، ومُتاح عبرَ مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، لكن يظلّ "فيسبوك" يترأس تلك المواقع في كلّ شيء بلا منازع، ويبدو أنّ «زهرة» تعرف ما تريده جيدًا، وأمّا ما ستفعله فقد شرعت فيه منذ بضعة أشهر بالفعل، منذ تبدّل حال «يوسف» معها وآل إلى ما هو عليه، قامت بإرسال طلبات صداقةٍ من إحدى حساباتها القديمة إلى كلّ شخصية لها علاقة به أو بزوجته على فيسبوك، وشرعت في مراسلة بعض أقاربهم بالفعل.

كلّ الخطط والخطط البديلة منسوجةٌ برأسها بعنايةٍ شديدة، هناك وليمة من الانتقام يجب أن توزّع بحرصٍ وحذر، كلّ شخصٍ منهم سيصله الجزءُ

المناسب له من الحكاية، كلّ الأطراف المعنيّة اكتملت، وها هي الضحية التي ستدفع ثمن كلّ هذه الوليمة قد دخلت إلى حائط «زهرة» منذ بضعةِ أشهر، وخرجت منْه اليوم لتحلّ برأس الأخيرة بدلًا من حائطها، بتعديل بسيط في بيانات ذلك الحساب القديم الذي ستستخدمُه «زهرة» لتقديم الأضاحي، ثمّ بتغيير الاسم من اسم وهمي إلى حساب حقيقي، لتصبح «عهد إبراهيم» هي المرأة المبْهمة التي علَى يديها ستنتهي منَ أمرها و«يوسف» إلى الأبد.

ما الذي قد تنتظره أفضلَ من هذا؟ لقد اختفى حساب «عهد إبراهيم» من موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، الآن؛ حتى «يوسف» ذاته يمكنها التواصل معه إن أرادت ذلك دون أن يُكتشف أمرُها، كلّ شيء ميسّر.. ويسير باتّجاه ما تريده «زهرة» تمامًا، وقد بدأت هي بتنفيذ كلّ خططها بالفعل.

كان «رمزي» أخو «مليكة» زوجة «يوسف» هو أسرع مَن تجاوب معها في تلك الفترة القصيرة حتى صار بينهما شبه تواصل يومي، قصّت عليه باسم «عهد» كلّ حقيقتها كـ«زهرة» مع «يوسف»، لكنَّها لم تخبره باسْم العشيق بعد، خدمتها الأقدارُ كثيرًا حين تصادفت مهارته مع ما كانت تلقيه عليه من طُعم بشباك حائطها المزيّف، فلم تكن تعرف بعدُ أنّه بارعٌ في صيانة الأجهزة الذكيّة بكافّة أنواعها كما أخبرها فيما بعد.

– يبدو أنّ جهاز الحاسب الآلي الخاص بي أصابه فيروس ما.

– ما هو نوع الحاسب ومواصفاته؟!

– أنا لا أفهم في تلك النّوعية من الأجهزة، والجهاز محمّل عليه صورنا الخاصّة، وكلّ مقاطع الفيديو الخاصّة كذلك، أفراحنا وأعياد الميلاد.. كلّ شيء خاصّ بنا.. كلّ شيء..

– هل الجهاز مفتوحٌ لديك بالفعل، أمّ أنه لا يفتح معكِ بالأساس؟!

– هو مفتوحٌ أمامي بالفعل الآن، لكنّه ثقيل جدًّا، ولا أستطيع دخول أيّ أيقونة من أيْقوناته الأساسية.

– أنا يمكنني إصلاحُه لكِ من هنا؛ سأرسل لكِ برنامجًا، قومي بتحميله وأرسلي لي الأربعة أرقام التي ستظهر لديكِ.

كلّ شيء صار سهلًا ومتاحًا وموفورًا في هذا الزمان، حتى أنّ رجلًا من غرب الأرض، يستطيع إصلاح حاسوب امرأة من جنوبها بمنتهى السهولة.

TeamViewer هو برنامج تحكّم عن بُعد يتيح لك مشاركةً سهلة وآمنة لسطح المكتب الخاص بك، مع أفراد الأسرة أو أصدقائك أو حتى مع فريق العمل الذي أنت أحدُ أفراده، ويُمَكِّنك كذلك من التحكّم عن بُعد بجهاز الطرف الآخر لتقديم مساعدةٍ ما له كما يفعل «رمزي» معها الآن، هي تعرف هذا البرنامج جيدًا، تستخدمه ضمن فريقِها الفنّي منذ سنوات، هو بالفعل يوفر الكثير من الشّرح أحيانًا، ويساعد على عدم إهدار الوقت بشكلٍ جيد.

أوْهمَتْه أنّها تقوم بتحميله، اختفت بضعَ دقائق ثمّ أرسلت له الأربعة أرقام المطلوبة في رسالة، تركته يلهو داخل جهازِها كما يحلو له، هي تريدُ ذلك، وعندما اقترب من أحد الأهداف المنشودة، أرسلتْ له رسالة أنّها ستذهب مع ابنتها إلى تمرين السّباحة، على أن تترك له الجهاز مفتوحًا ليتمكّن من إتمام ما أرادته منه، وما يقوم هو به بشكلٍ ممتاز بالفعل.

في البداية، كان «رمزي» يُفعِّل ماسحَ الفيروسات فوق كلّ ملفّ دون الولوج إليه، حتى لاحظ في عدّاد برنامج الحماية اسم.. «يوسف عزيز»،

في البداية ظنّ أنّه توهّم الاسم، فأعاد تفعيل الماسح على نفس الملفّ من الخارج من جديد، فلمح اسم «يوسف» زوج أخته للمرّة الثانية، ومن دون أن يتردّد قام بالضّغط على الملف الخارجي ففُتح فورًا، لكنّه قد وجده فارغًا تمامًا من الداخل.. ليست به أيّة ملفّات، فطِنَ على الفور أنّها تُفعِّل خاصية إخفاء الملفّات والتي عن طريقها يمكن للمرءِ إخفاءَ كلّ ما يريده بعدّة ضغطات سريعة، وبطريقة ميسّرة وثابتة، فهي ميزة إضافية توفّرها لنا شركة مايكروسوفت الشهيرة.

قام «رمزي» بتعطيل تلك الميْزة مؤقتًا، ثمّ عاد إلى الملفّ المنشود ليجد عدّة ملفّات كلّها تحمل اسمَ زوج أخته بفارق إضافة عددٍ رقمي بجوار كلّ اسم مثل.. يوسف عزيز١.. يوسف عزيز ٢.. وهكذا..

لا يدري كمْ من الوقت استغرقه «رمزي» في تصفّح تلك الملفّات باسم «يوسف»، هو يعكف على بعض القراءة تارة، ثمّ يتصفّح تلك الصّور العارية لـ«يوسف» تارةً أخرى، بينما وضع كلّ الملفّات الصوتية في برنامج صوت، وقام بتشغيله في خلفيّة سطح مكتبه.

– كيف يمكن لتلك المرأة أنْ تحتفظ بكلّ هذه المحادثات وتلك الصور والمكالمات الصوتية بهذا الشّكل الساذج؟!

إنّ درجة حرارة جسده ترتفع بشكلٍ كبير بين كلّ كلمةٍ وأخرى وصورةٍ وأخرى وهمسةٍ وأخرى، جبينُه يتفصّدُ منه العرق بغزارة، لقد أغرق عرقه قميصَه الذي يرتديه كما لو أنّ أحدهم قد أسقط على رأسه دلوًا من الماء المغلي!

– إنْ كان هذا حالي وأنا أقرأ فقط، فكيف كان حالهما وهُما يكتبان لبعضهما البعض هذا الكلام؟! لقد وصلت عدّة مرّات إلى قمّة الشّبق من مجرد القراءة فقط !

«زهرة» أيضًا وصلت لنفس ما وصل «رمزي» إليه عدّة مرّات، فهي ما زالت موجودة هناك بشقّتها النائية، لم تبرح موضعها كما أوهمتْه أنّها ستذهب مع ابنتها إلى تمرين السباحة، جلست هي أمام حاسبها تراقب ما يفعله، وهي تتابع مؤشّر حاسبه، و«رمزي» يتنقّل به بين ملفات الـ Word وملفّات الصور وتلك الصوتيّة دون كلل أو ملل، لقد كان يلتهمُ المحادثات التهامًا و«زهرة» لا تريد قطعَ وجبته الدّسمة جدًّا عليه، هي تريده أنْ يرى كلّ شيء، ويقرأ كلّ حرف، ويستمع إلى كلّ كلمة، لذلك فهي لا تردّ على رسائله التي بدأت تنهال عليها منذ ساعتين وهي لا تمنحُه جُملة (تمّت رؤيته).

لم تكنْ «زهرة» تعرف بحجم الخلاف الكبير بين «يوسف» و«رمزي»، من أين ستعرف بالعداوة التي نشأت بين فاشل مثل «رمزي» وناجح مثل «يوسف»؟! حتى أنّ أخته الوحيدة.. «مليكة» قد أخذت على طول المواقف صفّ زوجها ضدّ أخيها، بالطبع هي محقّة فـ«رمزي» شابّ مستهتر بالفعل، مدمنٌ للمخدّرات في سنّ صغيرة، وعربيدُ نساء منذ فطن إلى موضع ذكورته، ولصّ كذلك.. فصيَانة الأجهزة لم تكن إلّا ذريعة لسرقة كلّ شيء وأي شيء.

وبعض مصاغ أخته كان إحدى غنائمه ذاتَ مرّة.

لم يرحمْه «يوسف» عندما اكتشف أنّه اللّص الذي سرق مشغولات «مليكة» الذهبية، واستشاط غضبًا عندما علم من زوجته الطّريقةَ التي سرقها بها.

– أن يرفع الأخ سكينًا في وجه أختِه من أجل المال، حتى وإن كان تحت تأثير الخمر أو المخدّرات؛ فهذه جرائم وليست جريمة واحدة.

هكذا قال «يوسف» لزوجته قبل أن يقومَ بكسر باب شقّته بنفسه وسط ذهول «مليكة» وأمّه، وأثار بعض الفوضى في أرجاء الشقة آمرًا زوجته وأمَّه أن لا يُعيدا شيئًا إلى مكانه حتى يعود، ثمّ اصطحبَ رجلين من جيرانه واتّجه بهما إلى قسم الشرطة بوجهٍ يتمعّر من شدّة الغضب.

حرّر «يوسف» بحقّ «رمزي» محضرًا من دون ثغرة واحدة، ولم يحرّك ساكنًا من قسم الشّرطة؛ حتى خرجت معه قوّة من فريق المباحث به من أجل رفع المعاينة عن الباب الذي تمّ كسْرُه على يدِ «رمزي» والفوضى التي أحدثها وهو يحاول طعنَ أخته عندما رفضت إعطاءه علبةَ مصاغها فقام بدفعها وسرقته، ثمّ قام بالهرب سريعًا، وقد رآه بعضُ الجيران وهو يعدو مبتعدًا عن منزل «يوسف» في ذعر.

خمسة أعوام دفعها «رمزي» من عمره ثمنًا لهذا المحضر، الأمرُ الذي أثار حقده تجاه «يوسف» أكثرَ وأكثر.

– وأخيرًا سقطتَ بين يديّ يا «يوسف»، بعد كلّ ما قرأته ورأيتُه الآن، قلْ على نفسك السلام يا زوج أختي العزيز.

ثمّ أتبع حديثَه إلى نفسه بقهقهةٍ عالية زلزلت جدرانَ غرفته الرّمادية، ويبدو أنّ «زهرة» قد شعرت به هي الأخرى، فأخذت تقهقه بشكلٍ شيطانيّ وهي ما زالت تجلس نفس جلستها التي هي عليها منذ نهارٍ وليلة دون ملل.

***

شهرٌ ونصف الشّهر وما زالت «عهد» مختفية تمامًا، إلّا من ذلك الذكر على لسان زوجته الذي لا ينفكّ يلتهم قلبه ليل نهار.

لم يكنْ «يوسف» يتخيّل أنّه يحبّ «عهد» إلى هذه الدرجة، لقد أغلق مكتب المحاماة الخاصّ به في بلدته بعد تلك الفضيحة التي تسبّب له فيها «رمزي»، عندما قام بعمل فيديو فاضح بشكلٍ احترافي، وضع به معظم المحادثات المكتوبة الصادمة الألفاظ بين «يوسفً» و«زهرة»، ونسق داخلَ الفيديو كذلك كلّ صور «يوسف» الفاضحة، كما أنه قام بتحميل بعض المحادثات الصوتية السّاخنة بينهما كذلك، قبل أن يقوم برفعه على موقع يوتيوب الشهير، والذي يتيح بمجانية رفع الفيديوهات فوقه، أنْ يقوم القاصي والدّاني بتحميل أي شيء فوقه دون رقيب أو حسيب.

سجّلت «مليكة» زوجة بطل الفيديو رقمًا ضمن أرقام المشاهدة أسفل الفيديو حين فتحته، والذي تخطّى الخمسمائة ألف مشاهدة في بضعة أيّام فقط.

«مليكة» التي لم تستطعْ مشاهدته لأكثر من دقيقة فقط، في حالة هياج دائم منذ ترسّخت تلك الدقيقة في عقلها فَأذهبت نومَها، وفي قلبها فمزّقته وأحرقته وحوّلته إلى رفات، كيف يُمكنها تصديق مثل هذا في «يوسف»، ابنها الذي لم تحمل به في رحمها لكنّه يجري منها مجرى الدّم في الوريد، كيف جرأ على وضع نفسه في ذلك الإطار المهين، أين كانت هي منه وهو يمارس كلّ هذا الدّنس؟! كيف غاب عن ناظريها لأربعة أعوام كاملة وهو يعاشر تلك العاهرة في مواقع الافتراض!

كم كان فراشها باردًا! كم كان قلبها فارغًا! كم كانت روحها تفتقر إلى سكنها! وكم كانت ساذجة حتى أنّها لم تشعر بتلك الأنفاس الدّخيلة التي

حلّت بينها وبين زوجها، فسرقت منها كلّ تلك الأيام وحرمتها من سكنها إلى زوجها؛ كيف يحدث كلّ هذا دون خطأ واحدٍ يجعل الريبة والشكّ ينبتان بقلبها تجاه زوجها؟!

هي لم تظنّ بـ«يوسف» سوءًا قط قبل هذه الفاجعة التي زلزلت كلّ ثقتها فيه، وجعَلتها هباءً منثورًا.

– "من المستحيل أن أغفرَ لك هذه الجريمة بحقّي، لقد تحمّلت معك ولأجلك وفي سبيلك، أعطيتك وما طلبت، ورغبتك وما لمحت، وصنتُ مالك وعرضك وحفظت غيبتك، واتّقيت الله في أبويك، ولم أبخلْ على الجميع بكلّ جهدي، أيكون هذا هو جزائي بالنهاية؟! لماذا؟! لماذا؟! لماذا لم تلحّ عليّ في الطلب كما فعلت معها؟! لماذا استسلمت لحيائي مع أوّل رفضٍ منّي لأوّل وآخر طلب منك؟! ألهذا الحدّ أنت لا تراني أنثى؟! قل لي يا «يوسف» كيف استطعت أن تخونني وأنت تحرص أن تقوم بعض الليل بي ولو بركعتين ووتْر؟! مَن أنت فيهما؟! أأنت «يوسف» المؤمن أمّ المذنب؟!

سعلتْ "مليكة" بشدّة وهي تطلق بعض التأوّهات المكلومة قبل أن تستطرد من جديد:

– لم تقلْ لي (لأ) قطّ على شيء أردته، ولا على شيء تركته، نصفُك الذي عاش معي كلّ تلك السّنين هل هو ما أنتَ عليه، أمّ أنك ذلك الـ...؟"

لم تستطعْ نطقَها فأجهشت بالبكاء وهي تطلق الآه تلوَ الآه في حرقة، استندت «مليكة» بمؤخّرة رأسها على الجدار خلفها وهي ما زالت تتأوّه في ألم تارة، وتهذِي ببعض الكلمات غير المفهومة تارات، كان «يوسف» جاثيًا على ركبتيه عند قدميها دون حراك، وهو لا يقوى على لمسها ليُهدّئ من روْعها

حتى لا تشتدّ ثورتها عليه، كما أنه لا يقوى كذلك على طرد اسم «عهد» من رأسه، هو يريد- بشدّة- الارتماء بحجرها الآن.. فهطلت من عينيه دمعة تحمل سؤاله المكلوم.. أين أنتِ يا «عهد»؟! أين أنتِ يا حبيبتي؟!

***

في دربي وعلى العهد..

أغلقت «عهد» حسابها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك، حذفت حساب تويتر، أوقفت قناتها على اليوتيوب، وأغلقت هواتفها، ومضت بخطى منهكةٍ مبتعدةً عن كلّ هذا العالم المليء بالزّيف والمآسي، مضت كصدفةٍ فارغة ألقى بها الموجُ الأزرق ذات يوم تحت أقدام صيادٍ جائع، فالتهمها حيَّة كأنّه حوت يونس ولكن لمدّة أطول.. وكأنّ «يوسف» التهمَ عمرَها بأكمله يوم التقته ووهبَتْه من روحها ما وهبته.

حوّلها من قاصرةٍ إلى مقصورة داخله، تنقب عن منفذٍ للنور ينفذ من خارجه إليهما دون طائل، فقرّرت الاستمتاع بالظلام على أيّة حال، حتى أحبّته على عتمته وأنانيته.

لم تخبرْه «عهد» أبدًا بقصّتها معه، كانت تكظم العشق بين جنبات روحِها بجسارة، لم تكن تدري وهي تفعل هذا أنّ النار التي بها و«يوسف» بها؛ ستحوّلها إلى كرة نار.

كلّ يوم مرّ عليها وهي تنازع حبّه كان يزيد من لهبها ويضاعف من تكوّرها حتى صارت.. (شمسًا)، شمسٌ في كبده ونورٌ في ظلمته، ونارٌ تكثّف له من ماء الأرض زلالًا في السماء وتُوضّئه به عنوةً متى وجدته في دنس.

«آخرُ رسائلها إليه»

بعض الدروب قاس المسيرُ فيها من غير صحبة، وكلّ الدروب المصحوبة بالعهود الطيبات مسيرُها برّاق وإنْ وجب الفراق، وإنّي على فرقتنا التي وجبت.. في دربي ما حدتُ، وعلى عهدي ما خُنت، فإنّي مهْما حَمَلْت منك حزنًا سأظلّ أنجب لك التوائم ما بقيت.. «دعاء» بظهر الغيب.. و«أمنية» لقاك في الجنة.

أعلمُ أنّك قد ذقت الحبّ وبرئت من الزّيف، أعلم أنّك تشتهي الوصل، وتشعر بافتقار المغلوب، لكنْ يا «يوسف» أنت وأنا صرْنا كقتيليْن الآن؛ نعلم أنَّا نحتضر وما زلنا نمدّ البنانَ أملًا في نَفَسٍ أخير، وكأنّ كفَّ أحدنا رئةٌ وكفّ الآخر هواء.

– أي يوسف، إنّي "أحبّك".. فافخَرْ.

"أحبّك"، ليست مجرّد كلمة وليست بداية قصيدة؛ بل نهايتها، "أحبّك"؛ هي قلبي على عتبة روحك سقط من بين أضلعي سهوًا عند الثانية عشرة بتوقيت الفراق، وهي دمي المُراق كأضحية عيدٍ أنّك الآن بخير، وهي المَذاق لَمن ذاق ولَمن اشتهى ولَمن عرف، وهي السَّبيَّة في قاع هذا الأزرق الفتَّان، هي درّتك وهديّتك الأولى منِّي، والأخيرة التي إن قبلتها فقد بَرِئت.

فكلّ شيء حيّ له بكَارة، وإن تلك الكلمة حيَّة، وابتذالَها من الأموات مهانة، ومَسَّهم بها بعث.. هي لك يا «يوسف» فلتحيى بسلام.

أمَا وقد قبلت الهدية فدعْني أخبرُك عن أثمانها حتى لا تهدرها، إنّي كمَن أُسبل فاستردّ طرفه على كنز بقلبه؛ حسبتك هديةَ قدَر، ومرّ حولٌ ووجبت زكاتك فافترقنا، ليظلّ هذا الحزن ما بقي لي من عمر.. زكاة عشق.

وإنّي أجالسك الآن، وأحَادثك وأشمّ ريحك، وأُربتُ على ظهرك المحنيّ في معزَلك أنّي معك، لا تستند على راحتيك، وانكفِئ في حجري، واترك بناني تنساب فوقَك لأُمشطّك كلّك، وأزيح حتى عن مقلتيك تلك الدّمعة العالقة.

لا تنظرْ إليّ؛ ففي عينيك عتبٌ وكلام:

– "أنِ اشتقتِ إليّ الآن! لطالما قلتُ لكِ أنِ اغتنمي لحظةَ القرب قبل أن ينفذ هذا السّيف إلينا، أن ابقي في الجوار فإنّكِ الأمان، لطالما أخبرتك أنّ هذه الساعة آتية فئتِ الآن، لكنّكِ أفلتّ ثمّ ها أنتِ تشرقين الآن بروحك وأجسادُنا في فرقة".

وما حيلتي أمام ما أنت فيه إلّا ما أنا فيه؟!

مطوفةٌ روحي حولك منذ أن عرفت أحلام الصبايا، منقوشٌ ملمحك في جُدر روحي كطلسم لم يمْحُه أحد، بينما الفتيات كُنَّ يستدعينَ بالنظر الذّكورة أن تعالي، كانت روحي في تعالٍ تجبر طرفي على البكوريّة، حتى تجلّيت أنت فنظرت؛ ومنذها وأنا.. تنزف من عيني الدّماء.

ما حيلتي وقد وُضعت أنثى، وأمّي لم تنذرني لله!

وبناءُ المحاريب في زمان الكفر «جُرْم»، وحبّ النساء جُرم، وحملي بمثلك كبيرة، وليس لي منزلٌ قصيّ إلّا هذا، أهزّ الأحبار فوقه فيتَساقط ما لا تقرأه الآن مدّعيًا الأمّية!

أيَا أميّ العشق، إنّ القراءة ها هنا أن تحلّ الروح في الرّوح، وهذا كافٍ.... وأنت «كافٌ وأوْحد».

فعلى جميل الحرف دعْنا نفترق.. وسلام علينا..

وسلام علينا.. وكلّ اثنين افترقا وهُما لا يملكان على قلبيهما سلطانًا، فكان قلبُ أحدهما كعنق إسماعيل، ويدُ الآخر تحتضن السّكين وحيًا، فاللهم لنا فداءً وعيدًا وتبديلَ حالٍ.. وسلام على الكاظمين العشق ألفّ سلام.

***

«رسائلُ عائشة»

لم أستطعْ خيانة «ضياء» ولو ليوم واحد، لقد قرّرت مواجهة تحدّيات شعوري الذي نبت بقلبي، بالقفز من قَارب الحياة الزوجية المثقوب هذا، ربّما قبل ظهور «يوسف» بحياتي كنت أنتظر الغرق البطيء باستسلام تامّ، لكنِ الآن صارت لحياتي قيمتُها، وباتت تستحقّ القفز بالحلم في يمّ الأمل، فما من غرقٍ اليوم لمَن لا تجيد السباحة؛ فقد طفا إلى جواري الشخصُ الذي يُمكنني التشبّث به وأنازعُ أمواج الحياة معه دون أن أخشى الغرق.

ما أن انتهيت من دفع أثمان عمري وحريّتي عن طيب خاطر؛ حتى ملكت جناحايّ.. فأخذت أدور وأدور كأنّي وُهبت السّماء بما رحبت، تسوية الطلاق كانت غالية جدًّا؛ لكن امتلاك السلام النفسي يستحقّ، فإنّ وازع الضمير بقلب المذْنب أقوى وأصحّ من وازع الاطمئنان بقلب العابد المتنسّك؛ وإنّي بي نزعةُ ضمير لم تفارقني قطّ حتى بعد أن رُزقت حبّه.. وما كان ذنبي إلّا أنّ جسدي كان ينتهك في الحلال من صاحب الورقة الزّائدة، بينما قلبي يعتصر ألمًا من حبّ «آدمي الأوحد» لغياب نفس الورقة!

ثلاثةُ قروء..

إنّ بي شعورًا كشعور «موسى» الطفل حين أخطأ التّمرة وحيًا؛ فالتقط الجمرة ولثمَها ليمكث في دار ليست داره، وبين أهل ليسوا أهله حتى حين، إنّي لثمت الغربة منذ وُلدتُ، وإنّي- يا أنا- لذاك "الحيِّن" في ترقّب، وإنّ الفقدَ جمرٌ، وجمرُ الفقد صنع في قلبي فراغًا، كلّما اتّسع يجعل الكون في عيني كـ سَمِّ الخياط، منه تنفذ صورتك إليّ، فمتى صوتك؟!

وددتُ لو غفوت فما استيقظت إلّا وقد مضتِ القُروء الثلاثة، فأهْرع إليه.. «يوسف»؛ نفسي التي التقيتُها في الطريق كما قال الدكتور مصطفى محمود في كتابه «٥٥ مشكلة حبّ»: "إنك لا تقابل إلّا نفسك في طريق القدر، كُن كاذبًا تسرع إليك الأكاذيب، كُنْ لِصًّا تتشبث بك الجرائم، في أي طريقٍ تذهب لن يكون قدَرك إلّا صورة من نفسك".

وقد كنتُ له عهدًا، وعلى «يوسف» أن يوفيَ عهدَه..

كلّ الكافرين بالأرقام في الحبّ صاروا كُتّابًا، بقلوبهم من بين العالمين «أوحدًا»، يشيرون بالسّرمدية إليه في رضاهم، وبالأمدية في غضبهم، وإنّي أشتاق أنْ أشير إليه في رضاي وفي غضبي وفي كلّ حال.

كم عشتُ أتفقّد أوراقي في كلّ ساعة قضيتها في انتظاره؛ بحثًا عن تلك البقعة التي تمزج الأسطر وتمحو بعضَ الحروف، كنت أشعر بروحه تقرأ لكنّي أردت أنْ أرى منه "دمعة" تجبّ عنّي حالة المسّ التي أصابتني، فهل إذا تجسّد أمامي كلّه أخشى شيئًا!

إنّي قَبَّلت الطيف، وإني سُحِرت به، ولا ألقي بالًا للمزات المحيطين.

إنّ حاجة البعض للشعور الدافئ أعظمُ من حاجتهم لكلّ الملذات العينية التي يحسدهم الناظرون عليها، فاللّقَطات تصبح صفرية إنْ خلت من التواصل الرّوحيّ الذي هو الودّ، ومن التلاحم البدنيّ الذي هو السكن، ومن استكانة الهامة فوق الكتف والتي هي الرحمة.

ثلاثيةُ كمال..

وبلوغ الكمال بالحلول الأدوم؛ حين لا أملك أنا من نفسي إلّا هو، ولا يملك هو من نفسه إلّا أنا، فيصبَح الفصلُ بيننا موتًا بَعْثَنا منه دمعتيّ توقٍ على آنٍ واحدٍ؛ فيُقِرُّ أحدنا أنَاه في الآخر وينكر كلّ الكون بعد.

تلك السنون التي انفرطت من عمري وأنا أنتظرُه عامًا بعد عام، كانت رقيقة على ملامحي فلم تزدْه إلّا رقّة وجمالًا، ممّا جعلني لا أنصت لحظة لأقوال المتنابزين بذاك اللقب "مطلقة"، إنّي صاعدة على تلال أقوالهم إلى حلمي، وعندما أبلغه سوف يحْسدني عليه البعض، بينما آخرون تتضارب مشاعرهم بين منشغلين بأمري، وثلّة يلوكون لحمي وكأنّي آتيت جرمًا أو تخلفت عن موعدٍ مع الستر، فصار من حقّ البعض أن يتقوّل عليّ بكل الاحتمالات السوداء لمثلي محلقة خارج السّرب.

ومضتِ القروء الثلاثة..

ألا شَرِّعْ لي الآن صدرك وقلْ: «تعالي» فإنّي خارجك أحتضر، وعناق المشتاق لا يأتي على رسلٍ، إذا اشتقت مثلي.. فكنْ أسرعَ من البرق؛ واصْعقني «بك» لأضيء ثانية.. يا «يوسف».

هذا الحنين الذي رآه «يوسف» منّي قد تكَوَّن بي في ثلاثة أشهر فقط من غيابي المتعمّد عنه؛ ثلاثة قروءٍ من الحنين إلى «يوسف» كافية جدًّا أن تحوّلني

إلى وحش كاسر قد يلتهمه إنْ رآه، لكنّ ذلك الوحش استأنس بلقاه فتحوّل إلى هِرّة بين أضلاعه، أنا ضلعك المنقوص الذي لا كمال لك إلّا بوضعي بين أقراني، وأنا التي لا وطنَ لي إلّا بالالتحام بك كسكنٍ فيه- فقط- أجدُ المودّة والرّحمة، وأقْتُل الاغتراب.

إنِّي طالق..

أخبرته أنّني طُلقت، قلتها بفرح طفلةٍ، ورأسي مدثرة بكفّي، لكنّ «يوسف» لم يلتفت لي، كان شاردًا بلا حراك، فتنحْنحت لألفتَ أنظاره إليّ، وما أن التفتَ إليّ حتى قال لي بجمودٍ لم أرَه عليه قط:

- "أنا أحبّ زوجتي، هي ساندتني كثيرًا في بداية زواجنا، وإن كان هناك تقصيرٌ يجب أن يُتّهم به أحدٌ فهو تقصيري أنا بحقّها وليس العكس، زوجتي لا تعرف من الرجال إلّا أباها وأنا، لو تزوّجت عليها- لأيّ سبب من الأسباب- من المُمكن أن تموت فيها، ليس بعد أن غفرَتْ لي ما كان من علاقتي بـ«زهرة»، سامحيني يا «عهد» أنا أحبّك لكنّ هذا وُسعي وقدري.. لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرًا".

لا أدري إلى متى ستظلّ هذه السّحابة البيضاء تبلغني عند كلّ فاجعة؟! أظنّ أنّ التهامها لعشرة أعوام من عمري كافٍ.. أريد أن أستيقظ من كلّ هذا.. خذْ بيدي يا الله.. خذي بيدي يا أمّي فإنّي.. لستُ بـ«عائشة».

***

ثمّة نوعٌ نادر من مرض «فقدان الذاكرة»، يُطلق عليه علماء النفس.. (فقد الذاكرة النفسي المنشأ)، أو (فقد الذاكرة التفارقي).

Dissociative amnesia

يظهر هذا المرض النادرُ نتيجة صدمةٍ نفسية حادّة، أو نتيجة تعرّض الشخص المصاب به لعمل إجراميٍّ عنيف، ممّا يفقد الشخص جزءًا من ذكرياته الشخصية، ومعلوماتٍ عن سيرته الذاتية، لعدّة ساعات، أيّام، أو ربّما لفترة أطول تدوم لسنواتٍ في حالات نادرة جدًّا، الاحتمال الأخير كان من نصيب «عهد».

تتعدّد طرقُ العلاج من هذا المرض النفسي بحسب ما تتطلّبه حالة المريض نفسه، «العلاج بالتنويم» هذا هو أوّل علاج قمنا باستخدامه مع المريضة «عهد إبراهيم» في بداية إحضارها إلى المستشفى، قمنا من خلاله باستدعاء شخصيّة «أمّ عائشة» من ذاكرة «عهد» والتي أبقت عليها داخلها هي وأمّها «سميحة» و«يوسف» فقط، وقد أبلت «أمّ عائشة» بلاءً حسنًا في رحلة شفاء «عهد»، فسهلّت علينا استعادة الذاكرة المنشقّة عن «عهد»، كما أنّ استدعاء «أمّ عائشة» من خلال التنويم؛ قد دعّم تقوية الذات لدى «عهد»، الأمرُ الذي لم نستطعْ فعله معها بالحديث أبدًا.

أمّا «العلاج المعرفي» فهو الثاني من نوْعه الذي استخدمناه مع «عهد»، إذ أنّها صاحبة قلب معتلّ، وكلّ الأدوية المنشطة للذاكرة تؤثّر على أداء عضلة القلب ومستوى ضغط الدّم وسيولته كذلك، الحرصُ الشديد هو العنوانُ الرّئيس عند التعامل مع مريضةٍ تعاني من اعتلال توسعيّ بعضلةِ القلب كما هو الحال مع «عهد».

العلاجُ المعرفي هو نوعٌ من العلاج بدون عقاقير يستخدم في الأشخاص المصابين باضطرابات صدمية حادّة، كالموت أو كالفراق، أو كالصّدمة في شخصٍ عزيز مثلما حدث مع «عهد» تمامًا.

لقد قمْنا بتحديد الانْحرافات المعرفية لديها فوجدت ضمن هلاوسها شخصيةً تدعى «أمّ عائشة»، تبعًا لطبيعة الصّدمات النفسية التي تعرّضت لها «عهد» على التوالي (إجبار على الزواج، وما تبعها من جللِ المواقف، صديقتها «أسيل» وما فعلته معها، سقوطها في الحبّ ثمّ قرار الطلاَق، ثمّ حبيبها خذلها وتركها وحيدةً على قارعة الحبّ)..

هنا كانت طامتّها الكبرى التي قضت على كلّ أحلامها الوردية التي حلمت بها، فلم يجدْ عقلها بدًّا أمام كلّ هذا إلّا أن يمحي من داخل ذاكرتها تلك السّنوات العشرة التي كانت تنكرها بالأساس، ويتوقّف بها عند تلك المشادّة بينها وبين أبيها قبل الزواج.

بقيت رغبتها في الانتقام قابعة في نقطة سوداء برأسها، فقامت باختلاق تلك القصّة عن الحريق الذي الْتَهم كلّ أسرتها وخرجت هي كناجيةٍ وحيدة منه، ويبدو أنّها كانت متابعة جيدة للشّأن العام؛ فجعلت موعدَ الحريق في حكايتها يوافق ذكرى فضّ ميدانيّ رابعة العدوية والنّهضة بالقوّة في الرّابع عشر من شهر أغسطس لعام ٢٠١٣، يبدو أنّ الحدث له أثرُه هو الآخر في ذاكرتها، وإلّا ما أشارت إليه باختلاق ذلك الاستهلال في حديثها عن أسرتها في بداية العلاج.

فكان ذاك الحريق مدخلًا إلى فقدان أسرتها وسيرتِهم وبعض ذاكرتها الذاتية كذلك، قطعت «عهد» بتلك الرّواية الطريقَ بينها وبين أسئلتنا حول أسرتها، والتي لم يعدْ لذكرهم داعٍ بعد أن ادّعت موتهم.

ثمّ حدث الانفصام الذي أوجدته لنفسها بخلق شخصيّة «عائشة» كإشارةٍ لـ «عهد» الزوجة التي ترفضها وترفض حياتها وكلّ ذكرياتها الحزينة

التي مرّت بها، كانت «عهد» تحتفظ بتلك الحياة على شكل رسائل داخل ملفّات Word تحت عنوان «رسائل عائشة»، والتي استخدمناها نحن في فترة العلاج كإعادة ارسالٍ إليها لننعش ذاكرتها.

بعد أن أبقتْ على «عهد» البكر داخل رأسِها، وفي كلّ حديثها كذلك، فأصبح بعقلها شخصيتان بالفعل؛ «عائشة» الزّوجة التي تقضي أيّامها والسلام، والشخصية الأخرى هي شخصية البنت التي لم تتزوّج أبدًا، شخصيتها القديمة التي تحبّها وأحلامها الورديّة فيها، وحالتها كـ «بِكْر» التي تبقي عليها في صورةِ اسمها الحقيقي.. «عهد» التي أحبّت «يوسف عزيز» وتريدُ انْتظاره.

رفضت «عهد» تلقّي جلسات «العلاج الجماعي» تمامًا، الأمرُ الذي اضطرّنا أن نستبدل دعم الأفراد الآخرين في العلاج الجماعي بنقل كلّ محتويات غرفتها- وهي آنسة- من بيت أبيها إلى غرفتِها بالمستشفى، ثمّ قمنا بإحضار جهاز الحاسب الآلي الخاصّ بها من شقتها، وتلك الهدايا التي كانت ابتاعتْها لـ«يوسف» ولم تعطِها له، والذي كان ضمنها ذلك القميص الذي كانت تحتضنه طيلة الوقت.

ثمّ أحضرت لها أختُها الصغرى- فيما بعد- الهاتفَ المحمول الخاصّ بها بعد فترةٍ قصيرة من انْتهاء التوكيل من إصْلاحه، فقد كان معَها- وذلك الإطار الذي تضعه فوق مكتبها باهتمام- حين ألقتْ بنفسها عند منتصفِ الليل من شرفة غرفتها في الدّور الثالث بمنزل أبيها إثْر دخولها في حالة اكتئابٍ طويلة، ثمّ أخيرًا أحضرنا إليها ساعتَها الرّملية التي تحبّها، وقمنا بوضْعها في زاوية شبيهة بتلك التي كانت تضعُها بها في شقّتها كتحفةٍ تليق

بذوق «عهد» الرّاقي، كنا نتعمّد ذلك التّسلسل في إحضار الأشياء إلى غرفتها بالمشفى، الشيء تلوَ الآخر لنشعل في نفس «عهد» الشّغفَ، ونعزّز لديها الرغبةَ في الفهم والإدراك.. والتذكّر.

اليوم، تحضر الطالبةُ الجامعية «عهد إبراهيم» كلّ جلسةٍ من جلسات «العِلاج الجماعي» التي كانت ترفض حضورَها من قبل، ليست كمَريضةٍ هذه المرّة؛ بل كمتدرّبة لمهنتها المستقبليّة، وكداعمَةٍ أيضًا تقوم ببثّ الحياة في الكثير من المرضى، وكأنّها لم تكن يومًا منهم.

***

ما زال خبرُ انتحار مخرجة تليفزيون المنيا تحت عجلات قطار بمحافظة «كفر الشيخ»، يثير جدلَ الشارع المصري، ما زالت حقيقةُ ما حدث غامضةً حتى الآن رغ....

أغلق «يوسف» جهازَ التلفاز وهو يدورُ حول مكتبه، بينما يطلب من سكرتيرته الجديدة أنْ تحضرَ له ملفًّا بعينه من الأرشيف، أملى عليها رقمَ الملفّ المطلوب في عُجالةَ، وهو يشير إلى نهايةِ الطّرقة المؤدية إلى مكتبها كمديرة لمكتبه، في إشارةٍ دلاليّة منه إلى غرفة الأرشيف التي يحتفظ فيها بكلّ قضايا عُملاءِ مكتبه.

كانت حزينةً وصامتة، لم تقلْ له شيئًا وهي تمدّ يمناها تناوله الملفّ الذي طلبه منها في التوّ، فرفع طرفَه إليها وهو يلتقطُ الملفّ المطلوب ليضعَه جانبًا.. وهو يقول:

– لحظة من فضلك.

ما أنِ التفتتِ السكرتيرة إليه حتى استطردَ وهو يعود إلى أوراقه من جديد:

– مِن فضلِك أضيئي الغرفة.

وهي واجمةٌ وضعت عدّة ملفّات كانت تحملها بيدِها اليسرى أمامه، وهمّت أن تفعل ما طلبَه منها، فقبضَ على بنانها بقوّةٍ أفزعتها وأخْرجتها– بعضَ الشيء– من جمودها، ببعض الألم الذي طفا إلى عينيْها الظاهرتين من فتحةِ وشاحها الأسود، والمُنسدل فوق بقيّة ملامحها بهندام.

فابتسم «يوسف» بحنان، وهو يُقبِّل الأصابع التي آلَمها قبل أن يسألها:

– إلى أين؟!

نظرتِ السيدة إليه في حيرةٍ وما زال الحزنُ مختفيًا خلف نقابِها كملامِحها الباهتة، وقالت وهي تشيرُ إلى زرّ الإضاءة قربَ باب مكتبه:

– سأضيء المصباحَ كما طلبت.

عاد «يوسف» يبتسمُ من جديد وهو يقوم برفْع وشاحِها هذه المرّة ليحتضن وجنتيْها بين يديه في حَنان، بينما عيناه تنظران إلى عينيْها بعمقٍ يشبه عمقَ جُرحها منْه، فانحنى قليلًا ومالَ نحوها بنصفِ جسده، ثمّ قبّل وجنتَها بدفء قبل أن يهمس قرْبَها بنبرةٍ حَمَّلَها بكلّ الحبّ المكظوم في قلبه:

– «مليكة» حبيبتي وزوجتي العزيزة، ابتسمي فقط وسيُضاء الكونُ بأسْره وليست الغرفة فقط.

***

[تمّت بحمْد الله]

دار البشائر للثقافة والعلوم

إهداء التّتمّة

إلى روح أستاذي الرّاحل الباقي

«مصطفى صادق الرافعي»

وإليها معك.. «ميّ زيادة»

رَحِمك الله أيّها الصّادق، وغفر لِمُلهمتك

كنتَ يا سيدي "الخالد في نفسي" صاحب أوّل كلمات ترسّخت في روحي، لم أكن أعرف مَن هو الرّافعي! وربّما لم أكنْ لأعرفك أبدًا لولا تلك الذّكرى، لم أسعَ إليك ككاتب يومًا لكنّني وجدتك، كنت يومَها على هيئة كتاب متهرّئ في "غرفة الفُرن" بحديقة منْزلنا الخلفيّة، أمّي.. المرأةُ الخمريّة التي كلّ علاقتِها بالأوراق أن تقطفَ منهنّ قصاصةً تشعلها بعودِ ثقاب حتى يسهل عليها إشعالُ موْقدها البلدي حينذاك، هي التي أطعمتْ كلماتكَ للنّار فاغْفرْ لها، لكنْ لولا احتراق كلماتك هناك؛ ما كنت أنا هُنا أقصّ على روحك الحاضرة حولي هذه الذّكرى الغالية.

وربّما هي أنفاسُ أمّي كذلك..

كنت أحبّ التّدفئة بأنفاس أمّي، أينما تذهبُ أنا خلفها، وهذا ما جعل الطفلةَ ابنة العشْر سنوات تجلسُ هناك، وتلبّي نداء أمّي ونداءَك.

– دعاء، اقطعي لي ورقةً من الكرّاسة اللّي وراكِ دي.

سمعتُها ولم أقطعْ لها شيئًا..

فقد وقعت عيناي على تلك الجُملة لك، والتي ظلّت كما هي مكتملةً في مكانها، وليست قصاصة مُحترقة في «فرن» أمّي.

"أريدها لا تعرفني ولا أعرفها، لا من شيءٍ إلّا لأنّها تعرفني وأعرفها.. تتكلّم ساكتةً وأردّ عليها بسكوتي، صمتٌ ضائعٌ كالعبث، ولكن له في القلبيْن عمل كلامٍ طويل".

جُملة في كتاب ممزّق، بين تراب فرنٍ بلديّ، تقرؤها طفلةٌ في صفّها التّمهيدي الرابع، وتعتبرها كنزًا ملقًى في غرفةٍ بلا أقفال.

فكان كتابُك «أوراق الورد» يا سيدي؛ هو أوّلَ قطرةِ رواءٍ لروحي العطشى، لريٍّ لم أكن أعرفه.. وعرفتُه حين عرفتك، وعرفتُها من بعْد..

مُلهمتك الرّائعة والمميّزة في الأدب «ميّ زيادة».

فحين يُذكَر «الرافعي» تُذكَر «ميّ».

أدامَ الله ذكرَكما بالخير،

وسلامٌ على الفَيض والغَيض، ألف سلام.

(دعاء علي)